

المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي
سلسلة أبحاث الحرمين العالمية (١)

منزلة اللغة العربية

بين اللغات المعاصرة

دراسة تقابلية

تأليف
الأستاذ الدكتور عبد المجيد الطيب عمر
أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة أم القرى

تقديم
معالي الأستاذ الدكتور
عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس
الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
و
الأستاذ الدكتور
محمد أبو موسى
أستاذ كرسي البلاغة بالأزهر الشريف

ز البحث العلمي وإحياء التراث
الطبعة الثانية ١٤٣٧هـ



البريد الإلكتروني لمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي

src@gph . gov . sa

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

سورة النحل، آية : ١٠٣

الإهـــــداء

إلى كل الذين يتطلعون ليروا عالَـماً

تكون فيه للعربية سيادة وريـادة

شكر وعرفـــان

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده .

وبعد : فالشكر أجزله ، العرفان أكمله للمشرف علىٰ هذه الدراسة ، الأستاذ الدكتور : بكري محمد الحاج ، عميد كلية اللُّغة العربية في جامعة أم درمان الإسلامية - السودان ، والذي كان له الفضل بعد الله عَزَّ وجلَّ ، في أن ترىٰ هذه الأطروحة النور .

والشكر من خلاله موصول إلىٰ أساتذة هذه الجامعة الإسلامية الفضلاء ، وعلىٰ رأسهم قائد مسيرتها وربان دفتها ، الأستاذ الدكتور الزميل : حسن عباس حسن ، مدير الجامعة ، والذي وجدت من لدنه دعماً أدبياً وسنداً معنوياً كبيرين ، كان لهما أكبر الأثر في إنجاز هذه الدراسة وإتمام فصولها وضبط نقولها ، حتىٰ استوت علىٰ سوقها .

والشكر موصول إلىٰ الإخوة الفضلاء والأساتذة الأجلاء بكلية اللُّغة العربية : أقسامها وفروعها الذين وجدت منهم كل مساعدة ومساندة ومعاضدة .

والشكر من بعد لكل الإخوة الأخيار الذين وقفوا معي ودعموني معنوياً وساندوني أدبياً .

فالله أسال أن يجزيهم عني خيراً ، ويوفيهم أجورهم بغير حساب .

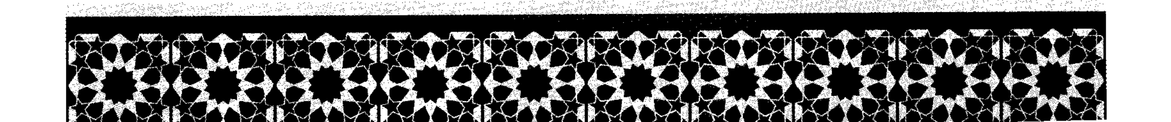
وأخص بالشكر الأستاذ : عبدالدائم عنبر فرج ، والأستاذ الدكتور : يوسف بن سليمان الطاهر ، والدكتور : كمال أحمد محجوب ، من جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة .

والشكر موصول للأخ الدكتور : أحمد طمسون ، والمستشرق : جون كللي ، اللذين أبديا اهتمامًا خاصًا بهذه الدراسة ، وزوداني بمعلومات قيّمة ومراجع نفيسة نادرة عن تاريخ اللُّغة العربية والانجليزية معًا .

وختامًا أقدم شكراً جزيلًا وعرفانًا خاصًا لزوجتي السيدة الفضلىٰ (الأميرة) نازك بنت (الأمير) عثمان مكي أزرق .

كما أتقدم بالشكر لأبنائي : المهندس محمد ، والدكتورة : إسراء ، والدكتورة : إسلام ، و الدكتور : سياف ، والمهندس : عمرو عثمان ، حفظهم الله جميعًا ، وزينهم بالتقوىٰ والعلم والإيمان .

الباحث



مستخلص الدراسة

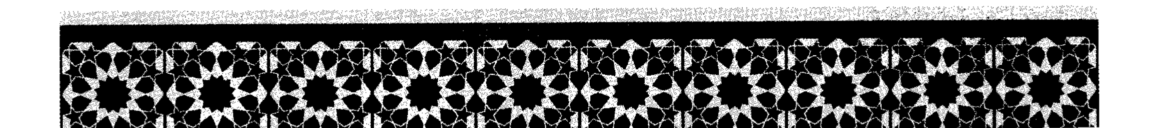
جاءت هذه الدراسة بعنوان **منزلة اللُّغة العربية بين اللُّغات المعاصرة** ، وهي تهدف بداهة إلي تحديد موقع اللُّغة العربية بين لغات العصر ، وذلك بناءاً علىٰ نظريات علم اللُّغة التقابلي . بدأت الدراسة باستعراض تاريخ اللُّغة العربية ونشأتها ومقارنتها بتاريخ ونشأة اللُّغات الأخرىٰ ، فوجد الباحث أن العربية ذات تراث عريق ، وتاريخ موغل في القدم ، حيث وصلت العربية إلىٰ الزمان الحاضر عبر تاريخ بعيد غابر . ولكنها رغم ذلك ظلت ناطقة علىٰ السنة المعاصرين كما كانت تنطق علىٰ السنة السابقين ، دون أن تستغرب أو تستعجم ، بل ودون أن تتبدل أو تتغير أو تموت . وهذا أمر نادر الحدوث ولم يسجله التاريخ إلا للّغة العربية ، التي يقرأ القارئ نصوصها القديمة دون الإحساس بقدمها . علىٰ حين أن نصوص اللُّغات الأخرىٰ تستغلق علىٰ الفهم إذا مضىٰ علىٰ إنشائها قرن أو قرنان وتوضع لتفسيرها المعاجم ، وتصبح من مقتنيات المتاحف إن مضىٰ علىٰ تأليفها أكثر من ذلك .

أما من حيث نشأة اللُّغة العربية ، فوُجد أن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب ، وذروة النمو والكمال ، وكأنها لم تمر بما مرت به اللُّغات الأخرىٰ من مراحل التخلق والتطور ، حتىٰ قال بعضهم بأنها هكذا كان انبثاقها إلهامـًا ، وظهورها إعجازاً وخرقـًا لناموس تطور اللُّغات . ثم جاءت مرحلة نزول القران الكريم بها ، فتعاطت مع تعاليم تلكم الرسالة الخالدة إكسير الحياة ، وسر البقاء ، فخلدت وبقيت ، واضمحل ومات ماسواها من لغات . ثم دلف الباحث إلىٰ أصوات العربية ، فوجد أن أهم ما يميزها ثباتها ، واستقرارها المذهل ؛ فهي لم تتغير ولم تتبدل علىٰ مر السنين وتعاقب الأجيال الناطقة بها ، علىٰ حين أن بعض أصوات اللُّغات الأخرىٰ تتبدل وتتحول بل وتختفي من نظامها الصوتي تماما . ثم

إن أصوات اللُّغة العربية جاءت موزعة توزيعـًا متوازنـًا علىٰ أطول مدرج لجهاز نطقي عرفته لغة إنسانية ، فتخرج واضحة متمايزة سهلة سلسة ، وهذا نقيض ما يوجد في اللُّغات الأخرىٰ التي قد يتكاثر خروج أصواتها من مخرج واحد ، فتتقارب في نطقها وتأتي باهتةً غامضةً يصعب علىٰ متعلميها من غير بنيها إنتاجها وتمييزها .

ثم تناول البحث الكتابة والهجاء في اللُّغة العربية ، فوجد أن أهم ما يميُّز الكتابة العربية ، أنها كانت ومنذ نشأتها الباكرة تمثل نموذجـًا متطورًا جدًا لنمط الكتابة الصوتية القياسية . فمن سمات الكتابة العربية التطابق شبه التام بين المكتوب والمنطوق ، فلا يوجد في العربية حروف تُكتب ولا تنطق ، كما لا توجد أصوات تنطق في الكلمة دون أن تمثل بحروف عدا بعض الاستثناءات القليلة والتي تحكمها قوانين صارمة وقواعد محددة . ولا يوجد في العربية حروف لها أكثر من قيمة صوتية واحدة ، كما لا توجد في الأبجدية العربية حروف مركبة (Diphthongs) . فالكتابة في اللُّغة العربية بتلك السمات القياسية قلَّ أن يوجد لها مثيل في اللُّغات المعاصرة الأخرىٰ .

أما من جهة النحو والذي يمثل أحد معايير ضبط اللُّغة ومعرفة قواعد استخداماتها ، فقد عرف هذا الفن في سائر اللُّغات ، لكن النحو العربي كان الأكمل والأشمل والأوسع أبوابًا . فالنظام النحوي العربي نظام مفتوح ، لا تُحدد فيه وظيفة الكلمة بمجرد موقعها في الجملة ، كما هو الحال في النظم النحوية المغلقة السائدة في اللُّغات الأخرىٰ ، بل إن في النحو العربي معايير إضافية مثل استخدام الحركات ، أو ما ينوب عنها لتحديد وظيفة المفردة في الجملة بغض النظر عن موقعها . والنحو في العربية يشتمل علىٰ كثير من القوانين الثابتة التي تساعد علىٰ ضبط استخدام اللُّغة وتوضيح معانيها ، وإزالة الغموض الذي هو سمة ملازمة لكثير من اللُّغات المعاصرة .

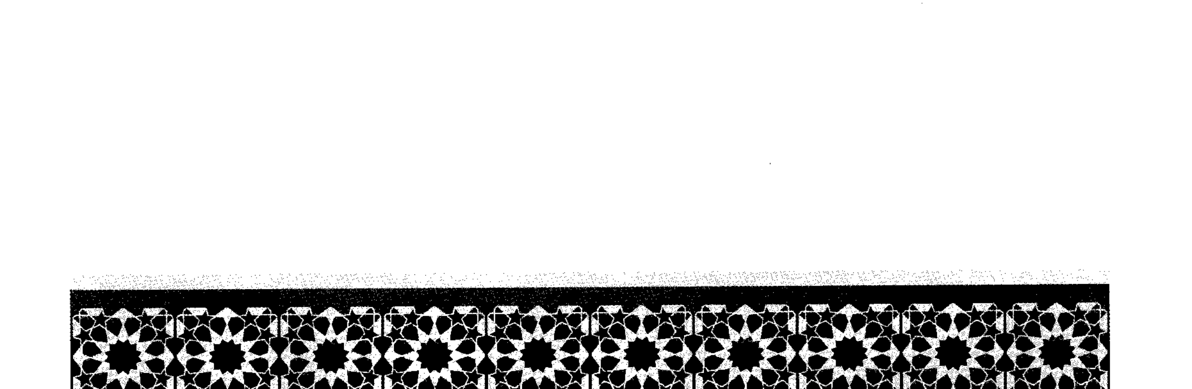


ثم هناك الصرف ، والذي هو صنو النحو وقرينه . فكان من ميزات العربية أن حباها الله بميزان صرفي قياسي دقيق ، يستطيع متحدث العربية بواسطته اشتقاق عدد كبير من المفردات من صيغة الفعل الماضي أو المصدر . وهذه خاصية عظيمة تساعد علىٰ بقاء اللُّغة حيَّة ، كما تساعد علىٰ اختصار الوقت المطلوب لتعلمها وإتقانها . وتتيح الفرصة كاملة لاستخدام المنطق والعقل والذوق السليم لاشتقاق مفردات جديدة أو فهمها ، دون أن يكون الدارس قد اطلع عليها من قبل . وهذه ميزة أخرىٰ فاضلة قلّ أن يوجد لها مثيل في اللُّغات المعاصرة التي تفتقر لنظم صرفية ثابتة تعين علىٰ دراستها وفهمها .

واللُّغة العربية دون سائر اللُّغات الإنسانية تذخر برصيد وافر من المفردات ، وتتسع إمكاناتها للتعبير عن المفاهيم المتجددة من خلال آليات ذكية مثل الاشتقاق والنحت لصياغة مفردات جديدة . أما اللُّغات الأخرىٰ ، فهي ذات رصيد محدود من المفردات ، وتقلّ بها إمكانية الاشتقاق والنحت ، مما يجعلها تعتمد كليّاً علىٰ الاقتراض من اللُّغات الأخرىٰ .

واللُّغة العربية لا تكتفي بالتعبير عن المفاهيم المختلفة بدقة فحسب ، بل تسعىٰ لتحقيق ذلك من خلال تطبيق أعلىٰ معايير الجودة الشاملة ، وإتباع مسالك الإحسان و الإتقان ، حيث تقدم تلك المفاهيم في أطر جمالية أخاذة ، وصور بلاغية رائعة تحقق الفهم والإمتاع معا ، وتكسر حاجز الرتابة ، وتثري الفكر والوجدان .

هذه السمات المثالية وغيرها من الميزات تضع اللُّغة العربية في مقدمة اللُّغات المعاصرة ، وترشحها لأن تكون اللُّغة التي يبحث عنها علماء اللُّغة المحدثون لاتخاذها لغة كونية مشتركة لسائر بني الإنسان .



تقديم معالي الرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي الأستاذ الدكتور : عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس

الحمد لله ، فتقَ ألسِنةَ عباده بالبيان ، وأجراها باللغة في كلِّ آنٍ وشانٍ ، يصِلون بلُغاتهم إلىٰ قِمَم الإبداع ، وذروة الإفهام والإقناع ، أحمدُه سبحانه ، ترادفَت نعماؤه ، وتوالَت نعمُه وآلاؤه ، والصلاة والسلام علىٰ نبينا وسيدِنا محمدِ بن عبدِالله ، طُبع علىٰ رائقِ الكلام ، وبديعِ اللفظِ والنظام ، وعلىٰ آله وصحبه ما تعاقبت الليالي والأيام .

أما بعد : فلا ريب أن للّغة العربية منزلة لا تضاهىٰ ، ومكانة لا تسامىٰ ، فهي اللغة التي اختارها الله لتكون لغةً لكتابه الكريم ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[الزخرف:٣] ، وهي اللغة التي اختارها الله لتحمل خاتمة الرسالات السماوية إلىٰ كافة البشرية ، وهي اللغة التي افتخر بالانتساب إليها سيد الأولين والآخرين حينما قال : « أنا أفصح العرب ، بَيْدَ أني من قريش » . رواه الطبراني في معجمه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

اللغةُ العربيةُ زهرةُ التأريخ العابِقة ، ومُزنةُ النور الوادِقة ، وإشراقةُ الدنيا الصادقة ، وشهادةُ الأجيال الناطقة ، إنها المنهلُ الدَّفوقُ للعلاء والتَّمكين ، والبيانُ والتبيينُ للنورِ والحقِّ المُبين ، والينبوعُ الثَّرُّ الذي ترتوِي منه العقولُ الصادِية ، والسِّراجُ الوهَّاجُ الذي يُضِيءُ المجتمعات العاشِية .

لغةٌ إذا وقعَت علىٰ أسماعنا كانت لنا برداً علىٰ الأكبادِ
ستظلُّ رابطةً تؤلِّفُ بيننا فهي الرجاءُ لناطقٍ بالضادِ

ولقد زادَت الشريعةُ اللغةَ العربيةَ مكانةً وأهميَّةً ؛ حيث أصبَحت ثانِيَ اثنين لأقوىٰ هُوِيَّة : الهوِيَّة الإسلامية ؛ لأنها كما قال الإمامُ ابنُ كثيرٍ -رحمه الله- : « أفصحُ اللُّغات ، وأجلاها ، وأحلاها ، وأعلاها ، وأبينُها ، وأوسعُها ، وأكثرُها تأدِيةً للمعاني التي تقومُ بالنفوس ، فلهذا أُنزِل أشرفُ الكتبِ بأشرفِ اللُّغات » .

وهي من أهمِّ الوشائِجِ لرَفوِ الرَّتقِ ، وإحكامِ الآصِرة في وجه الفتنِ العواصِف ، والمِحَن المُتراكبةِ القواصِف ، لذا تنمَّرَ الأعداءُ ، وكشَفُوا عن مِرَّتهم السوداء ، وقال قائلُهم : « إننا لن ننصِرَ علىٰ المُسلمين ما دامُوا يقرءون القرآنَ ويتكلَّمون العربيةَ ، فيجبُ أن نُزيلَ القرآنَ من وجوهِهم ، ونقتلِعَ العربيةَ من ألسِنَتهم » .

وأعلَنوا عليها حرباً ضَروساً ، وأظهَروا لها وجهاً عَبوساً ، وأنفَقوا الغالِيَ والنَّفيس لتغريبِ اللسانِ العربيِّ وقطعِه عن منابعِ البلاغة ، واللَّجاجة به في العُجمة والمَغاغة .

ولله در الشاعر حافظ ابراهيم حين قال :

أيطرِبكم من جانبِ الغربِ ناعبٌ ينادي بوأدي في رَبيع حياتي؟!!

وأثارَ هؤلاء الجَعاظِرةُ العَكُوبُ ، وصَعفَقُوا في الآفاقِ والضُّروب ، ولكن انعكَسَ عليهم الأملُ ، واستنوَقَ فيهم الجملُ ، وصارَت فِعالُهم ضِغثاً علىٰ إبالَة ، وسقطَت أحلامُهم في سِفالة ، وارتدَّت أعمالُهم علىٰ وجوهِهم خاسِئة ، واشتدَّت لُغتُنا فكأنما هي ناشِئة .

وما علىٰ العنبَر الفوَّاحِ من حرجٍ أن ماتَ من شمِّه المأفونُ والنَّتِنُ

ومن هنا حرصت الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي علىٰ المشاركة في إثراء هذه اللغة وإعادة مجدها ، وإحياء عزها ، وتنبيه أبنائها إلىٰ

محاسنها ، فوقع الاختيار علىٰ هذا الكتاب الأنيق في عنوانه ، الفريد في مضمونه ، ألا وهو :

« منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية »

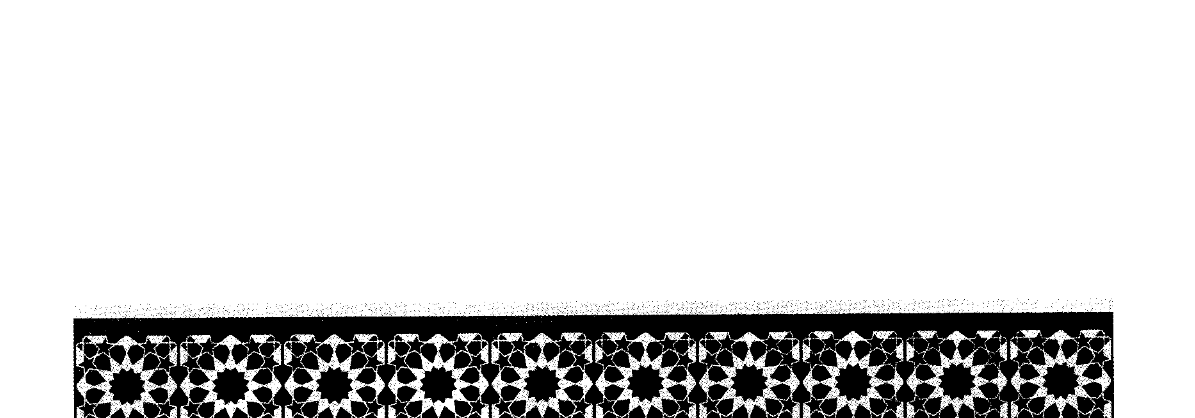
لباحث متميز ، تفرد في لغتين عالميتين ، واطلّع علىٰ دقائقهما ، واكتشف الكثير من أسرارهما ، كما أنه أحاط بجملة من اللغات الأخرىٰ المهمة ، فقابل بين تلك اللغات وحاكم بينها محاكمة عادلة وخرج بنتائج مذهلة دونها في هذا الكتاب .

وهذا الكتاب هو باكورة الثمار وأول القطاف لسلسلة أبحاث الحرمين العالمية ، ضمن سلاسل مباركة ، ينتجها : مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، الذي تشرف عليه الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي .

فأسال الله أن يبارك في الجهود ، وأن يضع القَبول لهذه الأعمال المباركة ، كما نسأله أن يوفق خادم الحرمين الشريفين الملك : سلمان بن عبدالعزيز آل سعود ، وولي عهده الأمين ، وولي ولي العهد لما فيه خير العباد والبلاد ، وأن يجزيهم خير الجزاء علىٰ دعمهم وبذلهم وسعيهم في خدمة الحرمين الشريفين ، وإعزاز مكانة اللغة العربية ورعاية قضايا الإسلام والمسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

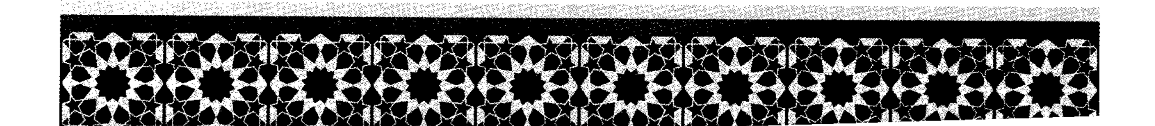
وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .



تقديم أستاذ كرسيّ البلاغة بالأزهر الشريف
الأستاذ الدكتور : محمد أبو موسىٰ

الحمد لله الذي بيده تتمُّ الصالحات ، والصلاة والسلام علىٰ رسوله قدوة الصالحين والصادقين ، الداعين للحقّ والخير إلىٰ يوم الدّين ، وبعد :

فمن توفيق الله لأهل العلم أن تَتَوجه أقلامهم إلىٰ القضايا الحيّة التي يغيب فيها حقّ ، ويظهر فيها باطل ، ويعزّ فيها أنصار الحقّ ويتخاذلون ، ويكثر فيها أنصار الباطل ويتآزرون . والأقلام التي تتوجه إلىٰ هذه القضايا وتصدق ما عاهدت الله عليه لا يكون كتابها فكراً بين أيدي الناس وحسب ، وإنما يكون بجانب ذلك بلسماً ناجعاً لداء يتسلل في نفوس الناشئة ويمتد . وهكذا جاء كتاب الكاتب الفاضل الدكتور عبد المجيد الطيب ، ليكشف الكدر الظالم عن وجه العربية الأنوار ، وقد كان ذلك الكدر يثار حول العربية بأيدي أعدائها من خارج ديارها ، وهو الآن يثار حولها ، بل ويحيط بها من داخل أسوارها ، وبألسنة أبنائها . وحسبنا أن نرىٰ العديد من أبنائنا يدرسون في مدارس قطع فيها لسان العربية ، وقد انزوت العربية في مدارس نسميها حكومية ، وهي في غاية الإهمال ولا يدخلها إلا أبناء الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه علىٰ أولادهم في المدارس الخاصة ، التي هي مدارس اللُّغات . وحسب الدكتور عبد المجيد الطيب أن يقف في هذه الحالة وفي هذا الوقت ليضع لنا لغتنا بين اللُّغات التي صرنا مولعين بها ، وأن يكشف لنا بموضوعية كاملة ، وحياد تام ، عن وجهها الأزهر ، وكأن لسان حال قارئ الكتاب يقول أي جهل وعمه نحن فيه ، حين ننصرف عن هذه اللُّغة



الشريفة الرائعة المتميزة والمتفوقة إلىٰ غيرها مما لا يجوز أن يوضع معها في مقارنة؟

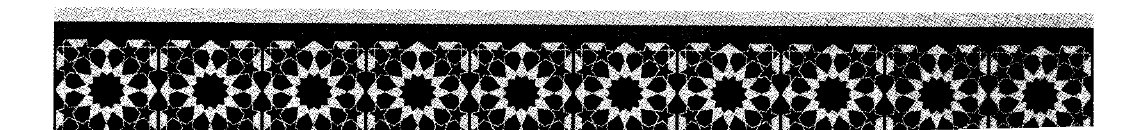
وقد ذكرني عمل الدكتور عبد المجيد بعمل أنجزه أمين الخولي (رحمه الله)، ووجه الشبه بين العملين هو التضاد، وأعني كتاب « **فن القول** ». فقد كان في مواطن كثيرة منه يقارن بين بلاغتنا وبلاغتهم، ويعني الأوروبيين. ويقتبس نصوصا من كلام علمائنا المتأخرين جداً، وغالباً ما يكون الاقتباس من كتب الشروح والحواشي، وفي الصفحة المقابلة، أو في النصف الثاني من الصفحة يقتبس كلاماً جيداً جداً من كلام الآخرين في بلاغتهم، ثم يعلق تحت ما اقتبسه من كلام حواشي علمائنا بمثل قوله: انظر لترىٰ وجهاً شاحباً معروقا، ثم يعقب علىٰ النصف الآخر من كلام غيرنا بعكس هذا. وكنا نقرأ ذلك في حداثة الطلب، وقبل أن نحسن الاتصال بأصول علومنا ويصيبنا الإحباط. رحم الله الشيخ أمين، فقد قدم مع هذا، علماً كثيراً نافعا، وأن الحسنات يذهبن السيئات. وكتاب الدكتور عبد المجيد الطيب كأنه جاء بعد هذا الزمن الفارق بينه وبين كتاب « فن القول » ليعدل الميزان ويقوم بين العربية وغيرها بالقسطاس المستقيم.

وقد بدأ الدكتور: عبدالمجيد بالعربية منذ نشأتها متسائلا: أهي توقيف أم اصطلاح؟ ثم تتبع تأريخها الموغل في القدم والمغيَّب عنا، وأن أول عهدنا بها كانت قد بلغت الذروة في البلاغة والبراعة، ثم ماشىٰ تاريخها المعلوم لدينا إلىٰ الزمن الذي نحن فيه. ثم خاض في علومها مبتدئا من أدقها وهي أصوات الحروف، ثم الاشتقاق، ثم التراكيب النحوية، ثم الوسائل البلاغية. وهو في كل هذه الميادين يتصل بأقدم مصادرها ويتعامل معها تعامل الخبير بها، وكأنه من شيوخ المتخصصين في هذا اللّسان، ومن خبراء العارفين بتراث العربية العريق القديم، وناهيك عن اتصاله بأمثال سيبويه وأبي الفتح والجرجاني، وهؤلاء لم

يعد المتخصصون في العربية الوصل بهم إلا لماماً أو خطفاً من دراسات الآخرين .

ثم إن الكاتب الفاضل جعل كلّ ذلك في لوحة ، وعرض فيما يقابلها أحوال اللُّغة الانجليزية بادئاً بالنشأة وعلومها وأصولها ، وعرض ذلك كلّه بأمانة وتجرد وحياد ، وطلب من القارئ أن يرجع البصر كرتين ثم يرىٰ ما يرىٰ . وكان أبو الفتح ابن جني أكثر حضوراً في ذاكرتي وأنا أقرأ هذا الكتاب ، ولم يكن ذلك لأن أبا الفتح كان محبا للعربية ومولعاً بها كحب الدكتور عبد المجيد الطيب وولعه بها ، وإنما لأن الذي أنجزه الدكتور عبد المجيد كان هاجساً يراود أبا الفتح ، وكان يسأل أشياخه الذين لهم علم باللُّغات ، ويقول هل تجدون كذا فيما علمتم من لغات؟ أو هل يمكن موازنة ما بنيت عليه العربية بما بنيت عليه ما علمتم من لغات؟ وكان الجواب : أنّ الفرق بين العربية وغيرها من اللُّغات لا يسمح بأي قدر من الموازنة .

ومن أهم ما يتميّز به هذا الكتاب أنه قام علىٰ المقابلة بين العربية وغيرها من اللُّغات المعاصرة ملاحقا كلّ عناصر اللُّغة من حروف وأصوات وكلمات وتراكيب وغيرها ، وملاحقاً تاريخ وتطور وما يحدث في اللُّغات من عناصر تتغير أو تتمحور أو تتبدل أو تزول . ولم أقرأ كتاباً شغل هذه المساحات بهذا العمق ، لأن رجالنا إما أن يكونوا من علماء العربية ، وليس لهم أيّ خبرة بأيّ لغة غيرها ، وإما أن يكونوا من علماء اللُّغات الأخرىٰ ، وليس لهم أي خبرة بالعربية . وظل هذان الفريقان وبينهما برزخ لا يبغيان ، وقلما وقف واحد في هذا البرزخ حتىٰ جاء الدكتور : عبدالمجيد الطيب ووقف في هذا البرزخ ومدّ يديه الطويلتين ، فأتت كلّ واحدة منهما بفقه اللُّغة التي يريدها ، وملأ بنتائجه هذا البرزخ ، وصار أهل العربية يرون صورة اللُّغات الأخرىٰ ، وصار أهل اللُّغات الأخرىٰ يرون صورة



العربية بوضوح تام . وهكذا عقد هذا الكتاب الشبكة بين الفريقين ولـم يـدع مقـالًا للتزيد ولا مجالًا للاستهانة بما لا يستهان به .

عزيزي الطيب!!

أردت بهذه المقدمة أن أضعَ مِثقالَ ذَرَّةٍ يُثقلُ مِيزانَ بَحثِكَ لِشِدةِ اعتزازي به

محمد أبوموسىٰ

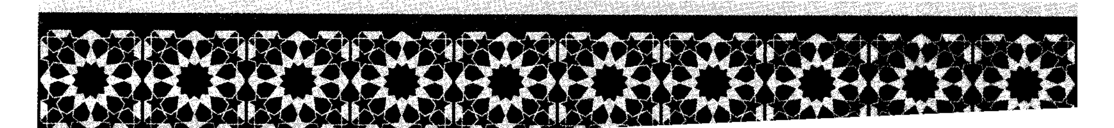
الفصل الاول :

المقدمة وتعريف المشكلة

مقدمة :

حسب اللُّغة العربيَّة مكانة ورفعة وتشريفـًا أن يصطفيها الله -عزَّ وجلَّ- دون لغات العالمين ويجعلها لغة للقرآن الكريم ، الذي يحوي في ثناياه تعاليم وشرائع الإسلام ؛ تلك الرسالة الخاتمة الشاملة الموجهة للخلق أجمعين : إنسهم وجنهم علىٰ السواء ؛ وإلىٰ الناس كافة علىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وعلىٰ اختلاف عصورهم وأزمانهم ، وعلىٰ اختلاف أمصارهم وبلدانهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ آية : ٢٨] . ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾[الشورى آية : ٧] . وحسب العربيَّة مكانة وشرفـًا وتعظيمـًا أن يصفها الله جلَّ شأنه بالوضوح والإبانة . ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾[النحل ، آية : ١٠٣] . والحقيقة التي لا خلاف عليها ، أن قمّة ما تبلغه لغة ما في الشرف وعلو المكانة ، أن تكون لغة مبينة ، قادرة علىٰ الإشفاف والإفصاح عما في نفس المتحدث ، وبنفس القدر تكون معقولة ومفهومة من قبل السامع أو المتلقي﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[الزخرف ، آية : ٣] . ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾[فصلت ، آية : ٤٤] .

فما هي إذن تلك السمات التي خصَّ الله سبحانه وتعالىٰ بها اللُّغة العربيَّة ،



وميّزها بها حتىٰ تبوأت هذه المكانة السَّامية بين لغات البشر؟ وكيف تهيأ لهذه اللُّغة الشريفة أن تبلغ ذلك الشأو الذي لم تبلغه لغة أخرىٰ في تاريخ البشرية؟ والسؤال الأكثر إلحاحـاً : لماذا ظلت هذه اللُّغة كما هي ، رغم ضآلة الجهد الإنساني المبذول لحفظها ؛ لم تتبدل ولم تتغير؟ بل ولماذا لم تمت مثلما ماتت جميع اللُّغات التي سبقتها ، والمعاصرة لها أوالتي جاءت بعدها؟ فقد شهد التاريخ موت الهيروغلوفية لغة الفراعنة وبناة الأهرام! ، و شهد التاريخ موت اللُّغة الإغريقية واللُّغة اللاتينية ؛ وهما لغتان لإمبراطوريتين بلغتا في القوة شأواً عظيماً ، وخضع لسلطانهما ملوك مشارق الارض ومغاربها! ومن بعد ماتت اللُّغة العبرية والأرامية وهما أختا العربيَّة حيث تُعدان فرعين من فروع الدّوحة الساميّة أصل العربيَّة وأرومتها الراسخة .

وربما يتبادر للذهن مباشرة أن العربيَّة لم تمت لأنها لغة دين . وهذا صحيح ، ولكن يبقىٰ السؤال ملحـاً ، لماذا ماتت الآرامية وهي لغة المسيح عليه السلام ، وهي أيضـاً لغة دين ؛ إذ هي لغة الإنجيل وبها نزل؟ بل ولماذا تراجعت العبرية وهي لغة التلمود والتوراة : كتاب الملَّة اليهودية؟ واليهود أكثر خلق الله دهاءً وأعظمهم مكراً ، وأشدهم كيداً وتدبيراً ، وأكثر النَّاس حرصـاً علىٰ تراثهم وثقافتهم . كيف ماتت هذه اللُّغات واندثرت ، ولم تمت العربيَّة ، ولم تتبدل ولم تتحول؟ إن في الأمر لسراً!

ثم يبقىٰ السؤال الأكثر إلحاحـاً : إذ كيف تسنىٰ للعربية أن تصمد وتقاوم سلسلة من الابتلاءات والنكبات التي مرت بها الأمة؟ كيف قاومت هذه اللُّغة غزو المغول والتتار؟ وكيف تجاوزت كيد المستشرقين الحاقدين الذين ما فتئوا يلمزونها ويغمزونها ويرمونها بكل عيب وقصور؟ وكيف لها أن ظلت شامخة رغم محاولات بعض السذج من أبناء الأمة العربيَّة الذين ينعقون بما لا يسمعون؟ هل

صحيح ما يدَّعون بأنها لغة متخلِّفة لا تصلح لأن تكون أداة لتعلم العلوم الحديثة وتقنيات العصر؟ هل صحيح ما يدعون بأنها لغة صعبة ومعقدة وعصيَّة؟ وأن اللُّغات الأجنبية سهلة ميسورة؟ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف ،آية : ٥] .

هذه الأسئلة الملحة ، وأسئلة أخرىٰ أكثر إلحاحاً سوف تشكل المحاور الأساسية لهذه الدراسة ؛ حيث يسلط الباحث الضوء علىٰ خصائص اللُّغة العربيَّة وسماتها المميزة ويقارنها بسمات وخصائص بعض اللُّغات الأخرىٰ المعاصرة ، عسىٰ أن يقود ذلك إلىٰ إدراك مكانة اللُّغة العربيَّة و منزلتها المتفردة بين لغات العالمين . وعسىٰ أن يُستدل بذلك علىٰ حقيقة أنَّ العربيَّة ، دون غيرها من اللُّغات ، لغة سهلة مرنة معدة ومجهزة ومصممة لتبقىٰ علىٰ مر العصور ، مقاومة لكل عوامل الفناء والبلىٰ والانقراض ؛ بل ولكل مظاهر التبدل والانحراف أو التحريف . والحقيقة كما يلخصها د . عبد الصبور شاهين (٤٤ : ١٩٨٣م) « أن العربيَّة وصلت إلينا معبرة عن تاريخ بعيد ، وتراث عريق ، ناطقة علىٰ ألسنتنا ، كما كانت تنطق عن ألسنتهم ، دون أن تستغرب ، أو تستعجم . فأصولها وصيغها وتراكيبها ، هي هي ، لم يصبها التغيير رغم تطاول العهود ، وتعاقب الأجيال . وهذا أمر نادر الحدوث في عالم اللُّغات لم يسجله التاريخ إلا للُّغة العربيَّة ، التي يقرأ القارئ اليوم نصوصها القديمة فلا يحس بِقِدَمِهَا ، بل يأنس بها ويتلذذ بتكرارها وتمثُلِها ، بل ويستخدمها في أحيان كثيرة » . ويمضي د . شاهين قائلًا : « علىٰ حين أن نصوص اللُّغات الأخرىٰ تستغلق علىٰ الفهم إذا مضىٰ علىٰ إنشائها قرنان ، بل قرنٌ واحد ، فتصبح من مخلفات التأريخ ، وتُوضَع لتفسيرها المعاجم الكلاسيكية ؛ فأما إذا كانت بنت ثلاثة أو أربعة قرون فإنها تُعدُّ من مقتنيات المتاحف » .

فالمعلوم عن تطور اللُّغات البشرية ، أنها تبقىٰ بقدر ما يتعاظم رصيدها من الآثار الأدبية والعلمية التي يبتدعها النابهون من بنيها ، ولكن حتىٰ ذلك لا يحول دون تغيير أصواتها ومفرداتها وتراكيبها حتىٰ تصبح في مرحلة لاحقة من تاريخها خلقًا آخر . وتبقىٰ اللُّغة العربيَّة مثالًا متفرداً علىٰ خرق هذا الناموس وتخلف هذه القاعدة ؛ حيث بدأت مع انبثاق فجر الرسالة المحمدية مرحلة جديدة في حياة اللُّغة العربيَّة الفصحىٰ ؛ فهي كأنما تعاطت مع تعاليم هذه الرسالة الخالدة إكسير الحياة ، وسر البقاء واستمدت من وَحيِها شجاعة المواجهة ، وروح الثبات التي جعلتها لغة كل العصور والأزمان . فبقيت العربيَّة كما كانت راسخة القدم مبنىً ومعنىً ، قادرة علىٰ التعاطي مع متطلبات العصور المتلاحقة تشتق وتنحت من أصولها وجذورها ، ما تعبر به عن مفاهيم العلوم والمعارف المتجددة ، وتأخذ ما يلزمها من غيرها ، عند الضرورة القصوىٰ ، دونما إفراط أو تفريط ، وتهب لغيرها من اللُّغات ما تحتاجه بسخاء ودون منٍّ أو أذىٰ . هذه هي اللُّغة العربيَّة ، هكذا كانت ، وهكذا سوف تظل ، إن شاء الله ، حتىٰ يقضي الله أمراً كان مفعولًا .

وهنا يبرز السؤال الأهم ، ألا وهو ما الوسائل والأدوات والقوالب الجدلية التي يجب علىٰ الباحث استخدامها لتحديد مكانة اللُّغة العربيَّة بين اللُّغات المعاصرة؟ وما المناهج البحثية والأُطُر التحليلية الحديثة ، التي يمكن للباحث استخدامها لتكون له عونًا وسنداً لإظهار خصائص اللُّغة العربيَّة وسماتها الفريدة التي تؤهلها لأن تكون لغة للعلوم والآداب والمعارف والفنون علىٰ مرِّ الأيام وتعاقب الأجيال؟ وهنا تأتي الإجابة بداهة أن الأمر يتطلب جهداً ضعفًا ، ويستلزم منهجًا علميًا قويمًا ، يستند علىٰ معطيات ومسلمات البحوث العلمية الحديثة ، فينظر نظرة ثاقبة في متن المادة اللُّغوية أصواتًا وتراكيب ، معانٍ ومباني ، فيحلل ويقارن ويقابل حتىٰ يصل إلىٰ الحقائق مجردة ، بعيداً عن العاطفة والانفعال . ثم

يقدمها الباحث دليلًا وبرهانًا علىٰ صدق فرضياته ومرئياته آملًا أن يكون في ذلك هدىً وتثبيتٌ لقوم يتفكرون .

إلىٰ من توجه هذه الدراسة :

يأتي هذا البحث في مجمله ليخاطب طوائف ثلاثًا : الطائفة الأولىٰ هي طائفة المفكرين المتجردين الباحثين عن الحقيقة ، لا يحول دونهم وقبولها سالف فكر أو سابق انتماء . فالحقيقة هي ضالتهم التي ينشدون ، وبغيتهم التي عنها يبحثون . وعلىٰ هؤلاء يعوِّل الباحث كثيراً ويخاطبهم بمستوىٰ عقولهم النيِّرة ، وأفئدتهم المشرئبة إلىٰ الحقِّ ، فيتبينون معالم هذه اللُّغة الشريفة وسماتها الفريدة ، ومكانتها بين اللُّغات البشرية .

والطائفة الثانية يؤمن أفرادها بعظمة العربيَّة وعلو مكانها إيمانًا لا يتطرق إليه الشك ، ولا تخامره الظنون ، ولكنهم ربما لا يملكون دليلًا علميًا أو برهانًا عمليًا يفندون به دعاوىٰ من يخالفهم هذا الاعتقاد . فعلىٰ هذه الطائفة تنزل هذه الدراسة برداً وسلامًا يشفي غليلهم ويثبِّت أفئدتهم ويقِّوي عقيدتهم ، وتقدِّم لهم البرهان علىٰ صدق اعتقادهم ، فيزدادوا إيمانًا علىٰ إيمانهم ، بل وتقدم لهم الحجج والأدلة العلمية التي يقارعون بها من خالفهم الرأي والاعتقاد .

أما الطائفة الثالثة ، فهم نفر يحملون توجهًا سلبيًا نحو اللُّغة العربيَّة ، دافعهم إلىٰ ذلك إما جهلهم بميزات هذه اللُّغة وسماتها المتفردة ، أو قد يكون دافعهم الإحباط الذي يعيشونه جراء انهزام الأمة ، وتخلفها وقعودها عن اللِّحاق بركب الأمم المتحضرة . فيولون وجوههم شطر الغرب يقلدون أساليبه ، وينظرون بمنظاره ، ويرددون مقولاته ببغائية ساذجة ، ويمارسون احتقار الذات بطريقة محزنة . ومردُ ذلك إلىٰ ضعف الهويَّة عندهم ، وعقدة النقص ، وفقدان الثقة بالنفس . فيحقرون كلَّ ما يمت إلىٰ الأمة بصلة ، وعلىٰ رأس ما يحتقرون لغة

الأمة وثقافتها وأساليب حياتها . وهذه الفئة تحتاج إلىٰ معالجة نفسية تزيل ما ران علىٰ قلوبهم من انكسار الهزيمة .

وفي هذا الإطار ، تأتي هذه الدراسة لتثبت بالدلائل والبراهين العملية ، أن العربيَّة لغة متفردة متطورة ، تحمل في طياتها سر بقائها . فهي قادرة علىٰ الاستجابة لمتطلبات الحضارة والمعارف المتجددة ؛ وأنَّ تخلف الأمة وقعودها عن مسايرة المشروعات الحضارية للأمم الأخرىٰ ، لا يعني بالضرورة ضعف لغتها أو تخلفها . بل إنَّ الأمر عكس ذلك ، فإن أريد لهذه الأمة أن تنهض من كبوتها ، فلا مناص من الاهتمام باللُّغة العربيَّة ، وأن تعطىٰ من العناية ما تستحق . فلا سبيل لخلق أمة مبدعة متطورة من خلال لسان أجنبي . أنىٰ يكون هذا ، واللُّغة ضمير الأمة ، ووجدانها الحي ، وعقلها المفكر وسبيلها لبناء حضارتها ، وصيانة عزتها ، واسترداد كرامتها ، وتبوؤ مقعدها بين الأمم الراقية ، ووسيلتها للإسهام في إثراء الحضارة الإنسانية ، وإرساء دعائمها . هذه مهام ووظائف جسام ، لا يمكن لأمة واعية أن تحلم بتحقيقها من خلال لسان أجنبي ، ناهيك عن أن يكون ذلك اللِّسان أعجميًا .

منهج البحث وعدة الباحث وعتاده :

إن القيام بمثل هذا البحث يتطلب جهداً ضعفًا ، ومعرفة متعمقة بأصول اللِّسانيات ، وإتقانًا للغات التي يهدف الباحث إلىٰ إجراء المقارنات والمقابلات بينها ، واطلاعًا موسعا علىٰ تاريخ تلك اللُّغات وتطوراتها وخلفياتها الثقافية والإثنية . كما يتطلب فهمًا دقيقًا لأساليب البحث العلمي الحديث ، وقدرةً علىٰ تحديد المصطلحات ، واستخدامها استخدامًا رشيداً ، يضمن الحد الأدنىٰ لفهمها من قبل القارئ . وقبل ذلك كله ، فإن الأمر يحتاج إلىٰ توفيق الله ورعايته وسنده وفتحه ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وهنا يمكن القول بأن الباحث ، وبفضل من الله وتوفيقه ، قد أتيحت له فرصة التسلح بالحد الأدنىٰ من تلك العُدد ، وذلك العتاد الذي يمكن أن يستعين به علىٰ إجراء هذه الدراسة التي يدرك تماماً أنها لن تكون نزهة عابرة ، ولا ترفاً علمياً يؤدىٰ في فضول الوقت ، أو خارج الدوام . فالباحث كان قد تخرَّج في جامعة الخرطوم بُعيد منتصف السبعينات من القرن الماضي ، بعد أن تخصص في اللُّغة العربيَّة واللُّغة الإنجليزيَّة معاً . ثم تحصَّل علىٰ الدبلوم العالي والماجستير في تعليم اللُّغات الأجنبية من الجامعات الأمريكية ، ثم أكمل دراسته لنيل الدكتوراه في علم اللُّغة التطبيقي في جامعة ويلز البريطانية منذ منتصف ثمانينات القرن الماضي . ثم توجه تلقاء الولايات المتحدة الأمريكية ليتلقىٰ دراسة فوق الدكتوراه في علم اللُّغة في عدد من الجامعات الأمريكية الشهيرة ، مثل جامعة جورج تاون ، ومعهد ماسشوتس للتقنية (MIT) وجامعة نورثن أيوا ، وأنديانا ، بلومنقتون . وهناك التقىٰ الباحث مجموعة من جهابزة هذا العلم ، وعلىٰ رأسهم العالم الشهير الكسندر وبروفيسور ويلقيا ريفرز . وبروفيسور أديث هنانيا وآخرين من أساطين هذا التخصص ، ودرس علىٰ أيديهم وحضر درسهم وحلقات نقاشهم وحاورهم ، وأفاد من علومهم ومعارفهم الثرَّة .

والباحث ، إضافة إلىٰ معرفته التخصصية باللُّغتين العربيَّة والإنجليزيَّة ، فهو مُلّم بطرف من اللُّغات الأوروبية الأساسية مثل الفرنسية والألمانية وبعض اللُّغات الأفريقية .

يضاف لهذا الرصيد المعرفي باللُّغات ، تجربة الباحث الثَّرة التي امتدت لأكثر من ربع قرن من الزمان في تدريس اللُّغة الإنجليزيَّة بوصفها لغةً أجنبيةً ، في عدد من الجامعات العربيَّة والآسيوية والإفريقية ، حيث أثرت هذه التجربة المتطاولة حصيلته اللُّغوية ، وأعطته معرفة تفصيلية بدقائق هذه اللُّغات وأسرارها

وخباياها .

والحقيقة إن عمل الباحث في تلك الجامعات لم ينحصر في مجال التدريس ، بل قام بالإشراف المباشر علىٰ عدد غير يسير من الرسائل العلمية لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه في مجال العلوم اللِّسانية . كما شارك في العديد من الندوات والسمنارات التي قدمت في رحاب تلك الجامعات ، في مواسم ثقافية شتىٰ ، وحكَّم الباحث عدداً من البحوث المقدمة للترقية إلىٰ مرتبة الأستاذية وما دونها ، كما أن للباحث دراسات منشورة في عدد من الدوريات العالمية والإقليمية المتخصصة في العلوم الإنسانية والتربوية واللِّسانيات .

علىٰ هذا الرصيد المعرفي والنظري والتطبيقي باللُّغات والعلوم اللِّسانية ، يتكئ الباحث ، بعد توكله علىٰ الله (عزَّ وجلَّ) ، لتقديم أطروحة علمية تظهر مكانة العربيَّة بين اللُّغات المعاصرة ، سائلًا الله العلي القدير أن يسهم هذا العمل في جلاء الحقيقة ، وإظهار الخصائص الفريدة التي تتميز بها هذه اللُّغة العريقة ، وتزيل ما ران عليها من ركام الافتراءات الزائفة التي تكال لها عن قصد تارة ، وعن جهل تارة أخرىٰ ؛ فيكون ذلك البحث سبباً- إن شاء الله- في لفت نظر العلماء لهذه اللُّغة الجليلة فيولونها ما هي جديرة به من احترام واهتمام ؛ فتتبدي لهم كنوزها الغالية ، ومفرداتها المعبرة الراقية ، وأساليبها الشفيفة السامية ؛ فيتخذها بنوها لسانًا مبينًا يعبرون به عن آمالهم وطموحاتهم ، وإبداعاتهم ومشاركاتهم العلمية في بناء صرح الحضارة الإنسانية . ومن ثَمَّ يدرك قيمتها الآخرون ؛ فيتبنوها جسراً ومعبراً للتواصل بين طوائف بني الإنسان علىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم .

وهنا لا بد من الإشارة إلىٰ أن العالم اليوم يبحث -وبإلحاح- عن لغة عالمية مشتركة لتحقيق ذلك الهدف . وقد فشلت كل محاولات الباحثين لاختلاق لغة جديدة مثل « الاسبرانتو » للقيام بهذه المهمة . ولن يجد العالم محيصًا من

اللُّجوء إلىٰ لغة قياسية منطقية حيَّة . ولن يجدوا لغة ، تنطبق عليها هذه المواصفات ، غير العربيَّة للقيام بهذه الوظيفة . فالعربيَّة بما لها من سمات قياسية ، وقدرة علىٰ الإبانة ، ودقة في التعبير ، تمثل الأمل الأوحد الذي يلوح في الأفق لسد حاجة العالم في هذا المجال . فهي لغة إنسانية صرفة لا تنتمي لعنصر ، ولا تتحيَّز لفئة أو جنس ، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من أنَّ معظم الذين نبغوا فيها وألفوا بها أكرم المعارف ، وأجلَّ العلوم ، وأنفعها للإنسانية ، أنهم لم يكونوا عرباً . وفي هذا إشارة واضحة لعالمية هذه اللُّغة ، وانعتاقها من قيود العنصرية المهينة ، أو المحلية الضيقة . فهي بذلك تكتسب سمة العالمية ، وتكون لغة صالحة لكل الناس ولكل الأجيال في كل زمان ومكان . والتأريخ يشهد أنها كانت لغة للإنتاج العلمي والفكري ، ولساناً أبدع من خلاله أبناء الأمة الإسلامية الذين ينتمي أغلبهم لعرقيات غير عربية ، ضروباً من المعارف والعلوم والفنون والآداب الراقية . وظل ما كتبه علماء العربيَّة من العرب وغير العرب وبالعربيَّة منهلًا وينبوعاً ثرّاً نهل منه علماء الغرب المحدثون–وباعترافهم هم أنفسهم– وأسسوا علىٰ هداه دعائم الحضارة الإنسانية المعاصرة .

مشكلة البحث وجذورها التاريخية :

تتمثل مشكلة الدراسة في التحديات الجسام التي تواجهها اللُّغة العربيَّة في عصر العولمة ، حيث يعيش العالم كلُّه الآن تحت هيمنة القطب الواحد الذي يسعىٰ بكلِّ ما أوتي من قوة وعدة وعتاد ، إلىٰ فرض رؤيته الأحادية ، وبسط سيطرته المادية والمعنوية ؛ بل وثقافته ولغته علىٰ كلِّ العالم . وساعتها تكون قد حلَّت بالبشرية الطامة الكبرىٰ ، علىٰ حد قول مدير منظمة اليونسكو مؤخراً .

حقيقة إن العالم يعيش الآن في أتون حرب ضروس ، هدفها غير المعلن سيطرة دول الاستكبار علىٰ موارد ومقدرات وخيرات البلاد المستضعفة .

وهدفها الاستراتيجي ، تجريد تلك الشعوب من موروثها الثقافي والحضاري ، حتىٰ تكتمل تبعيتها ويسهل انقيادها لسيد العالم الجديد .

وهنا تجب الإشارة إلىٰ أنَّ الأمة العربيَّة ، ولغتها ولسان مقالها ، وركنها الركين ، لم تكونا بمنأىٰ عن أتون هذه الحرب الهمجية التي لا تبقي ولا تذر . والحقيقة أن هذه الحرب تأتي امتداداً لمسلسل طويل شرس ، تواصلت حلقاته من لدُن الحروب الصليبية ، وامتدت حتىٰ عصور الاستعمار الحديث ، الذي أعلن منظِّروه أنه لا سبيل للسيطرة علىٰ هذه الأمة طالما أن هذا الكتاب (يقصدون القرآن الكريم طبعـًا) موجود بين ظهرانيهم ، يتلونه آناء اللَّيل وأطراف النهار . فما السبيل للحيلولة دون الأمة وكتابها الملهم إذن؟ فكَّر أساطينهم وقدَّروا ، ورأوا أنه لا سبيل لذلك إلا من خلال القضاء قضاءً مبرمًا علىٰ العربيَّة ، وضربها في مقتل . ومن هنا بدأت تلك الحملة الشعواء ضد العربيَّة سبيلًا لفصل الأمة عن وحي السماء : القرآن الكريم ، المنزَّل بلسان عربيٍّ مبين ؛ فتنفصم عُرىٰ الأمة ، وتتفرق بها السبل ، فيضلُّ سعيها وتتنكب الطريق ، ويطيش سهمها ، وتفقد سر بقائها ، ومصدر قوتها وتماسكها ، بل وتميزها . فتصبح أمة من « السارسين » . كما يسميهم جورج بوش الجد (١٨٤٤م) .

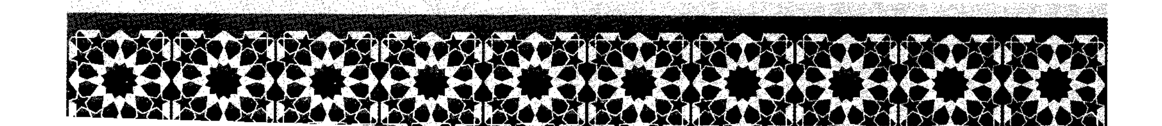
والسارسين هي : مجموعة الشعوب المتخلفة والأوباش الأميين الَّذين يجوز استغلالهم واضطهادهم وإبادتهم ، إن دعا الحال ، ونهب خيراتهم وذلك حسب نظرية بوش الجد المأخوذة من نصوص توراتية محرفة .

وهكذا تستمد الحرب علىٰ اللُّغة العربيَّة جذورها التاريخية من نصوص « العهد القديم » والتوراة ، التي حُرِّفت وفُسِّرت حسب هوىٰ رجال الكنيسة واللاهوت ، الذين نظَّروا وخططوا لغزو الأمة وإذلالها وتحقير موروثها الثقافي المتمثل في دينها ولغتها . وتجسد ذلك بوضوح في حركة المستشرقين ، الذين كان

معظمهم من القساوسة الذين ما فتئوا يتجاوزون كل حدود الذوق والمنطق في التهجُّم علىٰ اللُّغة العربيَّة ، وتحقيرها واتهامها بالتخلف والصعوبة والتعقيد .

ثم كانت فترة العهد الاستعماري لكثير من البلاد والأمصار العربيَّة . وفي هذه الفترة ، نشطت الحكومات الاستعمارية وسُلْطات الانتداب الغربي في الدول العربيَّة وعملت بجد علىٰ طمس هوية الأمة ، وسعت بقوة إلىٰ مسح اللُّغة العربيَّة الفصحىٰ من الوجود . وقد استخدمت تلك السلطات كل الأساليب المباشرة وغير المباشرة لدك حصون العربيَّة وتجهيل أهلها بها . ومن ضمن تلك الأساليب إبعاد العربيَّة الفصحىٰ من كل أمِر ذي شأن ، وتشجيع العاميات الضيقة ، واللهجات المحلية ، إمعانـًا في إقصاء الفصحىٰ وتحقيراً لها . وأنشأ المستعمر المدارس والجامعات في الوطن العربي ، علىٰ غِرار المدارس والجامعات في أوروبا . وكانت لغة المستعمر ، هي لغة العلوم والتعليم ، وحشرت العربيَّة في ركن قصِّي لا تكاد تحس لها ركزا . بل وكانت في كثير من الأحيان موضع تندر واستخفاف ، موصوفة بعدم القدرة علىٰ مواكبة روح العصر ، ونقل المعارف والعلوم الحديثة .

وكان من نتاج هذه السياسة اللُّغوية المتحيزة ضد العربيَّة ، التي جعلت اللُّغة الأجنبية لغة التعليم والمعاملات الرسمية والقضاء ، أن تربِّىٰ جيلٌ من أبناء الأمة العربيَّة في كنف المستعمر ، تشربوا فكره ، وتقمصوا روحه ، ونظروا بمنظاره ، وحملوا لواءه ، وباشروا مهامه المشبوهة ، وظلُّوا كذلك أوفياء لمبادئه حتىٰ بعد رحيله ، يحقرون العربيَّة ، ويحطُّون من قدرها ، ويزعمون أنها قاصرة وعاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر العلمية والتقنية . ولما كانت غالبية صنَّاع القرار الذين تولوا شؤون الحكم في كثير من البلاد العربيَّة ، بعد رحيل الاستعمار ، كانوا من هذه الفئة ، فقد ظلَّت العربيَّة في بلاد العرب تراوح مكانها ، وظلَّت متهمة في



قدراتها ، موصوفة بالتخلُّف والتعقيد وعدم القدرة علىٰ أن تكون لغة للعلم . وتبنت جامعات العالم العربي ، كلُها أو جلُّها ، حتىٰ بعد الاستقلال ، لغة المستعمر البريطاني أو الفرنسي ، لغة رسمية للتدريس . صحيح أنه نشأت في بعض تلك الجامعات كليات للغة العربيَّة وعلومها وآدابها ، وتخرج فيها علماء أفذاذ ، وأدباء فحول أثْروا المحافل الأدبية ، وجمَّلوا ساحتها بكرائم النثر والنظم ؛ إلا أنَّ الساحة العلمية ظلت حِكراً للغة الأجنبية تقاوم ، وبشراسة ، كل محاولات التعريب أو اتخاذ العربيَّة لغة للتعليم أو البحث العلمي . وظلَّ الشعار القديم هو هو : أنَّ العربيَّة قاصرة ، وصعبة ، ومعقدة ، وعاجزة عن الوفاء بمتطلبات العصر العلمية والاصطلاحية .

تأتي هذه الدراسة لتعالج تلك المشكلة المؤلمة المزمنة ، المتمثلة في النظرة الخاطئة ، والمفاهيم المغلوطة عن اللُّغة العربيَّة . وتسعىٰ لتحديد موقعها (من الإعراب) بين اللُّغات الحديثة ، وتفنِّد الدعاوىٰ الباطلة ضدها . ولتثبت أن العربيَّة لغةٌ حيَّة ثريَّةٌ سلسة ، لغة قياسيَّة مرنة ، بها إمكانات ضخمة تؤهلها لأن تكون لغة للإنسانية جمعاء ، وتؤهلها للاستجابة لمتطلبات العصور ، والأجيال المتعاقبة ، والمعارف المتجددة . كيف لا وهي التي صانها الله حين نشأت وترعرعت في بيئة بدوية متواضعة ، فخرجت علىٰ الكون من أحضان الفقر والعوز والقلة ، لغة مكتملة النمو مستوية الأركان ، وهي أتم عافيَّة وأوضح منطقاً وأفصح بياناً . فكيف إذا بسط الله الرزق علىٰ بلاد العرب ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، كيف بهم يهِنُ لسانهم وينحط قدرهم؟ ما بالهم يسيرون في ذيل المسيرة الأمية ، يغمغمون ببقايا ألسنة أخرىٰ ، ويتمتمون برطانات بائسة غامضة ، لا يكاد يبين من ورائها معنىٰ ولا يستقيم لها مبنىٰ . « أهي نقمة النعمة » كما يقول عبد الصبور شاهين؟ « أم هو انحلال التَّرف؟ أم أنها عاصفة وتمضي ،

أو سقمٌ ويزول؟ » .

تأتي هذه الدراسة ، إن شاء الله ، لتكون نوراً ونبراساً تستضيء به العقول الباحثة عن جوهر الحقيقة . ولتكون دواءً ورجاءً تُشفىٰ به النفوس الغارقة في وهم الجهالة والضياع . وبشارة وإشارة تلوح في أفق فجر جديد ، يكون للعربية فيه شأن ومكان ، تسعد به الإنسانية كلُّ الإنسانية ، وينداح الكون ليكون دار سلام وتفاهم ووئام .

أسئلة البحث :

يهدف هذا البحث إلىٰ الإجابة عن عدد من الأسئلة المهمة تتعلق بنشأة اللُّغة العربيَّة وسماتها المميزة ، ونظامها الصوتي والصرفي ، وبنياتها ومعانيها ، ودلالتها وقيَّمها الجمالية ، ومقارنتها ومقابلتها باللُّغات الأخرىٰ ، ومن ضمن هذه الأسئلة ما يلي :

١ – كيف نشأت اللُّغة العربيَّة؟ ، وكيف تطورت علىٰ مدىٰ الزمن حتىٰ بلغت قمة نضجها؟ ، ومقارنة ذلك بنشأة اللُّغات الأخرىٰ ، ولماذا ماتت واندثرت تلك اللُّغات؟ ولماذا تبدلت كلُّ اللُّغات القديمة او ماتت وظلَّت العربيَّة دون أن تتبدل أو تموت؟

٢ – ما سمات النظام الصوتي للغة العربيَّة؟ وإلىٰ أي مدىٰ يتفق نظام اللُّغة العربيَّة الصوتي والنظم الصوتية الأخرىٰ؟ وإلىٰ أي مدىٰ يختلف عنها؟

٣ – ما مميزات النظام الصرفي العربي؟ وإلىٰ أي مدىٰ يشابه أو يختلف عن النظم الصرفية للغات الأخرىٰ؟

٤ – ما سمات النحو العربي وما ميزاته علىٰ نظم النحو في اللُّغات الأخرىٰ؟

٥ – ما سمات الكتابة العربيَّة؟ وما ميزاتها علىٰ نظم كتابة اللُّغات الأخرىٰ؟

٦ - كيف استطاعت اللُّغة العربيَّة التعبير عن المعاني والمفاهيم المختلفة بدقة متناهية وبوضوح تام ، بينما اتسمت كثير من اللُّغات المعاصرة بالغموض والتعميم المخل؟

٧ - ما مدىٰ قدرة اللُّغة العربيَّة علىٰ التعبير عن متطلبات العصر والمفاهيم المتجددة ومستحقات التقنية والعلوم الحديثة؟

٨ - هل هناك علاقة بين الألفاظ والمعاني في اللُّغة العربيَّة؟

٩ - ما القِيم الجمالية والأساليب البيانية التي تضمنتها اللُّغة العربيَّة وميَّزتها عن اللُّغات الأخرىٰ؟

١٠ - ما المشكلات والتحديات والعقبات التي تواجه ازدهار اللُّغة العربيَّة وانتشارها أو تبنيها لغة عالمية؟

١١ - ما مستقبل اللُّغة العربيَّة في عصر العولمة؟ وما مدىٰ إمكانية حوسبتها ، أو معالجتها بالحواسيب الإلكترونية ، والتقنيات الحديثة؟

أهداف البحث :

ترمي هذه الدراسة لتحقيق الأهداف التالية :

أولًا : تحديد السمات والخصائص التي تمّيز اللُّغة العربيَّة عن اللُّغات الأخرىٰ ، وذلك من خلال فحص ودراسة وتحليل المكونات الأساسية للغة العربيَّة ، ومقارنتها ومقابلتها بسمات اللُّغات المعاصرة الأخرىٰ .

ثانيًا : يهدف هذا البحث إلىٰ تصحيح كثير من المفاهيم المغلوطة عن اللُّغة العربيَّة ، وذلك من خلال مرتكزات علم اللُّغة العام ونظرياته وتطبيقاته المختلفة .

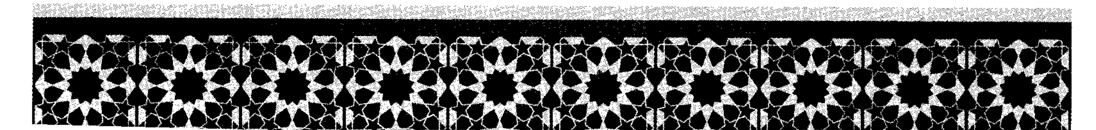
ثالثاً : يهدف هذا البحث إلىٰ تحديد مكانة اللُّغة العربيَّة بين اللُّغات المعاصرة ، وذلك من خلال مقابلتها ومقارنة مكوناتها بمكونات تلك اللُّغات ، وإظهار قدرة هذه اللُّغة الهائلة علىٰ الاستجابة لمتطلبات العصر العلمية والتقنية ، وسهولة تعلُّمها واكتسابها .

رابعاً : تسعىٰ هذه الدراسة إلىٰ إعادة بناء ثقة الأمة بموروثها اللُّغوي ، ولفت نظرها إلىٰ أهمية هذه اللُّغة وإلىٰ ضرورة تعلمها وإتقانها وتعليمها للنشء وتبنيها لغة للعلم والثقافة والمعرفة .

خامساً : تسعىٰ هذه الدراسة إلىٰ لفت نظر علماء اللُّغة علىٰ مستوىٰ العالم إلىٰ اللُّغة العربيَّة ، وسماتها المميزة ، وبنياتها القياسية ، وإمكاناتها الهائلة مما يؤهلها لأن تكون لغة مشتركة للعالم أجمع ، تكفيهم مؤونة البحث عن لغة اصطناعية أثبتت التجارب استحالة نجاحها .

أهمية البحث :

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يمثل إحدىٰ المحاولات النادرة جداً-حسب علم الباحث- التي تسعىٰ إلىٰ مقابلة ومقارنة سمات ومكونات اللُّغة العربيَّة بسمات ومكونات اللُّغات الأخرىٰ ، وذلك انطلاقاً من نظريات علم اللُّغة الحديث . يأتي ذلك بهدف تحديد مكانة اللُّغة العربيَّة بين اللُّغات المعاصرة . وتكمن أهمية هذه الدراسة في سعيها لشرح معالم اللُّغة العربيَّة وترسيخ الثقة بها ، وإظهار قدراتها الفائقة علىٰ استيعاب مطلوبات العصر ، وإمكاناتها الواسعة علىٰ التعبير عن إبداعات الفكر الإنساني ، علوماً وآداباً ، بدقة ووضوح لا نظير لهما في اللُّغات الأخرىٰ . وتظهر أهمية هذه الدراسة أيضاً في أنها سوف تفتح الباب واسعاً أمام دراسات تالية ومكملة تبحث في مكونات اللُّغة العربيَّة ، ومزاياها المتفردة وإمكانية استخدام التقنيات المعاصرة في تدوينها ومعالجة نصوصها



آليـاً ؛ مما يسهم في نشرها وتيسير تعلمها .

منهج البحث :

إنّ طبيعة هذه الدراسة وتشعب موضوعاتها ، تحتم علىٰ الباحث أن يتنقل بين مناهج بحثية متعددة لإيفاء هذا الموضوع حقه من التقصِّي الجَّاد والمتعمق . فالباحث يتبع بصورة أساسية ، المنهج الوصفي ، وذلك تحقيقاً لهدفه في وصف وتحديد مكونات اللُّغة الأساسية ، وتحليلها تحليلًا دقيقاً استناداً الىٰ نظريات علم اللُّغة الحديث . ومن ثم يلجأ الباحث إلىٰ استخدام أساليب المنهج التقابلي لمقارنة سمات ومكونات اللُّغة العربيَّة بمكونات اللُّغات الأخرىٰ وسماتها ، وذلك بهدف إظهار ميزات العربيَّة علىٰ تلك اللُّغات .

ثم لا يجد الباحث حرجاً في اتباع المنهج التاريخي ، لتحديد معالم التطور والتبدل الذي يطرأ علىٰ اللُّغات مع مرور الزمن ، ومدىٰ تأثير هذه التطورات و التغييرات علىٰ واقع اللُّغات التي تجري مقابلتها باللُّغة العربيَّة .

حدود البحث :

يجري هذا البحث في إطار محددات زمنية وموضوعية معلومة . فمن ناحية الحدود الزمانية ، فإنه يفترض أن تستغرق هذه الدراسة حولين ونصفاً تبدأ من غرة المحرم لعام ١٤٢٩ ، وتستمر حتىٰ منتصف عام ١٤٣١ هـ . أما فيما يختص بحدود الدراسة الموضوعية ، فإنها تتناول اللُّغة العربيَّة من حيث نشأتها وتاريخها وتطورها . ثم تتناول خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية ومفرداتها ومعانيها وأساليبها البلاغية والبيانية ، ومقابلة تلك المكونات بمكونات بعض اللُّغات الأخرىٰ المعاصرة ، وبالتحديد مقارنة تلك بمكونات اللُّغة الإنجليزيَّة بصورة أساسية وباللُّغة الفرنسية أحياناً أخرىٰ . كل ذلك بهدف تحديد السمات التي تميِّز

اللُّغة العربيَّة عن تلك اللُّغات

موضوعات الدراسة وفصولها :

الفصل الأول :

وهو مقدمة عامة تحدد مشكلة الدراسة ، وجذورها التاريخية وأهمية الدراسة وأسئلتها وحدودها الزمانية والموضوعية . كما يحدد هذا الفصل منهج البحث ، وعدة الباحث وعتاده لمعالجة هذه المشكلة .

الفصل الثاني :

ويشتمل علىٰ أدبيات الدراسة التي تتناول مفاهيمها الأساسية ، وتعريفها تعريفًا دقيقًا يعين الباحث علىٰ خلق جسر تواصل مع القراء ، كما يعينه علىٰ بناء خلفية نظرية تساعد في تحليل المكونات اللُّغوية وتقييمها ، وإصدار الأحكام عليها .

الفصل الثالث :

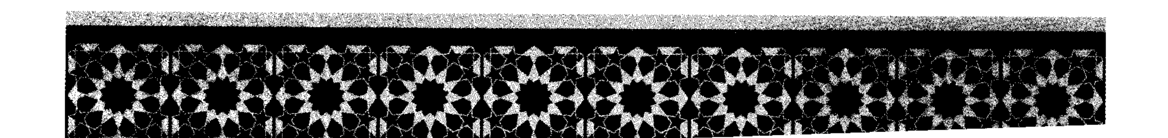
وهذا الفصل يتناول نشأة اللُّغة العربيَّة وتطورها وتاريخها . ومقارنة ذلك بنشأة وتطور اللُّغات الأخرىٰ موضوع المقابلة .

الفصل الرابع :

يتناول الأصوات العربيَّة ، ويقابلها بالنظام الصوتي في اللُّغة الإنجليزيَّة علىٰ سبيل المثال ، وذلك لإظهار ثبات النظام الصوتي العربي ، وتبدل الأصوات في اللُّغات الأخرىٰ .

الفصل الخامس :

يناقش نظام الكتابة والهجاء العربي ، وتطوره وعلاقة الحرف بالصوت ، ومقارنة ذلك بنظم الكتابة في اللُّغات الأخرىٰ .



الفصل السادس :

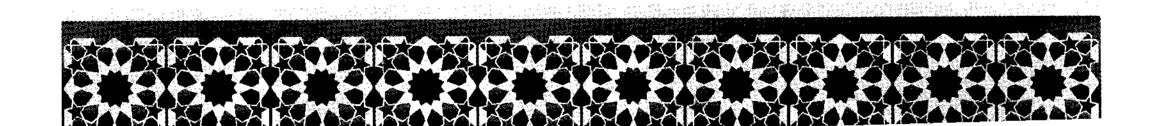
يتناول هذا الفصل النظام الصرفي في اللُّغة العربيَّة ، مشيراً إلىٰ تميُّز ذلك النظام واعتماده علىٰ القياس والمنطق ، وكونه عاملًا مساعداً علىٰ تعلم اللُّغة العربيَّة واختصار الوقت المطلوب لإتقانها . كما يناقش هذا الفصل افتقار كثير من اللُّغات الأخرىٰ لمثل هذا النظام الصرفي الفريد . كما يتناول هذا الفصل النحو العربي ودواعي نشأته وتطوره ، ودوره في توضيح المعنىٰ ، والتخلص من الغموض الذي هو سمة كثير من اللُّغات المعاصرة .

الفصل السابع :

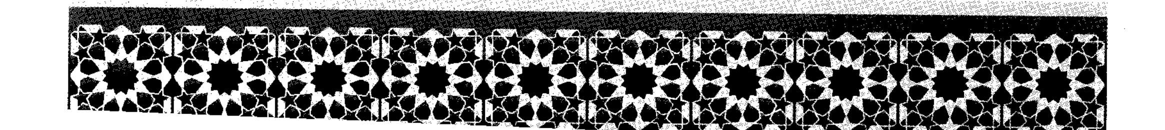
يتطرق إلىٰ بلاغة اللُّغة العربيَّة وأساليبها الجمالية وثراء معجمها ، حيث يتناول الجوانب البلاغية والبيانية مشيراً إلىٰ ضعف تلك الأساليب في اللُّغات الأخرىٰ .

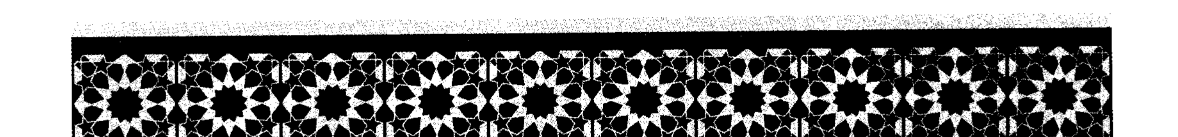
الفصل الثامن :

يقدم نتائج الدراسة وتوصياتها ، ومقترحات الباحث لنشر اللُّغة العربيَّة ، وإعادة الثقة بها ، والتخلُّص من الهزيمة النفسية لدىٰ بعض أبناء الأمة كما ينادىٰ باستخدام التَّقنيات الحديثة لمعالجة نصوص اللُّغة العربيَّة وتقديمها بوصفها لغة عالمية بديلة صالحة لكل زمان وجيل .



الفصل الثاني :
أدبيات البحث ومصادر الدراسة





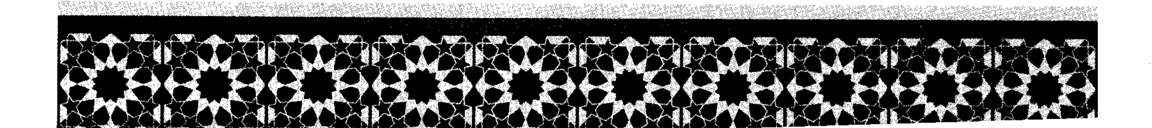
مدخـــل :

يُعنىٰ هذا الفصل بمعالجة المفاهيم النظرية الأساسية المتعلقة بهذه الدراسة ، وتعريفها تعريفاً دقيقاً ، يسترشد به الباحث في بناء خلفية نظرية ، وتكوين منطلقات فكرية ، يثبت بها فرضياته ، ويفنِّد بها دعاوىٰ الآخرين .

ومن هنا لزم الرجوع لدراسات السابقين من الثقات ، بقصد تدبُّرها وفهمها والإفادة منها في بناء معايير موضوعية لدراسة نشأة اللُّغة العربيَّة ومكوناتها وسماتها وخصائصها ؛ ومن ثم تحديد مكانتها بين اللُّغات ، ومدىٰ صلاحيتها ، أو قدرتها علىٰ مواكبة التطورات العلمية والأدبية والثقافية المتجددة عبر العصور والأزمان .

ومن خلال المراجعات لطيف واسع من دراسات السابقين ، فقد وقف الباحث علىٰ تحديد مفهوم اللُّغة وتعريفها . كما أورد الباحث آراء العلماء حول أصلها ومنشئها ووظائفها ، ومميزات اللُّغات الإنسانية كوسيلة للتواصل بين بني البشر . ثم وقف الباحث علىٰ مسارات الدراسات اللُّغوية أو اللِّسانية الحديثة ، وذلك من خلال التعرف علىٰ علم اللُّغة وفروعه المختلفة ، ووظيفة كل فرع من تلك الفروع في دراسة مكونات اللُّغة وطبائعها وخصائصها .

ومما يجب تسجيله هنا ، أن الباحث قد وجد ، ومن خلال اطلاعه الموسع ، في مجال الدراسات اللِّسانية ، ودراساته المتعمقة لنظريات علم اللُّغة العام ، وعلم اللُّغة التطبيقي وتفرعاته ، أن لفقهاء اللُّغة العربيَّة سبقاً وريادة لعلماء اللِّسانيات الحديثة ، الذين استمدوا نظرياتهم كلَّها أو جلَّها من أطروحات الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والجرجاني ، وابن فارس ، وابن جنِّي ، وعثمان بن بحر الجاحظ ، والسيرافي ، والزجاج وغيرهم . والحقيقة التي لا مراء فيها ، أن هؤلاء الأفذاذ قد وضعوا تراثاً فخماً في الدراسات اللِّسانية ، وأن ما جاء به علماء اللُّغة



المحدثون لم يكن سوىٰ قطرة من بحور أولئك الفحول الميامين ، الذين لم يدعوا شاردة أو واردة في الدَّرس اللغوي ، إلا وتناولوها بثاقب نظرهم ، وصائب فكرهم ، وسطروها بأبلغ عبارة وصوروها أدقَّ تصوير .

فلهؤلاء العباقرة الرواد ، ونيابة عن الإنسانية جمعاء ، التجّلةُ والشُّكرُ والعرفان ، وإن تنكَّر لجميل صنيعهم أقوام آخرون محسوبون علىٰ زمرة العلم والعلماء .

تعريف اللُّغة :

حاول كثير من علماء اللِّسانيات وفي عهود مختلفة ، صياغة تعريف جامع مانع للّغة ، وأعملوا في ذلك فكرهم وحدسهم وخبراتهم ، وجاءوا بعشرات من التعاريف المختلفة ، ومرد ذلك الإختلاف إلىٰ أنّ كل واحد من أولئك العلماء ، نظر إلىٰ اللُّغة من جهة معينة ، أو من خلال تجربة مختلفة . فجاءت تعاريفهم هكذا متنوعة تتطلب من الباحث الوقوف علىٰ أكثرها حتىٰ تتكون لديه صورة مكتملة عن اللُّغة .

ومثلما هو متوقع ، فقد كان لعلماء العربيَّة سبق وريادة في هذا الشأن ، حيث عرَّفوا اللُّغة تعاريف دقيقة لم يزد عليها المحدثون إلا نذراً يسيراً . وكان من أوائل من قدَّم تعريفاً ذكياً للّغة هو أبو الفتح عثمان بن جنِّي من علماء القرن الرابع الهجري . فقد جاء في كتابه الخصائص « أما حدها (فإنها أصوات) يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم . وأما تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فُعلة من لغوت ؛ أي تكلمت ؛ وأصلها لغوة ككرة ، وقُلة وثُبة ، وكلّها لاماتها واوات ؛ لقولهم : كروت بالكرة وقلوت بالقلّة . . وقالوا فيها : لُغات ولُغُون كَكُرات وكُرُون ، وقيل منها لَغَىٰ يلغي إذا هَذَىٰ ؛ . . . وكذلك اللَّغو » . (الخصائص : ١/ ٧١) .

ثم عرّفها ابن خلدون في مقدمته حيث قال : « اللُّغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده » (المقدمة : ٢٣) .

وعند ابن الحاجب فهي « كلّ لفظ وُضع لمعنىٰ » . (مختصر ابن الحاجب : ١٦) .

وعند الأنباري هي « ما كان من الحروف دالّا بتأليفه علىٰ معنىٰ يحسن السكوت عليه » . (أسرار العربيَّة : ٢٣) .

ثم جاء علماء اللُّغة الغربيون في العصر الحديث ، ليضعوا تعاريف للّغة لم تتجاوز حدها الذي وصفه بها ابن جنّي منذ القرن الرابع الهجري ؛ حيث يعرفها سابير(Sapir ،8 : 1961) بأنها « وسيلة إنسانية محضة لإيصال الأفكار والعواطف والرغبات عن طريق نظام من الإشارات المقصودة » . كما يصفها بأنها وسيلة للإتصال ذات عناصر مركبة نحوياً ومنتجة صوتيًا لتبادل رسائل مفيدة بين المتكلمين .

أما دي سوسير وهو رائد المدرسة الحديثة في علم اللّسانيات ، فقد عَّرف اللُّغة في كتابه (محاضرات في اللِّسانيات العامة ، ١٧ : ١٩٨٠) علىٰ أنها وسيلة اتصال إنسانية ترتكز علىٰ محورين مهمين هما :

(١) النظام اللّغوي : وهو مجموعة القواعد النحوية والصرفية والمعجمية الفطرية والمكتسبة المختزنة في العقل البشري .

(٢) استعمال هذه القواعد والنظم وتسخيرها لإنتاج رسائل مسموعة ومفهومة .

ويرىٰ الباحث أن اللُّغة خاصية إنسانية بحتة ، يستخدم فيها المتحدث عدداً محدوداً من البنُىٰ والتراكيب لإنتاج عدد غير محدود من الجمل المبتكرة .

أصل اللُّغة وبدايتها :

شغلت قضية أصل اللُّغة وبدايتها عقول الباحثين في مجال الفلسفة والعلوم الإنسانية منذ عهود بعيدة . وقدموا تفاسير متعددة وأدلة متباينة لنشأة اللُّغة . وقد تبلور من خلال هذا الجدل الدائر علىٰ مدىٰ قرون عديدة ، ثلاثة مسارات أو قل نظريات رئيسية تتمثل فيما يأتي :

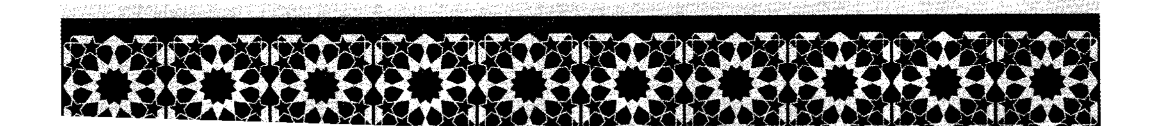
١ - نظرية التوقيف أو الإلهام الإلهي

٢ - نظرية التواضع أو النظرية الاصطلاحية

٣ - نظرية محاكاة الأصوات الطبيعية

ومن أشهر من قالوا بنظرية الإلهام الإلهي أو التوقيف من علماء العربيَّة ، أبو علي الفارسي ، وابن حزم الأندلسي . واستدلوا علىٰ ذلك بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة ، آية : ٣١] . ويذكر ابن جنِّي أنَّ الله (سبحانه وتعالىٰ) علَّم آدم أسماء جميع المخلوقات ، بجميع اللُّغات : العربيَّة والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللُّغات . فكان آدم وولده يتكلمون بها ، ثم إنَّ ولده تفرقوا في الأرض ، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللُّغات ، فغلب عليه واضمحل عنده ما سواها لبُعد عهدهم بها . ويقول أيضًا : « فإن قيل فاللُّغة فيها أسماء وأفعال وحروف ، ولا يجوز أن يكون المُعلّمُ من ذلك الأسماء دون غيرها مما ليس بأسماء ، فكيف خصَّ الأسماء؟ قيل اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوىٰ القُبل الثلاثة . فلما كانت الأسماء من القوة والأولوية في النفس والرتبة علىٰ ما لا خفاء به ، جاز أن يُكتفىٰ بها مما هو تالٍ لها ، ومحمول في الحاجة عليها » (الخصائص : ١/ ٧٦) .

ومن الحجج العقلية التي يسوقها رواد هذه النظرية ، أي نظرية الأصل



الإلهي ، قولهم : إنها لو كانت اللُّغات اصطلاحية ، لاحتيج في التخاطب بوضعها إلىٰ اصطلاح آخر من لغة أو كتابة ، وهذه بالطبع تحتاج إلىٰ اصطلاح سابق ، ويلزم من هذا الدور التسلسل إلىٰ ما لا نهاية ، وهو محال ، فلابد من الانتهاء إلىٰ التوقيف (الخطيب ، ٢٠٠١م) .

وقد قال بالأصل الإلهي للّغة ، كثير من علماء بني إسرائيل والنصارىٰ ، واستدلوا علىٰ ذلك بنصوص توراتية وإنجيلية ، ومن ذلك ما ورد في سفر التكوين فصل ٢ ، فقرة (١٩ – ٢٠) « و كان الرب الإله قد خلق من التراب كل وحوش البرية ، وطيور الفضاء ، وأحضرها إلىٰ آدم ليرىٰ بأي أسماء يدعوها ؛ فصار كل اسم أطلقه آدم علىٰ كل مخلوق اسمًا له . وهكذا أطلق آدم أسماءً علىٰ كل الطيور والحيوانات والبهائم » . (سفر التكوين : ٥٣) .

وهناك أيضًا من فلاسفة الإغريق والرومان من يؤمن بنظرية الأصل الإلهي في اللغة . ومن ذلك ما ذكر عن أفلاطون ، أنه كان يتحيَّز للرأي القائل بأن اللُّغة هبة إلهيَّة منحتها الآلهة للإنسان . وأن أسماء الأشياء ليست رموزاً مجردةً ، بل هي أجزاء من كنه المسمىٰ وجوهره . وبذات الرأي ، كان يقول الفيلسوف اليوناني هيراكيلتوس ، حيث يزعم أن اللُّغة وحي من السماء . ويرىٰ الهنود أن الإله « إندررا » هو الذي علم الإنسان اللُّغة (الخطيب ، ٢٠٠١م) .

وفي مقابل نظرية الأصل الإلهي للّغة ، توجد نظرية الاصطلاح . ويرىٰ رواد هذه النظرية ، أن الأصل في اللُّغة التواضع . ويرون أن البشر هم الذين اصطلحوا علىٰ أصوات معينة ، يشار بها إلىٰ الأشياء حين غيابها ، وهي تقوم مقام الإشارة إليها عندما تكون هذه الأشياء حاضرة . ومن أشهر من قال بهذا الرأي من علماء العربيَّة ابن جنِّي ، الذي يرىٰ أن أصل اللُّغة تواضع واصطلاح . وفسَّر قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ، بأنه أقدر آدم علىٰ أن واضع عليها ،

وأقدره علىٰ التفاهم بها . (الخصائص : ٧٢) .

ومن الذين قالوا بالاصطلاح ، الإمام الفارابي ، حيث قال في كتابه (المنحول ١/ ١٣) : إن اللُّغات كلها اصطلاحية . ويمضي الفارابي مستدلًا علىٰ رأيه هذا بقصة حيٍّ بن يقظان التي ألفها ابن طفيل . وتقول القصة : إن حيّ بن يقظان عاش بين الحيوانات منعزلًا عن البشر في جزيرة نائية ، وكان قد وصل إلىٰ أعلىٰ مراتب الإيمان والعرفان ، ولكنه لم يكن يعرف التحدث بأي لغة . فاضطر الحكيم الذي لقيه إلىٰ أن يعلمه اللُّغة عن طريق الإشارة إلىٰ الأشياء ، والتلقين وتكرار النطق بالألفاظ . فلو كانت اللُّغة وهبية لعلمها هذا المؤمن ، الذي بلغ في درجات الإيمان مراتب الكمال والعرفان .

وينقل الخطيب (٢٠٠١) رأي أرسطو الذي يزعم أنّ اللُّغة اصطلاحية . وقد سبقه إلىٰ هذا القول ديمقراطوس اليوناني . و ساد الاعتقاد بهذا الرأي إبان مرحلة العصور الوسطىٰ ، وعصر النهضة وحتىٰ العصر الحديث ، حيث تبنىٰ جلُّ علمائه هذا المذهب .

وقال بهذا الرأي من المحدثين ، الفيلسوف الانجليزي آدم سميث من علماء القرن التاسع عشر ، والفرنسي جان جاك روسو ، الذي زعم أن الإنسان صنع اللُّغة بعد أن اكتمل تطوره ، وأصبح مخلوقًا متطوراً . (Rogers، 9 : 1972)

ويذكر المعطاني (٨ : ٢٠٠٤) أنّ من علماء العصور المتقدمة والمتأخرة ، من جمع بين نظرية الإلهام والتواضع . ومن هؤلاء أبو إسحاق ، الذي نظر في تعارض المذهبين ، ولم يجد دليلًا نقليًا أوعقليًا قاطعًا يؤيد مذهب التوقيف ، مع ضعف دليل قول الاصطلاحيين لأنه يفضي إلىٰ سلسلة غير متناهية ؛ إذ يقتضي الأمر أن يسبق الاصطلاح علىٰ اللُّغة اصطلاح سابق . فقد رأىٰ أبو إسحاق الجمع بين الرأيين للخروج من هذه الدائرة المغلقة ، فافترض أن هناك قدراً معينًا من

اللُّغة لابد أن كان إلهاماً وتوقيفاً . وقد تمكن الإنسان من خلال هذا القدر من تطوير اللُّغة عن طريق الاصطلاح والتواضع (المزهر : ٢٠) .

ومن النظريات السائدة في تفسير نشأة اللُّغة ، ما يسمىٰ بالنظرية الطبيعية . وأهل هذا المذهب يرون أن اللُّغة بدأت بمحاكاة أصوات الطبيعة « كدوىٰ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللُّغات عن ذلك فيما بعد » . (الخصائص : ٧٦) . وذكر صاحب الخصائص أن هذا وجه صالح عنده أي مقبول ، وبناءً علىٰ هذا ذهب إلىٰ القول بأنه لابد أن يكون بين الكلمة ومعناها علاقة طبيعية ، حملت الواضع أن يضع لفظ كذا لكذا ، وإلا كان اختصاص المعنىٰ بلفظ من بين الألفاظ بلا مخصص .

يقول بهذا الرأي عدد من فلاسفة الإغريق علىٰ رأسهم أفلاطون الذي زعم بأن هناك علاقة طبيعية بين الكلمة ، وما تشير إليه . وكان هذا مذهب أصحاب المدرسة الفلسفية الرواقية اليونانية ، الذين يستدلون علىٰ صحة مذهبهم بوجود بعض الكلمات التي تشير أصواتها لمعناها (السامرائي ، ١٩٦٦) .

وظهرت في العصر الحديث كما يذكر مونان (١٩٦٨) نظريات تحمل ذات التوجه الطبيعي في تفسير نشأة اللُّغة . ومن ذلك ما ظهر في بداية القرن التاسع عشر ، وعرف بنظرية « الباو - باو » . والتي يرىٰ أصحابها أنّ اللُّغة نشأت عن تقليد الأصوات الطبيعية . وقد قال بهذا الرأي بعض علماء اللُّغة المحدثين مثل جسبرسون وهيردز ، وأيده من علماء اللِّسانيات العربيَّة إبراهيم أنيس ، وعلي عبد الواحد وافي .

ثم هناك نظرية « الدينق دونق » ، وأشهر القائلين بها ماكس ميلر(١٩٦٩) الذي زعم أن للإنسان القدرة علىٰ صياغة ألفاظ يعبِّر بها عن شعوره الداخلي ،

وذلك عند سماعه أصوات الطبيعة الخارجية ، حيث يتولد لديه إحساس وانطباع داخلي ، يعبر عنه بكلمات ومفردات جديدة ، تحاكي صوت الطبيعة الذي انطبع في مخيلته . وقريب من هذه النظرية ما يسمىٰ بنظرية « يُوْ - هِيْ - هُوْ » والتي قال بها الفرنسي نويري (١٩٦٥) . وهذه النظرية تفترض أنّ اللُّغة بدأت بأصوات عشوائية ، كانت تصاحب النشاط البدني للمجموعات البشرية أثناء أدائها للأعمال الجماعية ، مثل الجرَّ والرَّفع والحمل أو القطع . ثم تطورت هذه الأصوات العفوية ، لتصبح أهازيج تنظم إيقاع العمل .

ومن أطرف النظريات في هذا المجال والتي أشار إليها مونان (١٩٦٨) ، ما عرف بنظرية « البُوه – بُوه » وهذه تذهب إلىٰ أنّ نشأة اللُّغة منبعها غريزة خاصة ، يعبر بها الإنسان عن انفعالاته مثل الضحك والبكاء وغيرها ، كما يعبر بها عن انفعالات الخوف والغضب والحزن والسرور والألم ، وذلك مثل آخ وآح وأُف وآه وغيرها . وفي الحقيقة إنّ هذه الألفاظ متحدة في صيغتها وأصولها ومدلولاتها عند كثير من المجموعات البشرية . وقد استخدمت تدريجياً للتفاهم فيما بينهما .

هذه الآراء المختلفة ، والنظريات المتباينة تجعل الباحث في حيرة من أمره . وتجعل قضية الانحياز إلىٰ أحد تلك المذاهب دون الآخر أمراً يجانب الحكمة والصواب . وهذا الأمر هو الذي جعل ابن جنِّي دائم التنقير والتفكر فيه ، ولم ترسُ سفينته علىٰ بر . فعبَّر عن حيرته بأسلوب فيه كثير من الرشاقة والجمال والإقناع والإمتاع . يقول أبو الفتح : « واعلم...أنني علىٰ تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضوع ، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ؛ مختلفة جهات التقول علىٰ فكري . وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللُّغة الشريفة الكريمة اللّطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ، ما يملك

عليَّ جانب الفكر ، حتىٰ يكاد يطمح به أمام غلوة السحر . فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا (رحمهم الله) . ومنه ما حذوته علىٰ أمثلتهم ، فعرفت بتاليه وانقياده ، وبُعد مراميه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما اسعدوا به ، وفُرِقَ لهم عنه . وانضاف إلىٰ ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله (جلَّ وعزَّ) ؛ فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه ، وأنها وحي » (الخصائص : ٧٧) . ثم يمضي ابن جنِّي في تأمله للمذهب الآخر قائلًا : « ثم أقول في هذا : كما وقع لأصحابنا ولنا وتنبهوا وتنبهنا ، علىٰ تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالىٰ قد خلق من قبلنا -وإن بَعُد مداه عنَّا- من كان ألطف منا أذهاناً ، وأسرع خواطرَ وأجرأ جناناً . فأقف بين تيم الخلْتين حسيراً وأكاثرهما فانكفئ مكثوراً . وإن خطر خاطر فيما بعده يعلِّق الكف ، بإحدىٰ الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها ، قلنا به وبالله التوفيق » (الخصائص : ٧٨) .

سمات وخصائص لغة الإنسان :

تمتاز اللُّغات الإنسانية بخصائص وسمات لا توجد في وسائل الاتصال الأخرىٰ . وقد لخص الخماش (٢٠٠٣) هذه السمات فيما يلي :

١ - **الاصطلاحية** : ويقصد بها عدم وجود علاقة مفروضة بين الكلمة ومعناها . وهذا يعني أنّ للّغة الحرية في وضع أي لفظ ، لأي معنىٰ بشرط أن يصطلح عليه أهل اللّغة .

٢ - **الازدواجية** : وتعني تعدد المستويات ، والتي تشمل المستوىٰ الصوتي والمستوىٰ الصرفي ، والمعجمي والمستوىٰ النحوي ، الذي يُمكِّن من استخدام عناصر المستوىٰ السابق وفق قواعد معينة لإنتاج جمل صحيحة .

٣ - **الإنتاجية** : وهي أهم وأبرز خصائص اللُّغة الإنسانية . فهذه الخاصية هي

التي تمكن الإنسان من إنتاج وفهم عدد غير محدود من الجمل والعبارات ، وإن لم يكن سمعها من قبل .

٤ - **إمكانية الإشارة إلىٰ البعيد** : استخدام الإنسان للغة مكنه من تجاوز حدود الحاضر زمانـًا ومكانـًا . وأصبح بإمكانه الإشارة إلىٰ الأشياء البعيدة في الزمان والمكان ؛ كما مكنته اللُّغة من الرجوع إلىٰ الماضي ، وإلىٰ أحداث حدثت قبل قرون . وهذا الأمر مكَّن الإنسان ، دون الحيوان ، من الاستفادة من تجارب الماضي واستشراف المستقبل ، وتكوين رؤىٰ ، فهيأت له إقامة الحضارة الإنسانية .

٥ - **التعبير عن المعاني المجردة** : تشتمل اللُّغة الإنسانية علىٰ مفردات تدل علىٰ معانٍ مجردة ، نحو الصدق والكرم والأمانة . وأخرىٰ تدل علىٰ أمور غيبية مثل الملائكة والشياطين ، وأمور وهمية مثل عروس البحر والسعلاة . وهذه معانٍ ومفاهيم لا يمكن التعبير عنها إلا من خلال اللّغة .

٦ - **التوريث الثقافي لا التوريث النوعي** : حيث يكتسب الصغار اللُّغة من خلال التلقين والاحتكاك بالكبار في المجتمع الذي ينتمون إليه بالتوريث الثقافي . وأما إن لم تتح لهم فرصة العيش في مجتمع إنساني ، كأن يعيش طفل في عزلة تامة ، فإنه لن يتكلم أية لغة . أما التوريث النوعي فهو ما نلمسه عند الحيوانات التي تلد صغارها ، وهي مزودة بنظام الاتصال الموجود عند نوعها ، وتظل محافظة عليه حتىٰ ولو لم تتح لها فرصة الاتصال بحيوانات أخرىٰ من نوعها .

اكتساب أم تعلم اللغة :

شغلت عملية تعلم اللُّغة أأو اكتسابها أو اكتسابها أذهان المربين والباحثين في هذا المجال منذ وقت بعيد . وقد لوحظ أن الأطفال يكتسبون لغة أمهاتهم بسهولة

ويسر شديدين . يتم ذلك ، أي تعلم الطفل للغة أمه ، دون عناء يذكر من قبل الأم ، أو جهد منظم من قبل الطفل . بل يتم الأمر بصورة تلقائية وعفوية وفي زمن وجيز . فكل المطلوب أن يتعرض الطفل للغة وهي تستخدم بصورة تلقائية وفي ظروف عادية ، فسرعان ما يلتقطها الطفل . وما أن يتجاوز السنة الرابعة من عمره ، إلا وتجده قد أتقن النظام الأساسي للغة أمه ، وتهيأ كلياً إلىٰ فهم وإنتاج جمل وعبارات جديدة وإن لم يسمعها من قبل . هذه الظاهرة عرفت عند الباحثين اللُّغويين المحدثين بما يسمىٰ باكتساب اللغة ، تفريقاً بينها وبين مصطلح « تعلم اللغة » ؛ إذ الأخير يقصد به الجهد المنظم والممنهج الذي يقوم به المعلمون لتعليم تلاميذهم لغة جديدة غير لغة الأم (المطرفي ، ٢٠٠٨) .

ومما يجدر ذكره هنا ، أنّ مفهوم اكتساب اللُّغة يشمل كل الحالات التي يكتسب فيها المتلقي اللُّغة كفاحاً من البيئة اللُّغوية التي ينشأ فيها ، دون الحاجة إلىٰ الانتظام في فصول دراسية ، أو معاهد تعليمية . ومما يجدر ذكره أيضاً ، أن بإمكان الطفل أن يكتسب أكثر من لغة في حالة نشأته فيما يسمىٰ ببيئات التداخل اللغوي . وقد شهد الباحث في مدينة مكة المكرمة ، وفي أحيائها الشعبية ، التي تضم مجموعات عرقية عديدة ، شهد أطفالاً لم تتجاوز أعمارهم الخمسة أعوام ، وهم يتحدثون ، وبطلاقة لم تشبها لكنة ، أربع لغات ؛ وهي العربيَّة ، ولغة الهوسا ، واللُّغة البرماوية ، والأردية .

وقد أدرك العرب الأوائل ضرورة عنصر المعايشة لاكتساب اللُّغة الفصيحة . ومن ثم فقد حرصوا علىٰ إرسال أبنائهم إلىٰ البادية حيث الفضاء الرحب ، والصفاء اللّغوي ، بُغية إكسابهم اللُّغة نقية فصيحة مبرأة من غنج المدينة ، ولكنة الحضر ورطانات العجم . ويتحاشون تنشئتهم في المدن حيث تختلط الأحساب والأنساب ، ومن قبل الألسن واللهجات . ولم يكن نبيَّ هذه الأمة عليه أفضل

الصلاة وأتم التسليم استثناءً ، حيث دُفع به إلىٰ بادية بني سعد ، فرضع مع حليب السيدة الطاهرة المهدية ، حليمة السعدية ، فصاحة اللِّسان وروعة البيان ، وصفاء السريرة ، ونفاذ البصيرة ؛ فكان أفصح العرب ولا ريب ، بيد أنه من قريش .

أما مصطلح تعلم اللُّغة ، فهو مصطلح يقصد به الجهد المنظم لتعليم اللُّغة للنشء وخصوصاً اللُّغة الأجنبية أو الثانية بوصفها جزء من المقررات التربوية في المدارس والمعاهد النظامية ، أو في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي . وظهر في هذا المجال نظريات بنيت علىٰ أسس نفسية وتعليميّة بحتة . فمنذُ منتصف القرن قبل الماضي ، ظهرت طرق شتىٰ لتعليم تلك اللُّغات ، وأُلّفت الكتب وأُعدت المقررات بناءً علىٰ نظريات علم اللُّغة النفسي والتطبيقي والاجتماعي . فقد ظهرت علىٰ سبيل المثال طريقة النحو والترجمة (The Grammar Translation Method) وهي من الطرق القديمة جداً . وهي كما يظهر من اسمها تعتمد في تعليم اللُّغة علىٰ تدريس النحو ، وترجمة النصوص من اللُّغة المستهدفة إلىٰ لغة الأم أو العكس . وقد كانت هذه أقدم الطرق التي عرفت في تدريس اللُّغات ، حيث استخدمت في تدريس اللُّغات القديمة مثل اللاتينية واليونانية . ورغم الانتقادات الشديدة التي وجهت لهذه الطريقة ، إلا أنها مازالت مستخدمة في كثير من البلاد النامية (Kelly، 1969) .

ثم ظهر ما يسمىٰ بالطريقة المباشرة (The Direct Method) . وهي طريقة تفترض أنه يمكن تعليم اللُّغة المستهدفة دون الحاجة إلىٰ واسطة لغوية أخرىٰ ، أي دون الحاجة للترجمة ، ودون الحاجة للتركيز علىٰ تعليم النحو ، مثلما هي الحال في تعلم الطفل للغة أمه . فالطفل يتعلم لغة أمه عن طريق التلقين المباشر دون ترجمة ، ودون حاجة لدراسة النحو (Allen & Cambell، 1972) .

تعرضت هذه الطريقة أيضاً لنقد لاذع قلل من أهميتها ، وهيأ المسرح لظهور

ما يسمىٰ بالطريقة السماعية الشفوية (The Audio–Lingual Method) ، والتي بنيت علىٰ نظريات علماء النفس السلوكيين الذين يزعمون أنّ السلوك الإنساني يكتسب بواسطة التدعيم الإيجابي ، ويزعمون أن اللُّغة سلوك إنساني بحت يمكن اكتسابه بنفس الطريقة ؛ أي طريقة التدعيم الإيجابي . فالطفل حسب منطوق هذه النظرية يبدأ بإصدار أصوات عفوية تُدعَّم إيجابياً من قبل الأم والأب وأفراد المجتمع الآخرين ، وتتشكل هذه الأصوات تدريجياً لتكون مفردات ، ثم عبارات ثم جمل يستخدمها الطفل لإشباع حاجته في التواصل مع مجتمعه(Chastain، 1972) . وقد اعتمدت هذه النظرية علىٰ تجارب معملية استخدمت فيها الفئران والجرذان والأرانب ، لمعرفة كيفية تشكيل السلوك (Skinner، 1957) . وقد انتشرت هذه الطريقة في منتصف الخمسينات من القرن الماضي ، واستمرت لفترة من الستينات . ولكن ومنذ أوائل السبعينات بدأت هذه الطريقة تتعرض لهجوم كاسح من عالم اللُّغة الأمريكي نوؤم جومكسي ، الذي قال بأنه من السخف بمكان أن يُظن أن الإنسان ؛ ذلك الكائن العاقل المفكر ، يكتسب سلوكه ويطوره بنفس طرائق الحيوانات ؛ أو أن يُظن أن اللُّغة ذلك النظام المعقَّد البديع ، والتي هي أدق ما أبدعه العقل الإنساني ، يمكن أن تتعلم حسب قواعد نظرية المثير والاستجابة المشهورة في علم النفس السلوكي (Chomsky، 1986) .

وكان جراء هذا الهجوم القاسي ، أن فقدت الطريقة السماعية-الشفهية شعبيتها ، ليتمهد الطريق أمام طرائق جديدة ، والتي كان من أهمها ما عرف بالطريقة التواصلية أو الطريقة الاتصالية(The Communicative Approach) . وهي في مجملها ترمي إلىٰ تعليم اللُّغة من أجل إنجاز وظيفتها الرئيسية ؛ أي التواصل . ومن هنا هدفت هذه الطريقة إلىٰ تقوية قدرة الفرد علىٰ استخدام اللُّغة

لتحقيق الاتصال مع الآخرين ، وذلك عن طريق توفير ظروف طبيعية ، وخلق مواقف معينة ، وتزويد الدارس بمادة لغوية مناسبة ، وتشجيعه علىٰ استخدام تلك المادة اللُّغوية للتعبير عن تلك الظروف والمواقف المختلفة . فالتركيز هنا علىٰ تنمية القدرة علىٰ تحقيق التواصل باللّغة المستهدفة ، وإيصال الفكرة والاستجابة بصورة طبيعية دون التركيز الزائد علىٰ صحة اللُّغة نحواً وصرفاً ، وذلك بافتراض أن هذه المسألة يمكن أن تأتي في مرحلة تالية وعن طريق التدريب والمران (Brown، 1999) . علىٰ كل حال ، ورغم كثير من الانتقادات التي وجهت لهذه الطريقة ، فإنها مازالت هي الطريقة الأوسع انتشاراً والأكثر رواجاً في تعليم اللُّغات في العصر الحالي . وقد سبق القول بأن هذه الطرق قامت علىٰ مبادئ ونظريات علم اللُّغة الحديث وفروعه المختلفة . فما علم اللُّغة وما فروعه ووظيفته ونظرياته الأساسية وتطبيقاته العملية؟

علم اللغة :

يمثل علم اللُّغة ونظرياته وفروعه الأساسية ، المصادر الرئيسية التي يستند عليها الباحث في معالجة المحاور المختلفة في هذه الدراسة . ومن ثمّ لم يجد الباحث بداً من الاطلاع الشامل علىٰ هذا الفرع من فروع المعرفة الإنسانية ، بوصفه الأداة الرئيسة المستخدمة في هذا البحث . فما علم اللُّغة إذن؟ وما العلاقة بينه وبين ما يعرف بفقه اللّغة؟ وما فروعه ونظرياته الأساسية؟ هذه الأسئلة وأسئلة أخرىٰ سوف يحاول الباحث الإجابة عنها فيما تبقىٰ من هذا الفصل .

تعريف علم اللُّغة ووظيفته :

هو علم يبحث في اللُّغة من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية

واللفظية والدلالية والنفسية والاجتماعية والمعجمية والتطبيقية . وقد أطلق عليه اللُّغويون أسماء عديدة ؛ مثل فقه اللّغة ، وعلم اللِّسان ، واللِّسانيات والألسنيات . ويُقسَّم علم اللُّغة إلىٰ قسمين أساسيين هما : علم اللُّغة النظري ، وعلم اللُّغة التطبيقي . ويشمل علم اللُّغة النظري علم الأصوات والصوتيات وعلم اللُّغة التاريخي ، وعلم الدلالة وعلم النحو والصرف . أما علم اللُّغة التطبيقي ، فهو الآخر يشمل عدة فروع أهمها علم اللُّغة المقارن ، وعلم اللُّغة التقابلي ، وعلم النفس اللّغوي ، وعلم اللُّغة الاجتماعي ، وتعليم اللُّغات ، وتحليل الأخطاء (الخطيب ، ٢٠٠١) .

يهتم علم اللُّغة عموماً بدراسة اللُّغة بوصفها نظاماً للاتصال بين البشر . ورغم أنّ الظاهرة اللُّغوية قد شغلت رجال الفكر والفلسفة منذ قرون ، إلا أنّ علم اللُّغة لم يبرز علماً قائماً بذاته ، إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ المعارف الإنسانية . ويؤكد صبحي الصالح (١٩٧٨م) أنّ علم اللُّغة يهتم بالدراسة اللُّغوية بصورة عامة ، ويصفه بأنه « الدراسة العلمية للّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها دون النظر إلىٰ لغة بعينها » ص٤ .

أما باي (١٩٦٩) فيري أنّ مصطلح علم اللُّغة قد يستخدم للدلالة علىٰ ثلاثة مستويات من الدراسة اللُّغوية وهي :

١ - المستوىٰ العام : ويقصد به دراسة العادات الكلامية الإنسانية ، ويُعني في هذه الحال بالتحليل الوصفي للتراكيب ، أو النُظم اللُّغوية ، مثل النظام الصوتي والتراكيب ، والنظام الصرفي والنحوي للّغة .

٢ - المستوىٰ الثاني : ويشمل دراسة كلام الإنسان في جوانبه المتعددة (الوحدات الطبيعية ، البنية ، التغييرات التي تطرأ علىٰ اللُّغة واللَّهجات) . ويشمل هذا المستوىٰ دراسة قواعد اللُّغة العامة ، والعلاقة بين الكلام والكتابة .

٣ - المستوىٰ الثالث : ويشمل الدراسة المنظمة للّغة . وهنا يهتم العلم بدراسة الظاهرة اللُّغوية ، ويصفها وصفًا مجرداً كما هي ، دون التدخل لفرض أو إملاء الاستخدام الصحيح . وقد يشتمل هذا المستوىٰ علىٰ علم اللُّغة التاريخي أو الزمني ، والذي يهتم بدراسة التغييرات التي حدثت في اللُّغات ، ودراسة نشأة اللّهجات وتطور اللُّغات .

أما فيما يختص بالفرق بين علم اللُّغة وفقه اللّغة ، فإنّ كثيراً من الباحثين يرون أنّه لا فرق بينها . ويرىٰ صبحي الصالح (١٩٧٨) إنّه من العسير التفريق بين العلمين للتداخل الشديد بينهما . ولكن إذا أمعن الباحث النظر ، فإنه يلاحظ أنّ علم اللُّغة يهتم بالدراسة العلمية الوصفية للّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها ، أما فقه اللُّغة فإنه يعتمد لحد كبير علىٰ مقارنة اللُّغات بعضها ، ويدرس صلات القرابة بين عدة لغات منحدرة من أصل واحد . كما يهتم بدراسة تاريخ الكلمات وأصلها .

ويرىٰ خليل (١٨ : ١٩٨٧) أنّ الفرق بين العلمين ينحصر في الجوانب التاريخية والمنهجية . فمن الناحية التاريخية ، فإن فقه اللُّغة كان يطلق علىٰ ثلاثة أنواع من الدراسة ، أشار إليها دي سوسير(١٩١٣) في كثير من دراساته وهي :

١ - المرحلة الأجرومية : حيث بيان الصحة والخطأ في الاستعمال اللُّغوي

٢ - مرحلة مقارنة النصوص وتصحيحها وتفسيرها

٣ - مرحلة فقه اللُّغة المقارن

أما من الناحية المنهجية ، فلم يعُد مصطلح فقه اللُّغة يستخدم اليوم ، وإنما المصطلح الشائع هو علم اللُّغة ، والذي إذا نطق دون تخصيص فهم منه (الدراسة العلمية الوصفية للغة) . وإذا خصص ، كقولك علم اللُّغة التقابلي ، أو علم اللُّغة

التطبيقي أو النفسي مثلًا ، فإن القصد يحدد المنهج المتَّبع بلا أدنىٰ لبس أو تداخل . وتنحصر دلالة مفهوم علم اللُّغة مجردة ، علىٰ الدراسة العلمية للغة . ويقصد بالدراسة العلمية للغة ، دراسة الظاهرة اللُّغوية بغض النظر عن كونها لغة قوم بعينهم ، لها خصائصها التي تميزها عن سائر اللُّغات . ويرىٰ الخماش (٢٠٠٣ : ١٣) أنّ أهم ما يميز الدراسة العلمية للغة ما يلي :

١ - الدقة والوضوح : ويشمل هذا تحديد المصطلحات بصورة إجرائية لا تدع مجالًا للبس أو الخلط .

٢ - المنهجية : وهي تنظيم العمل وتحديد المستويات اللُّغوية بصورة قاطعة . فمن الباحثين من يدرس الأصوات ، ثم البنية ، ثم التراكيب ، ثم الدلالة . وهذا هو الشائع في هذا المجال .

٣ - الموضوعية : ويقصد بها أمران : أولهما التجرد والابتعاد عن الذاتية والمزاجية في إطلاق الأحكام . والثاني الشمولية ، وعدم تجاهل العناصر المتصلة باللغة ، مثل المعنىٰ والسياق .

عمومًا ، فإنّ الدراسة العلمية ترمي إلىٰ الوصول إلىٰ القوانين العامة التي تجري عليها اللُّغات ، وتصدق علىٰ كثيرٍ منها ، وتبيان السمات الخاصة التي تميز اللُّغات بعضها عن بعض ، بناءً علىٰ تحليل الظاهرة اللُّغوية تحليلًا منطقيًا متوازنًا .

علم اللُّغة التطبيقي :

وهو فرع من فروع علم اللُّغة العام ، يتضمن في ثناياه عدة فروع جانبية ، مثل التحليل التقابلي ، وتحليل الأخطاء ، وتعلم اللُّغات الثانية والأجنبية ، وعلم

اللُّغة النفسي ، وعلم اللُّغة الاجتماعي ، وصناعة المعاجم ، وعلم الترجمة . ويقابل علم اللُّغة التطبيقي ، علم اللُّغة النظري الذي سبقت الإشارة إليه .

يختص علم اللُّغة التطبيقي بدراسة المشكلات العلمية التطبيقية في المجال اللّغوي ، مثل تعليم اللُّغة وصناعة المعاجم والترجمة . كما يهتم بعلاج عيوب النطق ، مستفيداً في حل هذه المشكلات من نظريات في علوم شتىٰ ، مثل علم اللُّغة النظري ، وعلم النَّفس ، وعلم الاجتماع ، ونظرية الإعلام . فهو يوظف هذه المعارف النظرية لصياغة نماذج تطبيقية مثل إعداد المناهج ، وعلاج عيوب النطق ، والتخطيط اللّغوي .

ويذكر هامب (١٩٦٦ : ٧١) تعريفاً لعلم اللُّغة التطبيقي ، علىٰ أنّه العلم الذي يقوم بدراسة الظواهر اللُّغوية ، فيما يتعلق بجوانب معينة خارج النظام اللّغوي البحت . وهو مصطلح يقابل علم اللُّغة باعتباره علماً مهتماً بدراسة الثوابت النظرية البحتة كما يقابل علم اللُّغة التاريخي .

علم اللُّغة المقارن :

وهو علم يهتم بمقارنة الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية في اللُّغات ، التي تنتمي إلىٰ مجموعة أو عائلة لغوية واحدة . وعلم اللُّغة المقارن يقوم بدراسة لغتين أو أكثر ، بهدف مقارنة مكوناتها اللُّغوية ، لتوضيح مدىٰ التشابه أو الاختلاف بين مكونات تلك اللُّغات . ويستخدمه بعض علماء اللُّغة التطبيقيين ، لمعرفة الفروق بين اللُّغة الأم للمتعلم ، واللُّغة المستهدف تعلمها لتحديد الصعوبات التي قد يواجهها المتعلم للّغة ما ، بناءً علىٰ بعدها أو قربها من لغة الأم . وكذلك قد يستخدم هذا العلم لدراسة التشابه والاختلاف بين لغتين أو أكثر ، في مرحلة زمنية معينة ، أو في دراسة اللُّغة نفسها في مراحل زمنية مختلفة .

وكثيراً ما يكون الهدف من دراسة اللُّغات ومقارنتها ، هو تحديد انتمائها إلىٰ أصول مشتركة ، أو إعادة بناء صورة هذا الأصل .

علم اللُّغة التقابلي :

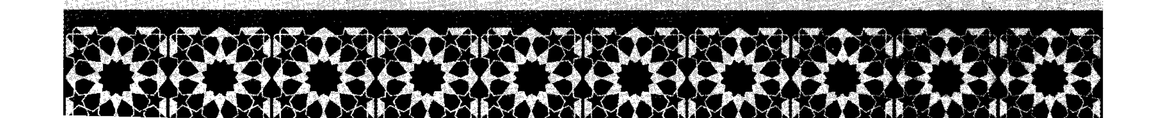
وهو فرع من علم اللُّغة التطبيقي ، يدرس وجوه الاختلاف بين لغتين لا تنتميان إلىٰ عائلة لغوية واحدة . وتتم المقابلة بين اللّغتين علىٰ المستوىٰ الصوتي ، والصرفي ، والدلالي ، والنحوي ، واللفظي للاستفادة من نتائج هذه المقابلة في حل المشكلات التي قد تنجم من اختلاف اللغتين ، أو لأغراض علمية بحتة كما هو الحال في هذه الدراسة . ومن التعريفات الشائعة لهذا الفرع من فروع علم اللُّغة تعريف (Burger : 8، 1994) الذي يعرفه بأنه مجموعة الأنشطة المحددة ، التي ترمي إلىٰ إظهار الفروق وأوجه الشبه البنيوية بين النظم اللُّغوية . وهو يضم جغرافية اللّهجات ، وعلم اللُّغة التأريخي ، الذي يهتم بدوره بدراسة تطور اللُّغات واللَّهجات .

علم اللُّغة التأريخي :

وهذا الفرع يدرس التطورات التي حدثت للّغة ما عبر فترة زمنية معينة . ومن أمثلة الموضوعات التي يهتم بها هذا العلم ، التغيير في النظام الصوتي للّغة الإنجليزيَّة في مرحلة اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، ومرحلة الإنجليزيَّة الوسيطة والإنجليزيَّة البريطانية الحديثة (هامب ، ١٩٦٦م) .

خاتمة :

في ثنايا هذا الفصل ، قام الباحث بتطواف شامل غطىٰ معظم المفاهيم الأساسية المتعلقة بموضوع هذه الدراسة ، حيث وقف علىٰ تعريف اللُّغة وبيان حدها . كما حاول استكناه أصلها ، واستعرض النظريات الأساسية التي حاولت



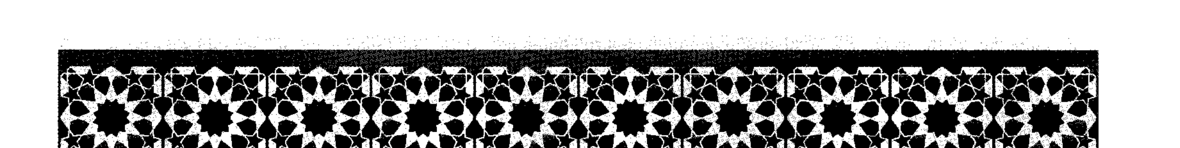
تفسير نشأتها . فوجد من الباحثين من يقول بأنّها إلهام وتوقيف ؛ ومنهم من يقول بأنّها تواضع واصطلاح . وذهب البعض إلىٰ القول بأنها محاكاة لأصوات الطبيعة : كدوي الريح وحنين الرعد ، وخرير الماء ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك .

ثم استعرض الباحث خصائص اللُّغات الإنسانية ، وميزاتها عن وسائل الاتصال الأخرىٰ . فوجد أنّ من خصائص اللُّغات الإنسانية الاصطلاحية والازدواجية ، والإنتاجية ، وإمكانية الإشارة إلىٰ البعيد ، والتعبير عن المعاني المجردة .

ومن ثم أشار الباحث إلىٰ كيفية اكتساب اللُّغة ، وفرَّق بين مفهوم اكتساب اللُّغة وتعلمها فوجد أن الاكتساب يعني أخذ اللُّغة كفاحـًا من بيئاتها عن طريق العيش في بيئة اللُّغة أوعن طريق التلقين . في حين أن مفهوم التعلم يقصد به دراسة اللُّغة دراسة منتظمة ، في فصول دراسية ، ووفق جهود منهجية محددة . ثم استعرض الباحث بعض نظريات تعلم اللُّغة وبعض الطرق الشائعة في تدريس اللُّغات .

وأخيراً قدَّم الباحث تعاريف ، لما اصطلح علىٰ تسميته بعلم اللُّغة وتفرعاته المختلفة ، وأشار إلىٰ أهمية هذا العلم في معالجة محاور هذه الدراسة . وفي غضون هذا التطواف الشامل ، أشار الباحث إلىٰ جهود علماء العربيَّة وإسهامهم الوافر في هذا المجال ، وكيف أنهم قدموا معارف ثرَّة ، أفاد منها علماء اللُّغة المحدثون ، ونسجوا علىٰ منوالها جُلَّ نظرياتهم المعاصرة .

الفصل الثالث :
نشأة اللُّغة العربيَّة وتأريخها
بالمقارنة مع اللُّغات الأخرىٰ



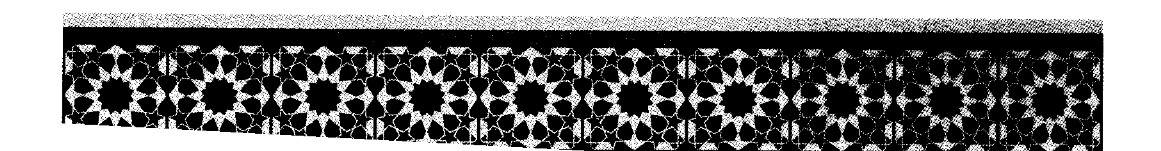
مدخل :

يتناول هذا الفصل نشأة اللُّغة العربيَّة ، ويحدد أصلها وفصلها ، ويعدد أخواتها ، ويبيِّن مدىٰ صلاتها وعلاقاتها بلغات أخرىٰ . ثم يتأمل الباحث تطورهذه اللُّغة ، حتىٰ بلوغها مرحلة النضج والكمال ، قبيل بعثة النبي(عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم) ، ومرحلة نزول القرآن الكريم ، حيث تعاطت هذه اللُّغة الشريفة ، مع انبثاق فجر الرسالة المحمدية ، إكسير الحياة وسر البقاء و أسباب الخلود . فبقيت وخلدت ، واضمحل ومات ما سواها من لغات .

ولأجل المقارنة والمقابلة ، يستعرض الباحث نشأة وتأريخ بعض اللُّغات الأخرىٰ ، مشيراً إلىٰ مدىٰ التبدل والتحول الجذري ، الذي يطرأ عليها في غضون قرون قلائل ، حتىٰ تغدو خلقاً آخرَ لا يكاد يستبين ملامحها معه حتىٰ النابهون من بنيها ذوو الأفهام ، ناهيك عن السوقة والعوام . ويضرب لذلك مثلًا باللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، التي انقطعت صلتها تماماً بأصلها المكتوب والمنطوق قبل القرن الخامس عشر .

ثم يعلق الباحث علىٰ تلك الظاهرة ، أي ظاهرة انشطار اللُّغات وتبدلها وتحولها بل واضمحلالها وموتها ، كقانون كوني ، انطبقت نواميسه علىٰ جميع اللُّغات ، عدا اللُّغة العربيَّة التي بقيت مثالًا فريداً علىٰ تخلف هذه القاعدة ، وبطلان هذا الناموس .

فلا يجد الباحث تبريراً لهذه الظاهرة ، غير القول بأن هذه اللُّغة كانت ومازالت تكلؤها رعاية ربانيّة ، وعناية إلهيّة ، تولتها منذ نشأتها الباكرة في جزيرة العرب ، فهيأت لها أقواماً من ذوي الفطرة النقية ، والسليقة السوية ، فأشرقت بها



نفوسهم الشفيفة ، وأفهامهم اللطيفة ، فصاغوها درراً ؛ نثراً وشعراً ، تجاوزوا بمعانيها حدود الظرف الزماني الذي عاصروه ، والحيز المكاني الذي ترعرعوا في أكنافه . فكانت هذه اللُّغة الشريفة خير دليل وبرهان ، ومعجزة باقية علىٰ تعاقب الأزمان ، علىٰ صدق هذه الرسالة الخالدة : رسالة القرآن الكريم المحفوظ بوعد صادق من خالق الأكوان جلَّ ثناؤه ، وتقدست أسراره ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر ، آية : ٩] . والعربيَّة وعاء القرآن العظيم ، ظلت وستظُّل محفوظةً ، بموجب هذا الوعد الحقّ إلىٰ يوم الدين .

أصول اللُّغة العربيَّة :

تنتمي اللُّغة العربيَّة إلىٰ أسرة اللُّغات الساميّة ، المتفرعة من مجموعة اللُّغات الأفرو-آسيوية . وتضم المجموعة الساميّة الرئيسة ، لغات حضارة الهلال الخصيب القديمة مثل الأكادية والكنعانية ، والآرامية ، واللُّغة العبرية ، واللُّغات العربيَّة الجنوبية ، وبعض لغات القرن الأفريقي . وعلىٰ وجه التحديد فإن اللُّغة العربيَّة تصنف ضمن المجموعة الساميّة الوسطىٰ ، فتكون بذلك من ضمن اللُّغات الساميّة الشمالية الغربية والتي تشمل الآرامية والعبرية والكنعانية ، وهي أقرب اللُّغات الساميّة للعربية (جواد علىٰ ، ١٩٨٥م) .

نشأت اللُّغة العربيَّة الفصيحة في شمالي الجزيرة العربيَّة . ويرجع أصلها إلىٰ العربيَّة الشمالية القديمة التي كان يتكلم بها العدنانيون . وهي لغة تختلف في كثيرٍ من مكوناتها وأساليبها وأصواتها عن العربيَّة الجنوبية القديمة ، التي نشأت في جنوبي الجزيرة وعرفت قديماً باللُّغة الحميرية ، وكان يتكلم بها القحطانيون .

ويرىٰ Terry Deyoung(1999) ، أن اللُّغة العربيَّة من أحدث اللُّغات السامية نشأة وتاريخاً . ولكن الشواهد التاريخية والدراسات التحليلية الموضوعية ،

تؤكد عكس ذلك . حيث تدل هذه الشواهد على أن اللُّغة العربيَّة ، هي الأقرب إلى اللُّغة السامية الأم ، التي انبثقت منها اللُّغات السامية الأخرى . ويرى حنا الفاخوري (١٩٧٤م) صاحب تاريخ الأدب العربي أن العربيَّة ، ولاحتباسها في جزيرة العرب ، لم تتعرض لما تعرضت له باقي اللُّغات السامية الأخرى من اختلاط ، فظلت بذلك محافظة على نقائها وأصالتها ، وحافظت على كل خصائص اللُّغة السامية الأم . إضافة الى ما ذكر ، فهناك العديد من الآراء والروايات حول أصل اللُّغة العربيَّة لدى قدامى اللُّغويين العرب . فيذهب البعض إلى أن يَعْرُبَ بن كنعان هو أول من أعرب في كلامه ، وتكلم بهذا اللِّسان العربي فسميت العربيَّة باسمه (البستاني ، ١٩٧٦) . وورد في دائرة المعارف الإسلامية (١٩٦٩) أن نبيَّ الله إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) ، كان هو أول من فُتق لسانه بالعربيَّة المبينة ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، ومن ثَمَّ نَسِيَّ لسان قومه من جرهم . ويذهب فريق آخر ، إلى القول بأن العربيَّة كانت لغة آدم(عليه السلام) في الجنة . يقول بهذا الرأي بعض علماء العربيَّة الذين يؤمنون بنظرية المصدر الإلهي للغة ، أو الذين ينادون بنظرية الإلهام مثل أبو علي الفارسي . (عبد الفتاح شلبي ، ١٩٥٨م) .

أطوار اللُّغة العربيَّة وتنوع لهجاتها :

عمومًا ليس في مقدور الباحث اليوم ، أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربيَّة ، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب وقمة النضج . وما هو موجود من نصوص ونقوش ، فهو نذر يسير ، لا يكاد يروي غليل الباحثين عن أصولها ، ولا يكشف بجلاء عن أطوارها . ولكن مجمل الأطوار التي أتت على العربيَّة فوحدت لهجاتها ، وهذبت كلماتها ثابتةٌ بأدلة عقلية ونقلية . فقد كان العرب إبان جاهليتهم أُميين ، لا تربطهم أمارة ، ولا توحدهم حضارة ولا دين .

فكان طبيعيـاً أن ينشأ من ذلك ، ومن اختلاف الوضع والارتجال ، ومن كثرة الحل والترحال ، وتأثير التقوقع والاعتزال ، اضطراب في اللُّغة ، كالترادف واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال ، والبناء والاعراب وهنات النطق ، كعجعجة قضاعة (العجعجة : قلب الياء جيماً بعد العين وبعد الياء المشددة مثل قولهم في الراعي خرج معي : الراعج خرج معج) ، وطمطمانية حمير (الطمطمانية : هي نطق أم بدلًا عن « ال » التعريف . فيسأل أحدهم الرسول (عليه الصلاة وأزكىٰ التسليم) قائلًا : (أمن أمبر أمصيام في أمسفر؟) ؛ وفحفحة هزيل (والفحفحة : هي قلب الحاء عيناً ، ففي مثل : أحل اليه ، فيقولون أعل إليه) وعنعنة تميم (والعنعنة هي إبدال العين عن الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة ، فيقولون « في عمان الله » بدلًا عن « أمان الله ») وكشكشة أسد (والكشكشة : جعل الكاف شيناً : فيقولون في لبيك اللهم لبيك : لبيش اللهم لبيش) ، وقطعة طئ (والقطعة : هي حذف آخر الكلمة . ففي مثل يا أبا الحكم ، يقولون : يا أبا الحكا) وغير ذلك من اللهجات مما باعد بين الألسنة ، وأوشك أن يفصم وشائج التواصل ، ويصرم حبال التفاهم بين أبناء اللُّغة الواحدة ، ويقسم اللُّغة إلىٰ لغات يتقارب أصلها ولا يتفاهم أهلها (عمارة ، ٢٠٠٤) .

صراع اللهجات وتقلب لغات الشمال

يقول صاحب تاريخ الأدب العربي الأستاذ/ أحمد حسن الزيات (٢٠٠١ : ١١) ، إن لغات العرب علىٰ تعددها واختلافها ، ترجع إلىٰ لغتين أصليتين هما : لغة الشمال ، ولغة الجنوب . وبين هاتين اللُّغتين اختلاف ملحوظ علىٰ مستوىٰ الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف ، حتىٰ قال أبو عمرو بن العلاء (ما لسان حميَّر بلساننا ، ولا لغتهم لغتنا) . ولكنه علىٰ الرغم من ذلك ، فإن اللُّغتين كانتا علىٰ صلة ، وتربط بينهما علائق ووشائج راسخة ، وأصول مشتركة ،

وتأثيرات متبادلة . ويروي غلازر (١٩٧٦) ، أن القحطانيين رحلوا عن ديارهم بعد سيل العرم ، في منتصف القرن الخامس الميلادي ، وتفرقوا ونزحوا إلىٰ شمال الجزيرة العربيَّة . واستطاعوا بما لديهم من قوة وسالف حضارة ، وبما كانوا عليه من رقي وتطور ، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في شمال جزيرة العرب . وامتد سلطانهم في بلاد الشام والعراق ، كما خضعت لهم من قبل بلاد اليمن ، فكان بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرب بين اللُّغتين في الألفاظ ، ويجانس بين اللهجتين في النطق ، دون أن تكون لإحداهما الغلبة علىٰ الأخرىٰ . ومرد ذلك لقوة القحطانيين من جهة ، ولاعتصام العدنانيين بالصحراء من جهة أخرىٰ . وتطاول الأمد علىٰ هذا الصراع الحضاري ، وامتد حتىٰ القرن السادس الميلادي ، حيث بدأ سلطان الحميريين يضعف ودولتهم تتلاشىٰ ، بعد أن تغلب عليهم الأحباش ، وتسلط عليهم الفرس . وعلىٰ النقيض من هذا ، فقد كانت تتهيأ للعدنانيين أسباب النهضة والألفة والوحدة والسيادة والاستقلال ، وذلك بسبب اتصالهم بالفرس في الشرق ، واختلاطهم بالروم في الشمال والأحباش في الغرب ، عن طريق الحرب أحياناً ، والتجارة أحياناً أخرىٰ . فكان نتاج ذلك ، أن فرضوا لغتهم وآدابهم علىٰ حميَّر المغلوبة علىٰ أمرها . ثم جاء الإسلام لتكتب للغة الشمال ، أي لغة العدنانيين صفحة للعزَّة والخلود مع بزوغ فجره الجديد ؛ فاندثرت لغة حميَّر ، وانمحت آدابهم وأخبارهم ولغتهم من الوجود ، وصعدت لغة مضر ، وعلا شأنها وكتب لها الخلود .

أسباب صعود لغة العدنانيين (المضرية) :

لم يكن تغلُّب لغات الشمال ، أو لغات العدنانيين انتصاراً لها علىٰ لغات الجنوب فحسب ؛ بل إن تلك اللُّغات استطاعت من خلال ذلك الانتصار ، أن تبرأ مما جنته عليها الأمية الهمجية ، والبداوة البدائية ، من اضطرابات النطق ،

واختلاف الدلالة ، وتعدد الوضع والارتجال . فتغلبت لغة مضر ممثلة في لهجة قريش ، وكتبت لها السيادة والريادة والبقاء ، وذلك لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أجملها الزيات (٢٠٠١م) فيما يلي :

١ - الأسواق :

وهذه كان العرب يقيمونها في معظم أشهر السنة ، للبيع والتسوق ، وينتقلون من بعضها إلىٰ الآخر ، فتدعوهم طبيعة التعاملات التجارية إلىٰ المفاوضة بالقول ، والمعارضة بالرأي ، والمباهاة بالشعر وبالفصاحة ، والمفاخرة بالمحامد ، وشرف الأصل ونقاء العنصر . فكان في ذلك معونة ومؤونة علىٰ توحيد اللِّسان والعادات والأخلاق والدين ؛ إذ كان الشاعر إنما يتوخىٰ الألفاظ العامة المشهورة ، ويتفادىٰ العبارات المحلية المغمورة ، ويلجأ إلىٰ الأساليب الشائعة قاصداً إلىٰ إفهام سامعيه ، أملًا في ايصال رسالته وتكثير مشايعه . والرواة من بعده يطيرون بشعره بين القبائل ، وينشرونه في النواحي المختلفة ، فيذيع صيته وتنتشر لهجته وطرائق فكره ، ومناقب قومه .

ويُذكر أن أشهر الأسواق ، كان سوق عكاظ ومجنّة وذي المجاز . علىٰ أن سوق عكاظ كان أشهر تلك الأسواق وأوسعها فضلًا ، وأعلاها قدراً وصيتًا ، وأقواها أثراً في توحيد العربيَّة وتهذيبها ، وذلك لاعتبارات عديدة : أولها وأهمها موقعها ؛ حيث إنها كانت تقام في حمىٰ البيت العتيق ، والبلد الحرام ، علىٰ طريق السيل ، علىٰ مقربة من مكة المكرمة . وثانيها : الزمان ، حيث كانت تقام أول هلال ذي القعدة (أحد الأشهر الحرم) ، وتستمر حتىٰ العشرين منه . فجمعت بذلك بين شرف المكان ، وحرمة الزمان ، فكان يفد إليها زعماء العرب ، وكبراء القبائل ، وأُمراء القول للمتاجرة والمفاخرة ومفاداة الأسرىٰ ، وأداء الحج . وكان كل شريف ، في العادة ، إنما يحضر سوق ناحيته ، إلا عكاظًا ، فإنهم كانوا

يتوافدون عليها من كل حدب وصوب ، فهي متوجههم إلىٰ الحج في غضون الأشهر الحرم . وكان ذلك سرُّ قوتها ، وذيوع صيتها ، وسبب شهرتها . وكانوا قد نصَّبوا محكمين فصحاء بلغاء ، اتفقوا عليهم ، ونصبوا لهم سرادق ، وخضعوا لهم وارتضوا أحكامهم . وكان هؤلاء العباقرة يحكمون لمن وضح بيانه ، وفصح لسانه ، وشرفت معانيه ، وسلمت مقاصده .

٢ - أثر مكة وعمل قريش :

كان لموقع مكة المكرمة أثر بالغ في وحدة اللُّغة ونهضة العربيَّة . فقد كانت عند منتصف القرن السادس الميلادي ، قبلة للقوافل الآتية من تلقاء الجنوب ، تحمل السلع التواجر من الهند عن طريق اليمن السعيد ، فيشتريها المكيون ليبيعوها بدورهم في أسواق الشمال في الشام ، أويتجهوا بها صوب الشمال الغربي لتباع في مصر . وكانت قوافل مكة التجارية ، آمنة لحرمة البيت الحرام ، ومكانة قريش . فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة ، وعيرهم الدُّثر آمنين ، فينزلون الأسواق ، ويتجاوزون الآفاق ، فيستزيدون بسطة في العلم ، وقوة في الفهم ، وسعة في المال ، وخبرة ودراية بأمور الحياة .

ومكة فوق ذلك متجرة العرب ؛ كافة العرب ، ومثابة للناس وأمن ؛ يأتون إليها من كل فجٍّ عميق ، وعلىٰ كل ضامر رقيق ، ليقضوا مناسكهم ، ويشتروا حوائجهم ؛ مما تنتجه أو تجلبه . أما قريش أهلُها وأمراؤها ، فكانوا لمكانتهم من الحضارة ، وزعامتهم في الحج ، ورياستهم في عكاظ ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلىٰ اليمن ، ورحلة الصيف إلىٰ بلاد فارس وحوران ؛ كانوا أشدَّ الناس بالقبائل ارتباطاً ، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً . كانوا علىٰ صلات وثيقة بأهل الحبشة في الجنوب ، وبالفرس في الشرق ، وبالروم في الشمال . ثم إنهم كانوا علىٰ أثارة من علم بالكتب السماوية إذ كانوا علىٰ صلة باليهود في يثرب وما جاورها في أرض

خيبر وتيماء ، وكان بعضهم علىٰ معرفة وصلة بالنصارىٰ والنصرانية في نجران والشام والحيرة . فتهيأت لهم بذلك كل مستلزمات ثقافة الفكر واللِّسان ، ثم اتيحت لهم الفرصة كاملة لأن يسمعوا اللُّغات واللهجات المختلفة ، فتدبروا المعاني الجديدة المتآلفة ، والألفاظ المستحدثة والسالفة ، ثم اختاروا لغتهم من أفصح اللُّغات . فكانت ، ولا غرو ، أعذبها لفظـًا ، وأبلغها أسلوبـًا ، وأوسعها مادة . وأخذ الشعراء والخطباء يؤثرونها ويفضلونها علىٰ ما سواها . فنظموا بها أجمل الشعر ، وأروع الخطب ، وأدق المعاني . وما أن أشرقت علىٰ الكون أنوار الرسالة المحمدية ، حتىٰ كانت اللُّغة العربيَّة المضرية القرشية ، قد بلغت قمة نضجها وسنام مجدها ، لينزل بها القرآن الكريم ، وليُكتبُ لها الخلود والبقاء إلىٰ وقت الأجل المعلوم .

العربيَّة بعد نزول القرآن الكريم (عصر صدر الإسلام) :

كان نزول القرآن الكريم بالعربيَّة المضرية ، أي الفصحىٰ ، أهم حدث في مراحل تطورها ، حيث وحَّد لهجاتها المختلفة في لغة فصيحة واحدة ، قائمة في الأساس علىٰ معايير لهجة قريش . وأضاف إلىٰ معجمها ألفاظـًا كثيرة ، وأعطىٰ لألفاظ أخرىٰ دلالات جديدة ، كما ارتقىٰ ببلاغة التراكيب العربيَّة ، وفصاحة العبارة . فحملت العربيَّة رسالة الإسلام السماوية إلىٰ بني البشر كافة . وتهيأت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية ، لتصبح العربيَّة لغة العلم والفكر والأدب الأولىٰ في العالم ، ولعدة قرون . وفي هذا الشأن يقول شاهين (١٩٨٣م) : « لم تعرف الإنسانية علىٰ طول تاريخها ، لغة خلَّدها كتاب ، إلا اللُّغة العربيَّة ، وتلك معجزة القرآن أو إعجازه إذا ما أُخذ الإعجاز بمفهوم عام يلزم البشر جميعـًا ، ذلك أن المعهود في تاريخ الإنسانية أن اللُّغات تبقىٰ بقدر ما يتعاظم رصيدها أو مدخورها من الآثار الأدبية والعلمية ، التي ألفها النابهون من

أبنائها » (ص ٤٤) .

لقد حملت العربيَّة نصوص القرآن الكريم وآياته البينات ، وأحكامه الراسخات ، وتعاليمه السماوية ، وتشريعاته الربانية ، وعبَّرت عنها بلسان عربي مبين . واستطاعت من خلال انتشار الإسلام أن تبدأ العربيَّة زحفها جنوباً لتحل محل العربيَّة الجنوبية القديمة . ثم عبرت البحر الأحمر ، لتصل إلىٰ شرقي أفريقيا . واتجهت شمالًا لتحل محل الآرامية في بلاد الشام والعراق . ثم زحفت غربًا ، فحلت محل القبطية في مصر . وانتشرت مع الفتح الإسلامي في شمال أفريقيا ، لتخلف لهجات البربر . ثم انفتح أمامها الطريق لتصل إلىٰ بلاد السودان وغرب أفريقيا ، ثم عبر البحر المتوسط لتصبح لغة بلاد الأسبان ، وجزر البحر المتوسط .

وهنا لمسة حضارية بارعة ، يجب أن تسجل بماء من ذهب في حقّ الفاتحين المسلمين لتلك البلاد ، حيث إنهم لم يَسْعوا إلىٰ طمس لغات أهلها ، ولا إلىٰ تحقيرها . بل إن كثيراً من تلك اللُّغات استفادت من العربيَّة استفادة كبيرة ، حيث تبنت كثير من تلك اللُّغات الحرف العربي ، وسيلة لكتابتها ، وأثرت معجمها بمفردات عربية عديدة . وإجمالًا فقد كان أثر العربيَّة عميقًا جداً في لغات الشعوب الإسلامية . وتجد تأثيرها واضحًا جداً في الفارسية والأردية والتركية والبشتونية ولغة الملايو واللُّغات الأفريقية ، حتىٰ أصبح من غير الممكن الآن ، معرفة لغة أي بلد إسلامي وأدبه ومناحي تفكيره معرفة جيدة ، دون الإحاطة الشاملة بالعربيَّة .

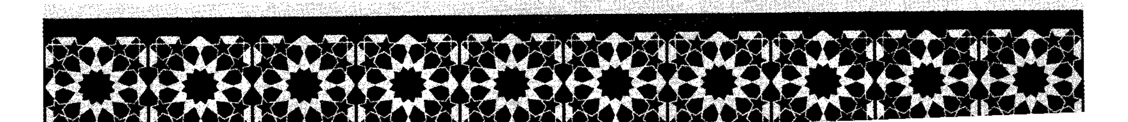
ومما يجدر ذكره هنا ، أن العربيَّة وبعد عبورها البحر المتوسط لتصبح لغة لبلاد الأسبان ، كانت مشربًا عذبًا نهل منه كثير من أهل الغرب ، واستعاروا من العربيَّة مفردات شتىٰ ، زينوا بها صدور معاجمهم ، وأغنوا بها لغاتهم النامية . فلا

تكاد تخلو لغة أوربية اليوم ، من ألفاظ عربية محضة ، خصوصاً تلك التي تتعلق بالعلوم والفنون والآداب .

العربيَّة في العصر الأموي :

انداحت العربيَّة مع الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي ، وأصبحت اللُّغة الأولىٰ لشعوب إسلامية عديدة ، بعد أن دخل أهل الأمصار من غير العرب في دين الله أفواجاً . وفي هذه الحقبة الزمنية ، اضمحلت السليقة العربيَّة نسبياً ، وظهر اللَّحن علىٰ الألسنة ، وخيف علىٰ القرآن الكريم ؛ فكانت بداية ظهور علم اللُّغة ، والذي كان هدفه المحافظة علىٰ لغة القرآن وحمايتها من الانحراف والاعوجاج ، الذي بدأ في الظهور علىٰ ألسنة المولدين . فبدأت المسيرة بوضع النقاط علىٰ الحروف ؛ إذ إنه وحتىٰ ذلك الحين ، كانت العربيَّة تكتب غير معجمة (غير منقوطة) . واستمر هذا الحال حتىٰ منتصف القرن الأول الهجري ، كما ظلت تكتب غير مشكولة بالحركات والسكنات ، وحينئذ توصل أبو الأسود الدؤلي إلىٰ طريقة لضبط كلمات المصحف ، فوضع بلون مختلف من المداد نقطة فوق الحرف للدلالة علىٰ الفتحة ، ونقطة تحته للدلالة علىٰ الكسرة ، ونقطة عن شماله للدلالة علىٰ الضمة ، ونقطتين فوقه أو تحته أو عن شماله للدلالة علىٰ التنوين . وترك الحرف الساكن خالياً من النقط ، إلا أن هذا الضبط لم يكن يستعمل إلا في المصحف . (الزيات ، ٢٠٠١)

وفي القرن الثاني الهجري ، وضع الخليل بن أحمد طريقة أخرىٰ لضبط المصحف . أما إِعجام الحروف أي (نقطها) ، فقد تم في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان . وقام به نصر بن عاصم الليثي ، ويحيىٰ بن يعمر العدواني ، وهما اللذان أعادا ترتيب الحروف هجائياً حسب ما هو شائع اليوم ، بدلًا من الترتيب القديم (أبجد ، هوز) .



وفي حوالي الثلث الأخير من القرن الأول الهجري ، تبوأت اللُّغة العربيَّة مكانتها لغة عالمية ، بعد أن انتشر الإسلام في الأمصار المجاورة للجزيرة العربيَّة . ففي تلك الأمصار ، أصبحت العربيَّة لغة الدين والعقيدة ، ولغة الدولة الرسمية والسيادة . كما أصبح استخدامها دليلًا علىٰ الرقي والمكانة الاجتماعية . وظلت لغة البادية ، حتىٰ القرن الثاني الهجري ، الحُجَّة عند كل اختلاف . وكان من دواعي الفخر للعرب ، التحدث بالعربيَّة كأحد أبناء البادية . أما سكان الأمصار الإسلامية ، فقد بدأت صلتهم بلغاتهم الأم تضعف شيئًا فشيئًا ، وأخذوا يتكلمون العربيَّة ، ولكنها عربية مولدة متأثرة باللُّغات الأم بمستويات متفاوتة . وقد كانت منطقة الشام والهلال الخصيب ، أول المناطق تعرُّبًا . ويلاحظ اختلاف لهجات أهل الأمصار العربيَّة ، باختلاف القبائل الوافدة إليها . ومن هنا كان اختلاف لهجات أهل الكوفة والبصرة والشام والعراق ومصر ، بعضها عن بعض . ومع نهايات العهد الأموي ، بدأت العربيَّة ترتاد آفاق التأليف العلمي ، بعد أن كان تراثها حكراً علىٰ شعرٍ وأمثالٍ تروىٰ علىٰ ألسنة الرواة .

العربيَّة في العصر العباسي :

العصر العباسي هو عصر النهضة العلمية ، وازدهار الحضارة الإسلامية ، علىٰ كافة الأصعدة في أمصار المشرق الإسلامي وفي مغربه ، وفي الأندلس ، وبلاد فارس . وقد بدأت تلك المرحلة بحركة ترجمة واسعة ، وبصورة خاصة من المعارف اليونانية والفارسية . فاستوعبت العربيَّة النتاج الفكري لتلك الشعوب وحضاراتها بمرونة عالية . ومن ثم دخل علماء الأمة مرحلة التأليف والابتكار ، وبلسان عربي مبين . وحينئذ لم يعد معجم البادية بكافٍ وحده للتعبير عن كل مفاهيم تلك الحضارات . فحمل العلماء علىٰ كاهلهم مهمة تعريب مصطلحات غير عربية ، وتوليد صيغ لمصطلحات أخرىٰ ، وحمَّلوا صيغًا عربية دلالات

جديدة ، للتعبير عن معانٍ متجددة ، مستفيدين مما في العربيَّة من قدرات علىٰ الاشتقاق والنحت والتعريب . وبهذه الطريقة استطاعت العربيَّة التعبير ، وبكفاءة عالية ، عن أدق المعاني والمفاهيم الواردة في علوم تلك الحضارات الراسخة وآدابها الراقية . ومنذ بداية هذا العصر أيضاً ، ظهر التأليف في مجال علوم اللُّغة وفنون تعليم العربيَّة . فبدأت العربيَّة مرحلة تعليمية بطريق الكتاب والتعلم بدلًا عن طريق السليقة والتلقين الشفهي ، والاكتساب كفاحاً من البيئة . وكان هذا هو الأساس الذي قامت عليه علوم العربيَّة ، كالنحو والصرف والأصوات ، وفقه اللُّغة والبلاغة والمعاجم . وتطورت هذه العلوم تطوراً عظيماً بدافع الحفاظ علىٰ القرآن الكريم .

وهنا يقرر خليفة (٢٠٠٣م) ، أنه كان من الطبيعي أن يستقطب القرآن الكريم الدارسين من حوله ، وأن تنشأ العلوم المختلفة من لغوية ونحوية وبلاغية وتأريخية وفلكية في خدمة النص القرآني . ودخلت اللُّغة العربيَّة باعتبارها لغة الدولة ، جميع ميادين الحياة والمعارف الإنسانية ، وما لبثت أن أصبحت اللُّغة الأولىٰ في العالم . فانطلقت العقول المبدعة لمواجهة هذه التحديات الجسام للغة العربيَّة ، فجُمعت العربيَّة من أفواه أهل الاحتجاج من القبائل العربيَّة . ووُضعت المعاجم بأصنافها ، وأُقيمت الدراسات النحوية والصرفية واللُّغوية والأسلوبية والصوتية . وكان المحرك الرئيس لهذه الدراسات جميعها ، حماية القرآن الكريم من التشويه والتحريف ، وخدمة لتفسير معانيه .

وقد استمرت هذه الحال لعدة قرون ، من خلال مراكز الإشعاع الثقافي في بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة والقرويين بفاس ، إلىٰ جانب القيروان وتلمسان وبجاية . ويقف جامع القرويين بفاس علماً شامخاً ، وصرحاً ضخماً لأقدم جامعة في العالم ، لم يتوقف فيها التدريس منذ أكثر من ألف ومائتي

عام . وأصبح المغرب العربي في عهد الموحدين ، في القرنين السادس والسابع الهجريين مركزاً للإشعاع الثقافي والعلمي ، متجاوزاً تأثيره حدود العالم الإسلامي إلىٰ العالم الأوربي والمسيحي .

ولكن بعيد منتصف القرن السابع الهجري ، تعرضت الدولة الإسلامية لكثير من الفتن والمحن التي أوهنت سلطانها ، وفرقت شملها ، وأضعفت كيانها ومكانها .

حيث تقسمت الدولة إلىٰ دويلات ، وغرقت الأمة في ظلمات الفرقة والهزائم ، والنعرات الشعوبية ، وما سبق ذلك من استيلاء الأعاجم علىٰ سدة الحكم وتألقهم العسكري والسياسي ، وما تبع ذلك من سيادة اللُّغات الأعجمية ، وإقصاء العربيَّة من مجالاتها الحيوية في الإدارة والسياسة والحياة العامة . وأصبحت الشرائح الحاكمة وحواشيها تحتقر النطق بالعربيَّة ، وتعده من المعايب . والناس بطبيعتهم سُراع إلىٰ الدنيا ، كما يقول ابن خلدون ، يتسابقون إلىٰ التقرب من حكامهم وساستهم . « فتنافسوا في تصانيف الترجمات في اللُّغة الأعجمية ، وتفاصحوا في غير العربيَّة » (المقدمة١/ ٧٧) . وحينئذ تراجعت العربيَّة إلىٰ حصونها التي لا تقهر ، في المساجد والخلاوي ، وفي حلقات الذكر ودور تعليم القرآن الكريم ؛ فبقيت لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثابتة في نحوها وصرفها ولفظها ونظمها بفضل الله ورعايته . فالقرآن الكريم هو الذي حفظ العربيَّة ، وكفل لها البقاء والخلود . وبالتالي حفظ وجود الأمة العربيَّة . أما العربيَّة لغة الدولة والسياسة ، فقد خضعت في انتشارها وانحسارها ، وفي تراجعها وفي ازدهارها ، إلىٰ أحوال الدولة الإسلامية عامة ، وما يصدق علىٰ العمران البشري من قوانين القوة والضعف ، والازدهار والانحدار ، والتخلف العلمي والحضاري .

ويوضح ابن خلدون حالات التمازج بين الدين ولغة الدولة ، واستعمالها في مختلف شؤون الحياة قائلًا : « وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللِّسان العربي لسانهم ، حتىٰ رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة » (المقدمة ١/ ٤٨) . ثم تحدث ابن خلدون عما تلي ذلك من فساد اللِّسان العربي في بعض أحكامه ، وتغيّر أواخره نتيجة مخالطة هذه الشعوب المختلفة ، ونشأة ما سماه لسانًا حضريًا في جميع بلدان العالم الإسلامي ، منسوبًا إلىٰ أهل الحواضر والأمصار . ويقول : « ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقة بعدهم المشرق ، وزناته والبربر بالمغرب ، وصار لهم الملك والاستيلاء علىٰ جميع الممالك الإسلامية ، فسد اللِّسان العربي لذلك ، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة ، اللذين بهما حُفظ الدين ، وسار ذلك مرجحًا لبقاء العربيَّة المُضرَية في الشعر والكلام إلا قليلًا بالأمصار » (المقدمة ١/ ٤٩) .

ثم يتحول ابن خلدون إلىٰ الحديث عن وضع اللُّغة العربيَّة بعد غزو التتار والمغول ، وسقوط عاصمة الدولة الإسلامية بغداد . فيقول : « فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ، ولم يكونوا علىٰ دين الإسلام ، ذهب ذلك المرجح ، وفسدت العربيَّة ، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند ، وما وراء النهرين ، وبلاد الشمال وبلاد الروم . وذهبت أساليب اللُّغة العربيَّة من الشعر والكلام ، إلا قليلًا يقع تعليمه صناعيًا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب ، وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالىٰ لذلك . وربما بقيت العربيَّة المضرية بمصر والشام والأندلس وبالمغرب ، لبقاء الدين طالبًا لها ، فانحفظت بعض الشيء . وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين ، حتىٰ إن كُتب العلوم صارت تكتب باللِّسان العجمي ، وكذا

تدريسه في المجالس » (المقدمة ، ١/ ٢٤٠) .

وفي نهاية القرن التاسع الهجري ، سقطت غرناطة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) ، آخر معاقل الدولة الإسلامية في الأندلس ، وآخر معالم الحضارة العربيَّة الإسلامية فيها . واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية ، ومحاكم التفتيش سيئة الذكر ، أن تجتث جذور حضارة عربية إسلامية أصيلة ، دامت أكثر من ثمانية قرون (خليفة ٢٠٠٣م) .

عمومًا فإن طموحات الفرنجة الصليبيين ، كما يذكر خليفة (٢٠٠٣) ، لم تقف عند هذا الحد ، بل قادتهم أطماعهم إلىٰ العودة مرة أخرىٰ إلىٰ الشمال الأفريقي . ومن ثَمَّ انطلقوا إلىٰ مهاجمة مقدسات المسلمين في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة . وفي سنة ١٩٢٢م ، استطاعت حملة صليبية بحرية احتلال بيروت . وفي هذا الأثناء ، كان العثمانيون قد دخلوا بلاد الشام ، واستطاع والي الشام التركي المسلم ، أن يخرج الفرنجة من بيروت بعد أن احتلوها لعدة أيام . وفي فترة حكم العثمانيين الذي دام أربعة قرون ، أصبحت اللُّغة التركية هي لغة الدولة الرسمية ، وانحسرت العربيَّة ، وأبعدت عن مجالاتها الحيوية في مؤسسات الدولة والسياسة والعلوم والثقافة . إلا أن العربيَّة ظلت مرعيَّة محترمة حتىٰ من قبل الدولة ، -الناطق قادتها بغير العربيَّة- لغة للقرآن الكريم والفقه والتفسير والعلوم الإسلامية .

اللُّغة العربيَّة في العصر الحديث :

شكل القرن السادس عشر الميلادي مرحلة فارقة في تاريخ الحضارة الإنسانية . فقد شهد هذا القرن والذي تلاه بداية نهضة الحضارة الأوربية الحديثة ، وبروز ما يسمىٰ بعصر النهضة ، أو عصر التنوير ، حيث نهلت أوربا الخارجة من العصور المظلمة ، كثيراً من المعارف العربيَّة الإسلامية ، والتي أشرقت أنوارها

في بلاد الأندلس . وفي هذا القرن ذاته ، أذنت شمس الحضارة الإسلامية العربيَّة بالغروب ، حيث ضعف شأن المسلمين والعرب ، وتعرضت بلادهم للهجمات الاستعمارية الأوربية ، التي خرجت أساطيلها ، وفي منافسة محمومة ، وحملات مسعورة ، تغزو العالم : كل العالم ، بحثاً عن أرض اللّبن والعسل ، والمَّن والسلوىٰ . ولم تكن ديار المسلمين والعرب ، الذين ضعف شأنهم وتضعضع سلطانهم ، ببعيدة عن تلك النفوس الشبقة ، فهجموا عليها هجمة شرسة ، فأخضعوها لسلطانهم وجبروتهم ، ونهبوا خيراتها ، وأذلوا أهلها ، واحتقروا حضارتهم . ولكنهم أيضاً ظلوا يتحسبون لاحتمال نهضة الأمة مرة أخرىٰ ، ووضعوا نصب أعينهم ما يمكن أن يكون سبباً لتوحيد الأمة العربيَّة ونهضتها في مرحلة لاحقة . فأدركوا أن أفضل وسيلة لسد ذلك الطريق ، وهدم تماسك المسلمين والعرب ، هي هدم وحدة الدّين واللُّغة . وقد جربوا لإنجاز هذه المهمة أساليب شتىٰ ، وطرائق ماكرة ، فأثاروا النعرات العنصرية والشعوبية بين المسلمين . وحاولوا هدم وحدة اللُّغة بتشجيع اللَّهجات العامية المحلية ، وإحلالها محل العربيَّة الفصيحة . وبدأت تلك الدعوة في ثمانينات القرن الثامن عشر الميلادي ، فأخذ دعاتهم يروِّجون لفكرة كتابة العلوم باللُّغة التي يتكلمها عامة الناس ، وطفق بعضهم يضع قواعد للهجة أبناء القاهرة ، واقترح آخرون كتابة العربيَّة الفصيحة بالحروف اللاتينية . إلا أنّ كل تلك المحاولات باءت بالفشل ، وأخفقت إخفاقاً ذريعاً . ولكن لم تمض تلك الضربات دون ترك آثارٍ سالبة علىٰ اللُّغة العربيَّة ، وخصوصاً في دول المغرب العربي ، والتي مُنع فيها استخدام العربيَّة في المعاملات الرسمية ، بأوامر جمهورية ، وفرمانات صادرة عن حكومة الجمهورية الفرنسية وولاتها وحكامها في بلاد المغرب . (انظر مقال موريس لوجلي ، نص دورية ليوطي ، ونص دورية وليام بونتي في كتاب

الفرنكفونية والسياسة اللُّغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب ترجمة الدكتور عبد المعطىٰ الدغيري، ١٩٩٣م).

أما في بلاد العالم الإسلامي الأخرىٰ، فقد حاول الاستعمار الانجليزي، فرض سيطرته وثقافته علىٰ المجتمعات الاسلامية والعربيَّة، ولكن بصورة ناعمة ماكرة، وبدرجة أقل حدة من رصفائهم الفرنسيين. حيث فُرضت اللُّغة الإنجليزيَّة لغةً رسمية للدولة والمعاملات الرسمية والقانونية. وأهم من ذلك، كانت اللُّغة الإنجليزيَّة هي لغة التعليم، ووسيلة لدراسة العلوم والفنون الحديثة في المدارس والجامعات، التي أنشأها الاستعمار الإنجليزي علىٰ غرار المدارس والجامعات في بلاده. وأزيحت العربيَّة عن كافة التعاملات الجادة، وسعىٰ المستعمر لتهميشها، وركَّز علىٰ اللهجات المحلية الضيقة إمعاناً في إضعاف العربيَّة الفصيحة، وتقليلًا من شأنها.

ومن المؤسف حقاً، أن استمرت هذه السياسة اللُّغوية في كثير من بلاد العالم العربي الإسلامي، حتىٰ بعد رحيل الاستعمار. فقد ظلت بعض النخب التي تربت علىٰ يد المستعمرين مخلصة وفية، ليس لوطنها ولا لغتها، بل للمستعمر الغاشم وثقافته ولغته. وظلت مصرَّة علىٰ تبني لغة الاستعمار -الإنجليزيَّة كانت أو الفرنسية- لغة للتدريس والبحث العلمي في الجامعات والمعاهد العليا. وظلت تنفق من أموال هذه الشعوب المغلوبة علىٰ أمرها، ملايين الدولارات سنوياً لتعليم اللُّغة الأجنبية، وتضن بالنذر اليسير لتعليم اللُّغة الأم.

ويعتقد الباحث أنه ربما حان الوقت الآن، أن يتساءل الفرد عن جدوىٰ هذه السياسات اللُّغوية المتبعة في معظم أقطار الوطن العربي، التي مازالت تفرض لغات أعجمية أجنبية للتدريس والبحث العلمي في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي، والتي تعمل بوسائل عديدة علىٰ إقصاء العربيَّة عن مجالاتها العلمية

والحيوية ، متذرعة بحجج واهية لا تصمد أمام المنطق الجاد .

لقد مضي علىٰ بعض جامعات العالم العربي قرابة القرن من الزمان ، وهي تتخذ من الإنجليزيَّة أو الفرنسية لغة للتدريس والبحث العلمي . وهنا يجد الباحث نفسه مضطراً لأن يكرر أسئلة مهمة سألها من قبل الدكتور عبدالكريم خليفة (٢٠٠٣) رئيس مجمع اللُّغة العربيَّة الأردني حيث يقول : « ماذا أضافت هذه الجامعات والمؤسسات العلمية التي تتخذ من اللُّغات الأجنبية لغة للتدريس الجامعي والبحث العلمي؟ ماذا أضافت من جديد إلىٰ المعرفة العلمية الإنسانية؟ ماذا أبدعت من نظريات؟ ماذا اخترعت من تقنيات؟ بل ما هي نسبة مساهمتها الأصيلة في الفكر العلمي العالمي؟ » (ص١٣) وإن كانت الإجابة عن هذه الأسئلة تبدو بديهية ، فإنها تؤكد حقيقة واحدة : وهي أنه لا سبيل لأن تحقق هذه الأمة إبداعًا علميًا ، أو مشاركة حقيقة في بناء المعرفة الإنسانية ، في ظروف تغييب اللُّغة الأم ، لغةً للتعليم والتعلم والبحث العلمي ، ولغةً للمعاملات الرسمية والإعلام .

ففي خضم هذا الصراع الذي تخوضه الأمة العربيَّة والإسلامية ، وكذلك لغتها التي تمثل جوهر وجودها ونسيج ضميرها الحي عقيدةً وتراثًا وتأريخًا ، فإن الأمل معقود علىٰ مؤسسات كما يقول خليفة (٢٠٠٣م) تتفتح آمالها علىٰ العربيَّة لغة علم وفكر وحضارة . ومن ضمن هذه المؤسسات المجامع اللُّغوية واتحاد الجامعات العربيَّة ، والاتحاد العلمي العربي ، وغيرها من المؤسسات العربيَّة ، والهيئات والمنظمات المتخصصة في التوثيق والإعلام . ثم إن التوجه الأصيل للتعريب في كثير من البلاد العربيَّة ، والرغبة الجادة في إرساء أنماط تعليمية في كثير من بلاد الوطن العربي ، مثل سوريا والعراق والسودان ، والإمكانات المتاحة ، تؤذن بانبلاج فجر جديد يكون فيه للعربية سيادة وريادة في

أوطانها . عمومـاً فإن العربيَّة الفصيحة اليوم هي لغة الكتابة ، ولغة الخطاب العام ، والحديث في المحافل الأدبية والعلمية والسياسية ، وفي دور الإذاعة والتلفاز في كافة دول العالم العربي . بل وتستخدم لغةً في أجهزة الإعلام غير العربيَّة ، التي توجه بثها للعالم العربي . وتأتي علىٰ طليعة تلك المؤسسات الإعلامية ، هيئة الإذاعة البريطانية العريقة ، وتلفازها الواسع الانتشار ، وراديو صوت أمريكا ، وراديو مونتكارلو ، وراديو الصين ، وراديو ألمانيا ، علىٰ سبيل المثال لا الحصر .

والعربيَّة اليوم هي إحدىٰ لغات الأمم المتحدة الست ، حيث تستخدم لغة للمخاطبة والمكاتبة في محافل هذه المؤسسة الدولية . وقد فعلت جامعة الدول العربيَّة خيرا ، بإقامتها للمركز المتقدم للمعلومات والتوثيق المحوسب ، والذي يسعىٰ جاهداً لحوسبة العربيَّة وتعميم نظم وبرامج حاسوبية ، تستوعب الإمكانات اللامحدودة للغة العربيَّة ، وتقديمها للإنسانية في إطار يحفظ عليها بريقها وألقها ، وقدرتها الفائقة في التعبير عما في نفس المتحدث ، والتأثير في ذهنية المتلقي ، دون تكلف في الألفاظ ، ولا غموض في المعنىٰ . والعربيَّة لها سحرٌ عجيب إذا ما صدرت عمن يجيدها ويحسن اختيار ألفاظها ، ونظم مفرداتها ، فيصيغها درراً غوالي يشنف بها آذان سامعيه ، ويقرُّ بها أعين قارئيه .

خلاصـــة :

العربيَّة لغة قد ينطبق عليها ما ينطبق علىٰ سائر اللُّغات الإنسانية من قواعد النمو والتطور ، وقوانين التوحد والتفرق والاضمحلال ، أو حتىٰ الموت . فقد كان هذا أمرها وشأنها منذ نشأتها الباكرة في جزيرة العرب ، حتىٰ اختارها الله (عزَّ وجلَّ) ، لغة للتنزيل ، حيث يُعد هذا الحدث الجليل ، نقطة تحول في تاريخ العربيَّة ، فتوجهت العربيَّة الفصحىٰ نحو التوحيد والخلود ، بخلود هذا القرآن

الكريم ، والموجه للخلق أجمعين ، بلسان عربي مبين . فأصبحت لغة ثابتة من حيث نحوها وصرفها ونطقها . وهي لغة نامية ومتطورة من حيث أساليبها ومفرداتها ودلالاتها . ثم انداحت العربيَّة مع تعاليم الرسالة الإسلامية ، لتصبح لسانًا لكل المسلمين ، علىٰ اختلاف عناصرهم وألوانهم وألسنتهم ، لتحقق أعلىٰ مستوىٰ من مستويات التوحد والانصهار والمساواة في تأريخ البشرية ، شعارها في ذلك « لا فضل لعربي علىٰ أعجمي إلا بالتقوىٰ » . ثم يحدد رسول الإنسانية ، محمد (عليه الصلاة والسلام) معيار الانتماء لهذه اللُّغة بحديث موجز صريح : « إنما العربيَّة اللِّسان » . (رواه أبوسلمة : حققه الألباني في السلسلة : رقم ٩٢٩) .

وفي مدىٰ فترة زمنية محدودة جداً بعد ظهور الإسلام ، أصبحت العربيَّة الفصحىٰ لغة العقيدة ، ولغة الدولة ، ولغة الحياة . وفي مرحلة تالية ، أصبحت لغة العلم والمعرفة ، حيث استوعبت جُلَّ علوم السابقين ، وذلك من خلال حركة الترجمة الواسعة في العصرين الأموي والعباسي . ثم انتقلت بعد ذلك من مرحلة الترجمة والنقل والتعريب ، إلىٰ مرحلة التأليف والإبداع في كافة مناحي العلوم والمعارف الإنسانية . واستمر الحال كذلك لقرون عديدة ، كانت فيها العربيَّة الفصحىٰ ، هي اللُّغة العالمية الأولىٰ ؛ حيث كانت لغة الأدب والفلسفة ، والطب والهندسة ، والفلك والرياضيات والكيمياء . تشهد علىٰ ذلك مؤلفات الكندي ، وابن سيناء ، والبيروني ، والفارابي ، وابن رشد وغيرهم ، من أعلام الفكر العربي الإسلامي الإنساني .

ثم كانت حقبة من الدهر ، تعرضت فيها الأمة العربيَّة والإسلامية إلىٰ فتن عظيمة ، ومحن أليمة ، أرهقت كاهل الأمة ، وشتت شملها ، وأضعفت كيانها الثقافي والعلمي ، حتىٰ تراجعت الأمة بأكملها عن كافة مواقعها الريادية والقيادية ، وخضعت أمصار العالم العربي والإسلامي بالجملة إلىٰ سلطان

المستعمر الغربي الغاشم ، الذي توجه سياسته الكنسية الصليبية ، والصهيونية العالمية ، والتي صوبت سهامها المسمومة ، لضرب الأمة في مقتل ، أي إلىٰ لغتها ولسان حالها ومقالها . ولكن العناية الإلهية شملت اللُّغة العربيَّة فحفظتها بما حفظت به القرآن الكريم . فخرجت العربيَّة من صراعها مع المستعمر ، وبرعاية ربانية كريمة ، سليمة معافاة لم يمسسها قرح ولا سوء . وظلت علىٰ الرغم من حالة التمزق والانقسام السياسي الذي فُرض علىٰ الأمة ؛ ظلت هي العروة الجامعة لأبناء الوطن العربي ، علىٰ اختلاف أوطانهم وتوجهاتهم . وظلت عند حسن ظن بنيها المخلصين بها ، وفيَّة نقيَّة ، معطاءة ، قادرة علىٰ استيعاب كل جديد ، والتعبير عنه تعبيراً واضحاً ودقيقاً . ويظل الأمل معقوداً في أن تستعيد العربيَّة الفصيحة مكانها ، لتكون اللُّغة المستخدمة في جميع مرافق الدولة العربيَّة الحديثة ، ومؤسساتها العلمية والثقافية والاجتماعية ، استكمالًا لسيادة الأمة ، وتحررها وانعتاقها من حالة التبعية الفكرية المشينة ، والتأخر العلمي والتردي الثقافي ، وصولًا واستشرافًا لآفاق التقدم والإبداع ، والمشاركة الأصيلة في بناء صرح الحضارة الإنسانية العالمية المعاصرة .

تاريخ اللُّغة الإنجليزيَّة

مدخل :

اللُّغة الإنجليزيَّة هي إحدىٰ اللُّغات الهندوأوربية . والعائلة الهندوأوربية عائلة هلامية تضم طيفاً واسعاً من اللُّغات الأوربية والآسيوية المتحدثة في عالم اليوم . وتضم هذه العائلة مجموعة من الفروع الرئيسة والتي تشمل :

(١) اللُّغة اللاتينية واللُّغات الرومانسية المتفرعة منها مثل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية)

(٢) اللُّغات الجرمانية مثل (الإنجليزيَّة والألمانية والسويدية)

(٣) اللُّغات الهندية - الايرانية ، مثل (الهندية ، والأوردو ، والسنسكرتية)

(٤) اللُّغات البلطيقية مثل (اللتوانية واللتفانية)

(٥) اللُّغات السلتية مثل (لغة الولش والإيرلندية والقيلية أي لغة الاسكتلنديين)

(٦) اللُّغة الإغريقية .

ويزعم بعض الباحثين الأوربيين وعلىٰ رأسهم سير وليام جونز (١٧٨٦) ، أن هذه اللُّغات جميعاً تنتمي إلىٰ أصل مشترك ، وسموها مجموعات اللُّغات الهندية الأوربية ، نظراً لوجودها وامتدادها في قارتي آسيا وأوربا . واستدلوا علىٰ ذلك بوجود مجموعة من الكلمات المتشابهة في هذه اللُّغات مثل كلمة Father في الإنجليزيَّة وهي تشبه كلمة Vater في الألمانية وPater في اللُّغة اللاتينية و Piter في اللُّغة السنسكرتية . ويرىٰ الباحث أنّ هذا الاستدلال ضعيف جداً ، ولا يقدم

دليلًا مقنعًا علىٰ أن هذه اللُّغات تنتمي لأصل واحد ؛ حيث إن الكلمات الدالة علىٰ الأب والأم هي كلمات متشابهة في كثير من اللُّغات . ومن المعتاد تكرار الأصوات الشفوية ، مثل الباء والفاء والميم ، في تركيب المفردات الدالة علىٰ الأب والأم في كثير من لغات الدنيا . وقد ثبت في علم اللُّغة التطبيقي الحديث ، أن هذه هي أول الأصوات التي ينطق بها الأطفال - كل الأطفال- دون تمييز . وإذا ما تم الأخذ بهذا الدليل علىٰ أنه دلالة علىٰ انبثاق اللُّغات الهندوأوربية من أصل واحد ، فمن الأولىٰ أن يؤخذ نفس هذا الدليل للقول بأن لغات الكون كلها تنتمي لأصل واحد . وهذا هو الأصح ، وهو الأرجح عند الباحث .

مكونات اللُّغة الإنجليزيَّة :

تكونت اللُّغة الإنجليزيَّة ومنذ نشأتها الأولىٰ ، في الجزر البريطانية ، من أخلاط عديدة من اللُّغات واللهجات المختلفة . فكانت بداية هذه اللُّغة في منتصف القرن الخامس الميلادي مع وصول ثلاث مجموعات جرمانية ، غزت الجزر البريطانية واستقرت فيها .

هذه المجموعات هي مجموعة القبائل الساكسونية ، ومجموعة قبائل الانجلز ، وقبائل الجوتس الذين عبروا بحر الشمال من المناطق المعروفة اليوم بالدنمارك وشمال ألمانيا ، واستوطنوا في وسط وجنوب الجزر البريطانية (Holmes، 1936) .

وفي ذلك الوقت ، كان يسكن الجزر البريطانية مجموعة من القبائل البدائية ، تتحدث اللُّغة السلتية ، وهؤلاء هم سكان البلاد الأصليين الذين أُجبروا علىٰ مغادرة ديارهم في وسط وجنوب بريطانيا ، ونزحوا إلىٰ أقاصي شمال البلاد وغربها ، وسكنوا في استكتلندا وويلز ، واحتموا بجبالها من سطوة رجال القبائل الجرمانية الوثنية الغازية ، الذين نهبوا خيرات السكان الاصليين من مجموعات

القبائل السلتية ، وأخرجوهم من ديارهم ، واستعبدوا من بقي منهم ولم يتمكن من الفرار ، وسخروهم لفلاحة الأرض ورعي المواشي . أما الذين هربوا من السكان الأصليين ، ولجأوا إلىٰ الهوامش والمرتفعات البريطانية الغربية ، فسموهم الولش (Welsh) . ومن المفارقات أن هذه الكلمة هي كلمة جرمانية تعني الغرباء (Holmes ، 1986).

أما مجموعات الساكسون والانجلز والجوتز ، أي مجموعات القبائل الغازية ، فقد استوطن افرادها رسمياً في وسط وجنوب البلاد ، وامتلكوا سهولها الغنية ، واستغلوا مروجها الخضراء ، وأقاموا مدنهم وقراهم ، وربطوا بينها بطرق معبدة ، وقامت علىٰ أثر ذلك ممالك ودويلات . وكانت لكل مملكة أو دويلة نظم إدارية خاصة ، ولغة أو لهجة مميزة . ومن هنا كانت بداية ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، والتي تكونت من أربع لهجات أساسية : هي لهجة شمال أمبريا في شمال انجلترا ، والميرسية في الوسط ، والساكسونية في جنوب البلاد ، والكنتية في الجنوب الغربي (Wells، 1987) .

وفي القرن التاسع الميلادي تعرضت البلاد لموجة جديدة من الغزوات ، قامت بها مجموعة من قبائل الفايكنج ، وكان الغزاة يسمون برجال الشمال (Norse) وهم محاربون أشداء ، امتهنوا القرصنة والنهب والسلب ، حتىٰ أطلقت عليهم لفظة (Vendals) ، وهي كلمة جرمانية تعني المخربين . وتنحدر هذه القبائل من مجموعة الشعوب الجرمانية الشمالية المقيمة في منطقة الجزر الاسكندنافية والدنمارك . واستمر هؤلاء في هجماتهم علىٰ الجزر البريطانية حتىٰ القرن الحادي عشر ، حيث تمكنوا من بسط سلطانهم علىٰ أغلب الجزر البريطانية ، وخضعت معظم أجزائها إلىٰ ملك الدنمارك المعروف بالملك كانوت (Wells، 1982) .

وكان للغة هؤلاء الأقوام ، أثر كبير في اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، خصوصاً علىٰ المستوىٰ الصرفي والنحوي ، حيث حذف من الأفعال علامات التأنيث ، وعلامات الإعراب من الفاعل والمفعول ، وأصبحت اللُّغة تتكون من لهجات عامية تعتمد في تراكيبها علىٰ الترتيب . فالاسم المذكور أولًا هو الفاعل ، والذي يأتي بعده هو المفعول . ثم اختفىٰ التطابق بين الصفة والموصوف من حيث التذكير والتأنيث والإفراد والجمع والتثنية . ولزمت الصفة صيغة الإفراد فحسب ، وبقيت هذه التأثيرات في بنية اللُّغة الإنجليزيَّة حتىٰ يومنا هذا .

ثم تأثرت اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، في مرحلة لاحقة ، باللُّغة اللاتينية والإغريقية ، بعد أن اعتنقت بعض الممالك الناشئة الديانة المسيحية . وفي هذه المرحلة دخلت مفردات عديدة من اللاتينية والأغريقية إلىٰ قاموس الإنجليزيَّة القديمة . وهي في أغلبها مفردات دينية ، وعبارات لم تكن مألوفة لدىٰ القبائل الجرمانية الوثنية ، وذلك مثل الكلمات المعبرة عن الوظائف الكنسية ، والجنَّة ، والملائكة ، والصلاة والعبادات الأخرىٰ .

وهكذا تكونت اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، من مجموعة من اللُّغات واللهجات المختلفة . واستمر هذا التمازج والاختلاط بين هذه اللُّغات لعدة قرون ، و ظهرت لأول مرة نماذج مكتوبة لهذه اللُّغة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . وكانت هذه النماذج تستخدم الحروف الرونية (Ronic letters) ، وتعبر عن فوارق واختلافات عظيمة في لهجات الأقاليم المختلفة من حيث أصواتها ومفرداتها وتراكيبها . وتتجلىٰ هذه الظاهرة في بعض الآثار المتناثرة النادرة جداً والمتمثلة في قصيدة قديمة تسمىٰ (Beowulf) وهي قصيدة مجهولة المؤلف .

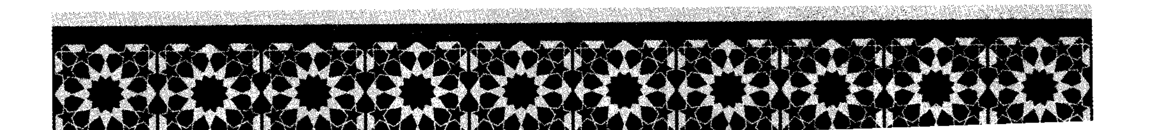
ورغم أن بعض المؤرخين مثل Wells (1982) يرىٰ أن هذا الأثر المذكور

المتمثل في قصيدة (Beowulf) قد تعرض لتعديلات عديدة في مراحل تاريخية لاحقة ، إلا أن اللُّغة المكتوبة بها تلك القصيدة الفلكولورية ، تبدو مختلفة تماماً عن اللُّغة الإنجليزيَّة المعاصرة . انظر نص القصيدة أدناه :

on heahstede husa selest . "
Weard maþelode ،ðær on wicge sæt ،
ombeht unforht : "æghwæþres sceal
scearp scyldwiga gescad witan ،
worda ond worca ،se þe wel þenceð .

Ic þæt gehyre ،þæt þis is hold weorod
frean Scyldinga . Gewitaþ forð beran
wæpen ond gewædu; ic eow wisige .
Swylce ic maguþegnas mine hate
wið feonda gehwone flotan eowerne ،

niwtyrwydne nacan on sande
arum healdan ،oþðæt eft byreð
ofer lagustreamas leofne mannan
wudu wundenhals to Wedermearce ،



godfremmendra swylcum gifeþe bið;

http : //poetry . about . com/od/poems/l/blbeowulf5 . htm

عمومـاً ان ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، كانت قد تخلقت من خليط من لغات ولهجات الشعوب الجرمانية الوثنية التي غزت الجزر البريطانية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي ، وامتزجت بلغات القبائل السلتية أصحاب الأرض . ثم تأثرت بلغات رجال الشمال في القرن التاسع ، ثم تأثرت باللُّغة اللاتينية والإغريقية من خلال دخول سكان تلك الممالك في الديانة المسيحية . وكان لكل من هذه اللُّغات آثارها العميقة في بنية ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، والتي ظلت مستخدمة حتىٰ القرن الحادي عشر ؛ حيث خضعت الجزر البريطانية لغزو آخر من قبل حاكم نورمنديا ؛ فتغيرت علىٰ إثره ملامح اللُّغة الإنجليزيَّة تماماً ، حتىٰ غدت خلقاً آخرَ ، واحتسبت اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة في عداد اللُّغات الميتة تماماً . وتهيأت الظروف لظهور ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة .

الغزو النورمندي وظهور اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة (١١٠٠-١٥٠٠)

في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، وتحديداً في العام ١٠٦٦م هاجم الملك وليم المنتصر (William The Conqueror) ملك النورمنديين انجلترا . والنورمنديون شعوب كانت تقطن في شمال فرنسا . وتعتبر نورمنديا نفسها مقاطعة فرنسية ، ويتحدث أهلها اللُّغة الفرنسية . وقد اصطحب الغزاة الجدد لغتهم الفرنسية معهم واستخدموها لغة للدولة والحكم والمعاملات الرسمية في انجلترا ، وبقيت اللُّغة الإنجليزيَّة لغة للعامة والدهماء والزراع والرعاة . أما طبقة الحكام والقضاة والمتعلمين ، فقد كانوا يتحدثون الفرنسية .

ويعلق ايلي فان قلدرين (٢٠٠٨م) علىٰ هذا الوضع قائلًا : إنه في حقبة من الزمن ظهر نوع من التمييِّز الطبقي تأسس علىٰ قواعد لغوية ، حيث كانت الطبقة العليا تتحدث اللُّغة الفرنسية ، وبقيت اللُّغة الإنجليزيَّة لغة للطبقة الدنيا في بريطانيا .

وكانت اللُّغة الفرنسية قد فرضت علىٰ جميع البلاد ، وأصبحت اللُّغة التي تدرس في المدارس ، ليست علىٰ أساس أنها اللُّغة الأجنبية ، ولكنها تدرس لغة وطنية . وهكذا أصبحت الفرنسية لغة للتعليم والمتعلمين ، والإنجليزيَّة لغة لغير المتعلمين وسكان الأرياف والمزارعين . استمر هذا الصراع غير المتكافئ بين اللُّغتين حتىٰ منتصف القرن الثالث عشر ، حيث جرت أحداث سياسية أثرت علىٰ الوضع اللغوي بصورة كبيرة .

ففي العام ١٢٠٤م ، فقد الملك جون النورمندي الأصل ملك بريطانيا ، سيطرته علىٰ مقاطعة نورماندیا ، وأصبحت المقاطعة تابعة لفرنسا . وحينئذ تحول اهتمام النبلاء من ذوي الأصول النورمندية في بريطانيا عن الوطن الأم ؛ نورمنديا ، إلىٰ وطنهم الجديد في بريطانيا . وتقطعت صلاتهم مع بني عمومتهم في نورمنديا . وتبع ذلك أن النبلاء من ذوي الأصول النورمندية ، الذين عاشوا في بريطانيا ، تبنوا لغة مهجنة خليطًا من الإنجليزيَّة والفرنسية لغة رسمية لهم ، وأصبحت هذه لغة التعامل اليومي ، وظهرت طبقة جديدة من العمال والتجار كونوا لبنات المجتمع الجديد (Holmes ، 1982).

اكتسبت اللُّغة الإنجليزيَّة ذلك الهجين أهمية ما ، واستعادت شيئًا من مكانتها المفقودة ، ولكن بعد أن طرأت تغييرات أساسية علىٰ كل جوانبها . فمن ناحية المفردات فقد أصبح أكثر من (٥٠٪) من مفرداتها فرنسية ، انظر معجم فيلب لأصول الكلمات (Philip Durkin، Oxford of Etymology Principles

English Dictionary) . كما حدثت تغيرات نحوية عميقة في تراكيب اللُّغة ، حيث فقدت الإنجليزيَّة علامات الإعراب ، والتطابق في الجنس بين الفعل والفاعل ، وتقلصت الصيغ الصرفية ، واعتمدت اللُّغة علىٰ الاستلاف من اللُّغات الأخرىٰ ، أكثر من اعتمادها علىٰ الاشتقاق لتوليد مفردات للتعبير عن معانٍ جديدة .

وقد تأثر الهجاء الإنجليزي بصورة أساسية في فترة سيادة اللُّغة النورمندية الفرنسية ، حيث تغيرت طريقة كتابة بعض الحروف مثل / ∂ / و / θ / التي استبدلت بالحرفين / th/ و ينطق / ذ / أو / ث / .

سميت هذه الفترة بفترة اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة ، وكان رائد هذه الفترة شاعر الإنجليزيَّة الشهير جفري جوسر (Chaucer) صاحب أقاصيص كانتربري الشهيرة (Canterbury Tales) . وهي عبارة عن مجموعة من الأساطير والخرافات صاغها الشاعر بلغة إنجليزية وسيطة ، ووجدت رواجاً كبيراً ، وشجعت آخرين علىٰ حذو حذوه في الكتابة باللُّغة الإنجليزيَّة والتي كانت قبل ذلك لغة للعامة والدهماء ؛ ولم يكن أحد يستخدمها لأغراض أدبية أو علمية جادة (Wells ، 1982) .

ومن ثم سيطرت هذه اللُّغة علىٰ الأوساط الأدبية الرسمية في انجلترا . وفي العام ١٣٦٢م تم تبني هذه اللُّغة رسمياً ، لغة للدولة والحكم . وفي نفس السنة افتُتح البرلمان البريطاني لأول مرة ، وخاطبه رئيسه باللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة ، بدلًا عن اللُّغة الفرنسية التي كانت سائدة قبل ذلك (Holmes، 1986) .

واللُّغة الإنجليزيَّة في تلك الفترة الممتدة ما بين ١١٠٠ وحتىٰ ١٥٠٠م كانت تتكون من عدة لهجات بينها اختلافات عديدة . ولكن حينما ظهرت للوجود مرة أخرىٰ كانت لهجة لندن هي اللهجة المسيطرة ، وهي اللهجة التي كتب بها جفري جوسر أعماله الأدبية (Dillon & Chadwick;1972) . وقد عاش جوسر في الفترة

ما بين ١٣٤٠م وحتىٰ ١٤٠٠م .

واللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة ، رغم قرب عهدها نسبيًا بالعصور الحديثة ، إلا أنها تختلف اختلافًا أساسيًا عن اللُّغة الإنجليزيَّة المعاصرة . وليس في إمكان المثقف الإنجليزي العادي اليوم أن يفهم أقاصيص كانتربري ، بل يحتاج إلىٰ متخصص يترجم له كثيراً من مفرداتها . وانظر هذا المقطع من قصيدة لجوسر والتي يرجع تاريخها إلي القرن الرابع عشر الميلادي :

، lat hit nat appere ،Thy faire body
، Lucresse of Rome toun ،Lavyne; and thou
، that boghten love so dere ،And Polixene
، with al thy passioun ،And Cleopatre
Hyde ye your trouthe of love and your renoun;
that hast of love swich peyne; ،Tisbe ،And thou
. that al this may disteyne ،My lady cometh

www . poetry-online . org/chaucer_balade . htm

وإذا كان بالإمكان قراءة بعض أبيات هذه القصيدة ، إلا أن نطقها قد تغير بصورة كبيرة جداً ، بحيث لا يستطيع المتحدث باللُّغة الإنجليزيَّة اليوم أن يفهم منها شيئًا . والسبب الأساسي في ذلك أن اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة هذه ، قد تعرضت لحدث غريب في تاريخ اللُّغات في آخر عهدها ، أي في القرن الخامس عشر الميلادي . يعرف هذا الحدث بالتحول العظيم في أصوات المد . (Great Vowel Shift) .

التحول الصوتي العظيم (Great Vowel Shift) :

حدث هذا التحول بصورة مفاجئة في اللُّغة الإنجليزيَّة . وقد أحدث هذا الامر تغييراً كبيراً جداً في نطق اللُّغة الإنجليزيَّة . فحسب مؤشرات هذا الانتقال ، فقد قصرت جميع الأصوات الطويلة ، وأصبحت أصواتًا قصيرة . وأصبحت جميع أصوات المد الخلفية ، أمامية وأُلغي النطق بصوت / e/ الواقعة في نهاية الكلمة . وبذلك أصبحت كلمة / stone / في اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة تنطق /ston / و/ bone / تنطق / bon / و/ halig/ وتنطق / holy/ و/ gan / وتنطق / go / و/ halif / تنطق /loef/ . وتغير نطق كلمة / heafod / إلى / head / ، وأسقطت صوت "g" من كلمة / foeger / لتنطق / fair / ، وتغيير نطق كلمة / wip / لتنطق / with / وكلمة / head / لتنطق / high / وكلمة / nama/ لتصبح / name / و / cide / لتصبح / child / و / hus / لتصبح / house / و / scip / لتصبح / ship / و / sceap / لتصبح / sheep / و/ ecg / لتصبح / edge / و/ weall / لتصبح / wall / .

عمومًا فإن اللُّغة تغيرت تغيراً كبيراً ، حتىٰ أصبح يصعب علىٰ الشخص العادي من الناطقين بالإنجليزيَّة اليوم أن يدرك العلاقة بين اللُّغة التي يتحدثها الآن ولغة تلك الفترة قبل حدوث التحول الصوتي العظيم .

اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة (١٥٠٠م – ١٨٠٠م) Modern English

أثرت هذه التغيرات الهائلة في بنية اللُّغة الإنجليزيَّة ، وعلىٰ مستواها المنطوق ، ومستواها المكتوب . وبرز إلىٰ حيز الوجود وتحديداً في بداية القرن السادس عشر ما عرف بالإنجليزيَّة الحديثة . وقد تزامنت هذه المرحلة مع ما عرف في التاريخ الحديث بعصر النهضة . وهي مرحلة ازدهار المعارف الكلاسيكية ، وانتشار المعرفة حتىٰ سميت من قبل بعض المؤرخين بعصر التنوير

(Wells، 1982) .

وحتىٰ هذه المرحلة المتأخرة من التاريخ ، لم تكن للبريطانيين مشاركات علمية أو أدبية تذكر . و لكن بعد أن تأسست امبراطوريتهم الحديثة ، في القرن السادس عشر ، أحسوا بحاجتهم للمعرفة . فلجأ علماء اللُّغة الإنجليزيَّة إلىٰ اللُّغات اللاتينية والإغريقية بل والعربيَّة ، فاستعاروا كل حاجتهم من المصطلحات العلمية من تلك اللُّغات ، حتىٰ بلغت نسبة المصطلح العلمي الموجود اليوم في مجال العلوم والطب والهندسة المستعار من اللُّغات الأخرىٰ حوالي (٨٦٪) من جملة تلك المصطلحات المستخدمة في اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة (Shay، 2008) .

هذه الفترة والتي كانت من أشهر ملوكها الملكة اليزابيث الأولىٰ ، حتىٰ عرفت هذه الفترة بها ، كانت مرحلة تقنين اللُّغة الإنجليزيَّة كتابة ونحواً . وساعد علىٰ ذلك انتشار الآلة الطابعة ، ودور النشر التي ساعدت علىٰ توحيد نمط الكتابة ، وتداول الكتب وازدياد عدد القراء . ومن هنا ظهر الاهتمام بالأدب والمسرح علىٰ وجه الخصوص . وفي هذا الجانب ، فقد كان هذا العصر هو عصر شكسبير وبلا منازع . فهو الذي كتب عدداً غير قليل من المسرحيات التراجيدية والكوميدية ، مستلهماً معظمها من أساطير لاتينية أو إغريقية قديمة .

وعلىٰ الرغم من أن كثيراً من الدارسين الآن يجدون صعوبة في فهم لغة شكسبير ، إلا أنها تعتبر من الإنجليزيَّة الحديثة . وهي علىٰ ما فيها من كلمات غير مستخدمة اليوم ، وعلىٰ ما فيها من اختلاف في التراكيب والأصوات ، إلا أنها تعتبر أقرب إلىٰ الإنجليزيَّة الحديثة منها إلىٰ لغة سلفه جفري جوسر ، الذي سبق شكسبير بقرنين من الزمان . ولكن هذا لا يمنع من القول بأن عدداً مقدراً من الإنجليز ودارسي الأدب الانجليزي الآن يجدون صعوبة كبيرة في فهم كتابات

شكسبير ، ويحتاجون إلىٰ من يشرح لهم كثيراً من ألفاظه وتراكيبه .

والحقيقة ان شكسبير أسهم إسهاماً واسعًا في تشكيل ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، حيث أدخل هذا الرجل وحده أكثر من ٢٠٠٠ مفردة جديدة إلىٰ

قاموس الإنجليزيَّة ، وعدداً غير قليل من التعابير السماعية والأكليشيهات التي عرفت باسمه (Shay، 2008) .

ومن العوامل المؤثرة الأخرىٰ في بناء اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، ما عرف بالثورة الصناعية ، وظهور مجتمع التقنية الحديثة ، حيث برزت الحاجة لمفردات جديدة للدلالة علىٰ أشياء ومفاهيم لم تكن موجودة من قبل في اللُّغة الإنجليزيَّة . وكان الحدث الآخر الذي أثر بصورة كبيرة في تكوين اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، هو ظهور الأمبراطورية البريطانية ، والتي امتدت لتغطي ربع الكرة الأرضية . ومن لغات الشعوب المستعمرة ، استعارت اللُّغة الإنجليزيَّة عدداً غير محدود من الكلمات والمفردات وأضافتها إلىٰ معجمها دون تردد أو حياء ، حتىٰ بلغ عدد اللُّغات التي استعارت منها اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة اثنتين وثمانين لغة .

لهجات اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة

كان من الأحداث المهمة في تاريخ اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، اكتشاف أمريكا واحتلالها من قبل الإنجليز في نهاية القرن الخامس عشر ، حيث بدأت تتكون اللُّغة الإنجليزيَّة الأمريكية . وتشير بعض الدراسات إلىٰ حدوث ثبات في النطق لبعض مفردات اللُّغة الأمريكية علىٰ ما كانت عليه حينذاك . وظلت بعض المفردات ينطقها الأمريكيون علىٰ غرار نطقها في عصر شكسبير ، واحتفظت اللُّغة الإنجليزيَّة الأمريكية ببعض المفردات التي اختفت من اللُّغة الإنجليزيَّة

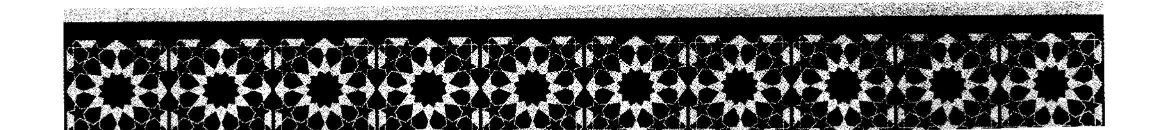
البريطانية ، وذلك مثل كلمة fall ، والتي فُقدت في الإنجليزيَّة البريطانية وحلت محلها كلمة / autumn / وكلمة / trash / التي حلت محلها كلمة / rubbish / والفعل / loan / في الأمريكية استبدل بالفعل / lend / في الإنجليزيَّة البريطانية .

وقد خدمت اللهجة الأمريكية معبراً دخلت من خلاله كثير من كلمات الهنود الحمر إلىٰ الإنجليزيَّة . كما عبرت إليها الكثير من المفردات الإسبانية مثل canyon و ranch و stampede و tomatoes و potatoes ، وذلك من خلال مخالطتهم الإسبان خصوصاً في المكسيك . وقد دخلت إلىٰ الإنجليزيَّة كلمات عديدة من لغات غرب أفريقيا من خلال تجارة الرقيق ، الذين جاء بهم الأمريكيون ، وكان معظمهم من سكان نواحي غرب أفريقيا والسنغال ونيجيريا (Shay ، 2008).

أما اليوم ، فإن الإنجليزيَّة الامريكية فهي المسيطرة بلا منازع ، وذلك نسبة لتفوق أمريكا في مجالات عديدة مثل الإعلام ، والاقتصاد ، والهيمنة العسكرية والتقنية . ومن المعلوم أيضاً أن هناك أنواعاً أخرىٰ من لهجات اللُّغة الإنجليزيَّة ، تستخدم في كثير من أنحاء العالم . وهذه تشمل الإنجليزيَّة الاسترالية والنيوزيلندية ، والإنجليزيَّة الكندية ، وإنجليزية جنوب أفريقيا . كما أن هناك لهجات مولدة يستخدمها سكان جزر الكاريبي ، وبعض سكان المستعمرات الإنجليزيَّة السابقة . وهذه الأخيرة أشبه ما تكون بلهجات محلية ، يقتصر استخدامها علىٰ الأقاليم التي نشأت فيها مثل الهند وباكستان ونيجيريا .

اللُّغة الإنجليزيَّة في عالم اليوم :

إن مما لا خلاف عليه ، هو تبوء اللُّغة الإنجليزيَّة مكانة متقدمة في عالم اليوم . فهي تمثل اللُّغة الأم لأكثر من ٤٥٠ مليون نسمة ، يتوزعون بين الولايات



المتحدة الأمريكية وبريطانيا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا . كما يستخدمها مثل هذا العدد في بلاد الهند وباكستان ودول أفريقيا لغة ثانية . ويدرسها لغة أجنبية مئات من الملايين الذين ينتشرون في قارات الدنيا السبع . فهي أكثر اللُّغات انتشاراً واستخداماً في عالم اليوم في مجالات العلوم والتقنية ، والسياسة والتجارة والإعلام . وهي اللُّغة الأوسع انتشاراً واستخداماً علىٰ الشبكة العنكبوتية العالمية « الانترنت » (Umar، 2009) .

إن المتأمل في وضع اللُّغة الإنجليزيَّة اليوم يجد أنها ارتادت آفاقاً لم تصل إليها لغة في العصر الحالي . وأصبحت تستخدم في مساحات واسعة في أنحاء الكون ولأغراض متعددة . فاللُّغة الإنجليزيَّة ، وحسب إحصائية أوردها موقع meet christian online تستخدم في أكثر من تسعين بلداً لغةً رسمية ، وهي تمثل (٩٨٪) من لغات البحوث العلمية في مجال الكيمياء والفيزياء والعلوم التطبيقية . وهي اللُّغة الرسمية المستخدمة في المصرف المركزي الأوربي ، مع العلم بأن هذا المصرف مقره في فرانكفورت الألمانية ، وإن بريطانيا لم تكن عضواً فيه ، كما أنها ليست عضواً في السوق الأوربية المشتركة . ويقدر هذا الموقع إن أكثر من بليون شخص في العالم اليوم يتعلمون الإنجليزيَّة . وهي اللُّغة الأكثر أهمية حسب ما يرىٰ (٧٧٪) من الأوربيين الذين لا يتحدثون الإنجليزيَّة ، وأن (٨٩٪) من الأوربيين من غير الإنجليز يتحدثونها بطلاقة . إضافة إلىٰ ذلك ، فإن دول شرق وجنوب شرق آسيا بما فيها الصين ، تولي اللُّغة الإنجليزيَّة الآن اهتماماً متزايداً ، ويُفرد لها حيز مُقدرٌ في المدارس والجامعات في تلك البلاد .

أما في السودان ومثلما هىٰ الحال في بعض الدول العربيَّة الأخري التي خضعت لسلطان الاحتلال البريطاني ، قد مرت اللُّغة الإنجليزيَّة بمراحل عديدة ، حيث كانت اللُّغة المحورية في مناهج المدارس التي أنشأها المستعمر . وكان

النجاح فيها يمثل جواز المرور الأساسي للمراحل التعليمية التالية ، أو للحصول علىٰ وظيفة محترمة . وقد اهتم بها المستعمر اهتماماً بالغاً ، ووفر لها دعماً مقدراً ، كان نتاجه أن تخرج مجموعة من الطلاب الذين أجادوها واحتفوا بها جداً . ولكن كانت أعداد هؤلاء قليلة محدودة ، ولم يكن لهم أي صدىٰ علىٰ جمهور المواطنين العاديين . إلا أن الإنجليزيَّة كانت لغة التدريس في المرحلة الثانوية والجامعة . واستمر هذا الوضع حتىٰ بعيد الاستقلال . (Hussain، 2009)

أما في مرحلة ما بعد الاستقلال ، وبعد ثورة أكتوبر الشعبية ، فقد تراجع الاهتمام باللُّغة الإنجليزيَّة ، وتم تعريب المرحلة الثانوية ، وبقيت الإنجليزيَّة لغة للتدريس في الجامعة . ثم تراجعت الإنجليزيَّة أكثر فأكثر في السبعينات من القرن الماضي مع توسع ملحوظ في التعليم العام .

ومع بداية التسعينات ، وبروز ثورة التعليم العالي ، التي سعت لمضاعفة الجامعات السودانية ، ورفعت شعار التعريب تأكيداً لهوية الأمة ، ولأسباب أخرىٰ ، فقد شهدت اللُّغة الإنجليزيَّة تراجعاً آخرَا رغم الاهتمام المتزايد بها من قبل السلطات التربوية في البلاد ، وإدخالها باكراً في مرحلة التعليم الأساسي . والحقيقة ان هناك تدنياً شديداً في مستوىٰ أداء الطلاب الآن في اللُّغة الإنجليزيَّة في السودان ، وفي كثير من بلدان العالم العربي ، وذلك لأسباب ربما يتم نقاشها في مرحلة لاحقة في هذا البحث إن شاء الله .

خلاصة :

في الجزء السابق ناقش الباحث تاريخ اللُّغة الإنجليزيَّة ، ومراحل تكوينها نقاشاً مفصلًا . ومن خلال هذا النقاش تبين أن اللُّغة الإنجليزيَّة بدأت تتكون ، ولأول مرة ، في منتصف القرن الخامس الميلادي حين غزت مجموعة من القبائل الجرمانية الجزر البريطانية التي كانت مأهولة بمجموعات قبلية تتحدث اللُّغة

السلتية .

وكانت القبائل الجرمانية الغازية ، تتكون من ثلاث مجموعات رئيسية هي قبائل الساكسون والانجلز والجوتز ، الذين طردوا السكان الأصليين واحتلوا أراضيهم الغنية في الجنوب والوسط ، واستعبدوا من لم يستطع الهروب منهم ، أو الاحتماء بالجبال في غرب وشمال بريطانيا .

ثم بدأ تكوين ما عرف باللُّغة الإنجليزيَّة القديمة من خليط من لغات تلك القبائل الغازية . أي الساكسونية ولغة الانجلز والجوتز مع قليل من بقايا اللُّغات السلتية ، أي لغة سكان الجزر البريطانية الأصليين . وفي مرحلة لاحقة تعرضت بريطانيا لغزوات جديدة من رجال الشمال ، الذين أخضعوا البلاد لملكهم ، وكان تأثير لغتهم علىٰ اللُّغة الإنجليزيَّة كبيراً وعميقاً .

وفي مطلع القرن الحادي عشر ، تعرضت بريطانيا لغزو آخر من قبل النورمنديين ، الذين جعلوا من لغتهم الفرنسية لغة رسمية للبلاد والتعليم والقضاء وكل أمرٍ ذي شأن . وتراجعت اللُّغة الإنجليزيَّة لتكون لغة للعامة والدهماء . وظهرت حالة هي أشبه ما تكون بحالة التمايز الطبقي اللغوي ، حيث كانت الفرنسية هي لغة الطبقة العليا في بريطانيا ، والإنجليزيَّة هي لغة الطبقة الدنيا . واستمر الحال كذلك حتىٰ نهاية القرن الثالث عشر ، حيث تحررت بريطانيا من سلطان النورمنديين ، وظهرت إلىٰ حيز الوجود لغة إنجليزية هجين أخذت تقريباً (٥٠٪) من مفرداتها من الفرنسية النورمندية ، وسميت هذه اللُّغة باللُّغة الإنجليزيَّة الوسطية . وكان الفضل في بروز هذه اللُّغة إلىٰ الشاعر الكبير جفري جوسر ، الذي كتب بها أقاصيص كانتربري (Canterbury Tales) . و اللُّغة الإنجليزيَّة الوسطية تختلف اختلافاً جوهرياً عن اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، وليس بإمكان المثقفين من الناطقين بالإنجليزيَّة اليوم فهمها ، إلا من خلال دراسات خاصة وشروح

مطولة .

وفي القرن الخامس عشر ، تعرضت اللُّغة الإنجليزيَّة لحدث غريب ، غير معالمها إجمالًا ، وهو ما عرف بالتحول العظيم في أصوات المد (Great Vowel Shift) . وبموجب هذا التحول ، قصرت كل الأصوات الطويلة ، وأصبحت كل أصواتها الخلفية أمامية ، وأُسقط صوت حرف " e " إذا وقعَ في نهاية الكلمة . وبذلك تغير نطق الكلمات بصورة أساسية ، واستمر هذا التحول أيضًا فيما بعد ليشمل بعض الأصوات الساكنة" Consononts" .

في بداية القرن السابع عشر ظهر الشاعر الكبير شكسبير ، والذي لم يكن تأثيره يقل علىٰ اللُّغة الإنجليزيَّة عن تأثير سلفه جفري جوسر ، حيث أضاف هذا الرجل وحده إلىٰ قاموس اللُّغة الإنجليزيَّة أكثر من ألفي مفردة ، وعدداً غير محدود من الاكلشيهات والتعابير السماعية التي ارتبطت باسمه وعرفت به .

وفي القرن السابع عشر والثامن عشر ، تأسست الإمبراطورية البريطانية وامتدت لتبسط سيطرتها علىٰ ربع مساحة الكرة الأرضية ، وتفجرت الثورة الصناعية وازدهرت العلوم الكلاسيكية ، وانضافت إلىٰ اللُّغة الإنجليزيَّة آلاف المفردات الجديدة ، وذلك عن طريق الاستلاف من اللاتينية والإغريقية . ولم تتردد اللُّغة الإنجليزيَّة في الاستلاف من لغات الشعوب المستعمرة حتىٰ بلغ إجمالي اللُّغات التي استعارت منها اللُّغة الإنجليزيَّة اثنتين وثمانين لغةً .

من خلال السرد السابق يخلص الباحث إلىٰ مجموعة من الحقائق عن اللُّغة الإنجليزيَّة يمكن أن تجمل فيما يلي :

- إن اللُّغة الإنجليزيَّة لغة حديثة التكوين نسبيًا ، حيث لم تتجاوز بداية تكوينها القرن الخامس الميلادي .

- اللُّغـة الإنجليزيَّـة القديمـة تكونـت مـن خلـيط مـن اللهجـات واللُّغـات الجرمانية الوافدة إلىٰ الجزر البريطانية ، والتي امتزجت مع لغـات سكان الجزيرة الأصليين الذين يتحدثون اللُّغات السلتية والقيلية .
- اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة التي تكونت من هذا الخليط غير المتجانس ، هي في عداد اللُّغات الميتة ، ولا صلة لها باللُّغة الإنجليزيَّة المتحدثة اليوم ، ولا يفهمها أحد .
- تبلور مـا يسمىٰ باللُّغـة الإنجليزيَّة الوسيطة في أعقاب الغزو النورمندي للجزر البريطانية . وفي هذه الحقبة الزمنية ظهرت طبقية لغوية ، حيث كانت الفرنسية هي لغة الدولة والطبقة العليا ، والإنجليزيَّة لغة الطبقة الدنيا من الزراع والرعاة وسكان الأرياف في بريطانيا .
- اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة استعارت نصف مفرداتها من اللُّغة الفرنسية ، ويعتبر الشاعر جوسر صاحب الفضل الأكبر في صياغة هذه اللُّغة وانتشارها من خلال أقاصيص كانتربري .
- في القرن الخامس عشر تعرضت اللُّغة الإنجليزيَّة لظاهرة غريبة عرفت بالتحول الصوتي العظيم ، والذي بموجبه تغير نطق اللُّغة الإنجليزيَّة جملة وتفصيلًا .
- اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة مدينة للشاعر شكسبير بصورة كبيرة ، حيث أدخل هذا الرجل أكثر من ألفي مفردة لمعجم الإنجليزيَّة ، وعدد غير محدود من التعابير السماعية المنسوبة إليه .
- في مرحلة عصر النهضة ، وبروز العلوم الكلاسيكية والثورة الصناعية ، اتكأت اللُّغة الإنجليزيَّة علىٰ اللُّغات اللاتينية واليونانية والعربيَّة

واستعارت منها جلّ المصطلحات العلمية .

- في القرن الثامن عشر ، حيث انداحت الإمبراطورية البريطانية لتغطي ربع مساحة الكون ، استمرت اللُّغة الإنجليزيَّة ، وكعادتها ، في الاستلاف من اللُّغات الأخرىٰ وأضافت إلىٰ قاموسها مفردات من أكثر من اثنتين وثمانين لغة .
- إن سيادة اللُّغة الإنجليزيَّة في العصر الحالي ترجع لهيمنة الغرب السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وليست بأي حال من الأحوال ذات علاقة بتميُّز هذه اللُّغة في مضمونها أو قدرتها علىٰ التعبير والإيضاح . وسوف تتم مناقشة هذا الجانب في مرحلة لاحقة إن شاء الله .

وقفة للمقابلة :

إن وقفة للمقابلة بين اللُّغة العربيَّة والإنجليزيَّة ، تشير إلىٰ فوارق جمة ، واختلافات كثيرة بينهما . فمن حيث النشأة ، تجد أن العربيَّة قديمة ضاربة في القدم ، وأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب ، وذروة النمو والكمال ؛ حتىٰ ذهب البعض إلىٰ القول بأنها هكذا ولدت كاملة ولم تمر بما مرت به اللُّغات الأخرىٰ من مراحل النمو والتخلق . وقال البعض بأنها هكذا كان انبثاقها إلهامـًا ، وظهورها إعجازاً ، وان أول من نطق بها كان إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) وهو ابن أربع عشرة ، فنسي لسان قومه من جرهم . ورغم أن الباحث لا يستبعد أن تكون اللُّغة العربيَّة إلهامـًا ، أو أن تكون نشأتها خرقـًا لنواميس نشأة اللُّغات ، إلا أن مما لا خلاف عليه ، هو أن العربيَّة ، وبحلول القرن السادس الميلادي ، كانت قد وصلت قمة نضجها وسنام نموها . وتهيأت كما لم تتهيأ لغة من قبل أو من بعد ، لأن تحمل مضمون الرسالة الخاتمة للإنسانية جمعاء . وأنه

مما لا ريب فيه أن العناية الإلهية قد تولتها ومنذ نشأتها الأولىٰ ، فهذبتها وأعدتها أيما إعداد ، وزودتها بكل عوامل القوة والصمود لتبقىٰ علىٰ مر القرون ، حاملة تعاليم وتباشير هذه الرسالة إلىٰ يوم الدين . فبقيت العربيَّة علىٰ ما هي عليه لم تتبدل ، ولم تتغير ، ولم يطرأ عليها ما طرأ علىٰ اللُّغات الأخرىٰ من تحور وتغير أو موات . وإنّ الشخص العربي العادي أو الذي تعلم العربيَّة في إطار التعليم العام ، يقرأ ويفهم بسهولة جلَّ التراث العربي الضارب في أعماق التاريخ . ولا أدلّ علىٰ ذلك من أن طفل المرحلة الابتدائية يقرأ ويفهم أحاديث الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) ، وقد مضىٰ عليها أكثر من ألف وأربعمائة سنة .

هذه الظاهرة لا يوجد لها مثيل في اللُّغات الأخرىٰ خصوصاً في اللُّغة الإنجليزيَّة ، التي يصعب علىٰ أساطين المتحدثين بها ، والدارسين لها اليوم ، أن يقرأوا ويفهموا أقاصيص جوسر التي كتبها قبل ستة قرون فقط ؛ أي في القرن الرابع عشر . ويلاقي المثقفون العاديون من الناطقين بالإنجليزيَّة اليوم صعوبة مقدرة في فهم أعمال شكسبير ، التي كتبها في القرن السابع عشر . أما إنجليزية ما قبل القرن الحادي عشر ، فهي في عداد اللُّغات الميتة ، ولا يفهما أحد ولم يبق منها أثر ولا عين .

أما من حيث الأصل فنجد أن العربيَّة تنتمي لأرومة لغوية واحدة ، وهي الدوحة السامية الراسخة ، والتي تشمل إلىٰ جوار العربيَّة ، العبرية والآرامية والأمهرية . وقد ماتت جميع هذه اللُّغات أو تبدلت تبدلًا أساسياً ، واختفت معالمها الأولىٰ تماماً . أما العربيَّة فقد حافظت علىٰ نقائها ، وبهائها ، وتألقها . و باتفاق كثير من المؤرخين فان اللُّغة العربيَّة هي الأقرب للغة السامية الأم ، التي انبثقت منها اللُّغات السامية الأخرىٰ ، وذلك لاعتصامها بالصحراء في جزيرة العرب . فلم تتعرض لما تعرضت له باقي اللُّغات السامية من اختلاط وتبدل

وتحور وموت . فقد وصلت العربيَّة إلىٰ العهد الحاضر عبر تاريخ طويل ، معبرة عن تراث عريق ، تنطق علىٰ ألسنة الحاضرين ، كما كانت تنطق علىٰ ألسنة الغابرين ، دون أن تستغرب أو تستعجم ؛ فأصواتها وصيغها هي هي كما كانت ، لم يصبها التغيير رغم تطاول العهود ، وتتابع الأجيال . وهذا أمر نادر الحدوث لم يسجله التاريخ إلا للغة العربيَّة ، والتي يقرأ القارئ نصوصها القديمة الآن ، فلا يحس بقدمها ، بل يستأنس بها ويتلذذ بتكرارها وتمثلها ، ويستخدمها بأساليبها المتنوعة ، ليعبر بها عن متطلبات الحياة العصرية ، والأفكار الجديدة . واللُّغة العربيَّة لغة ثابتة علىٰ أصولها ، لم تتغير أصواتها ، ولا مفرداتها ، ولا معانيها . وهي لغة قياسية ، لها القدرة علىٰ أن تشتق وتنحت من جذورها مفردات جديدة ، تعبر بها عن المعاني المتجددة ، والدلالات المتعددة ، دون تكلف أو تمحك . كما أنها لغة منفتحة لا تأنف عن أخذ بعض المفردات ذوات الدلالات المصطلحية ، من لغات أخرىٰ ، ولكن بعد أن تخضعها لميزانها الصرفي ، فتجرىٰ تلك الألفاظ مجرىٰ المفردات العربيَّة ، فتحافظ العربيَّة علىٰ نسقها ونظمها .

أما اللُّغة الإنجليزيَّة ، كما اتضح من السرد السابق ، فهي لغة متعددة الأصول متشابكة الأطراف . تبدلت وتحورت في ماضيها القريب جداً ، حتىٰ إنه يستغلق علىٰ الفهم منها ما مضىٰ علي تأليفه قرنان أو ثلاثة . أما إنجليزية ما قبل القرن الحادي عشر ، أو ما يسمىٰ بالإنجليزيَّة القديمة Old English فهي في عداد اللُّغات الميتة ، ولا يفهمها أحد ، ولا علاقة لها ولا صلة بالإنجليزيَّة الحديثة Modern English .

فحسب تاريخها المعلوم ، فإن الإنجليزيَّة بدأت من خليط من لغات القبائل الجرمانية الوثنية التي غزت الجزر البريطانية في القرن الخامس ، وهي مجموعة قبائل الساكسون والانجلز والجوتز . ولكل من هذه القبائل لغتها الخاصة ، والتي

امتزجت مع لغات سكان الجزيرة الأصليين ، من الولش والايرلنديين والاسكتلنديين ، لتكون اللبنات الأولىٰ للغة الإنجليزيَّة القديمة . ثم تعرضت الجزر البريطانية في القرن التاسع لغزو آخر ممن عرفوا برجال الشمال Norse الاسكندنافيين ، والذين بسطوا سلطانهم علىٰ أغلب الجزر البريطانية . وكان تأثير لغتهم علىٰ الإنجليزيَّة القديمة عميقاً . وفي هذا الصدد يذكر المؤرخون أن الإنجليزيَّة فقدت كثيراً من معالمها وخصائصها التي نشأت عليها ، ودخلها عدد غير قليل من مفردات لغة رجال الشمال .

وبعد نشأة الإمبراطورية البريطانية وانتشارها ، فقد مارست اللُّغة الإنجليزيَّة عادتها في الاستلاف من لغات الشعوب الأخرىٰ ، دون تحفظ حتىٰ اشتمل قاموس اللُّغة الإنجليزيَّة علىٰ كلمات ومفردات من معظم لغات أهل الأرض .

فالمتأمل لهذه الأحداث والتي شكلت اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، يجد نفسه أمام فوضىٰ لغوية عارمة يصعب معها تحديد معالم هذه اللغة . فهي في واقع الحال خلق مكون من خليط غير متجانس من اللُّغات ؛ وأشبه ما تكون بمرقوعة الدراويش ، ما يكاد الرائي يتبين لون إحدىٰ اللُّغات المكونة لها ، حتىٰ يجده يمتزج مع لون لغة أخرىٰ ، فتضيع معالم الجميع ، وما يزداد الرائي إلا حيرة علىٰ حيرته .

وقد نتج عن هذا الخليط الغريب ، عدم استقامة اللُّغة علىٰ نمط واحد ، وعدم استقرارها علىٰ هيئة واحدة تخضع لقانون واحد . فهي لغة مركبة من عدة لغات ، لا تكاد تنطبق عليها قاعدة ولا تحتكم لقانون ؛ إلا قانون السماع والمعايشة . فهي مع تعدد أصولها ، واختلاف مكوناتها ، لا تملك ميزاناً صرفياً يلملم متفرقها ، ويعين علىٰ التميز بين صيغها ، فالاسم والحرف والفعل قد تتشابه في هيئتها وتختلف في معانيها ، ومدلولاتها . والاشتقاق فيها محدود جداً ،

بيد أنه لا تحكمه قاعدة . وقد يأتي الفعل الماضي مطابقاً للفعل الحاضر ، مع عدم إمكانية اشتقاق صيغ أخرىٰ منه البتة . وقد يأتي الاسم وليست ثمة علاقة له من بعيد أو قريب تربطه بفعله . وأعجب من ذلك كله ، أن تجد الفعل الواحد تأتي صيغة الماضي فيه من لغة ، وصيغه الحاضر من لغة ثانية ، والفاعل منهما من لغة ثالثة . وهكذا توصد كل السبل أمام استخدام القياس والعقل ، بل والذوق السليم . وليس أمام من يتطلع إلىٰ دراستها ، إلا أن يهيئ نفسه لأن يدرس نظم لغوية شتىٰ في لغة واحدة ، ولا حاجة له لأن يستخدم المنطق أو العقل أو القياس .

ختاماً فإن المقابلة بين نشأة اللُّغة العربيَّة والإنجليزيَّة ، تشير إلىٰ فوارق شتىٰ واختلافات عظيمة بينهما . فالعربيَّة لغة أصيلة ، وذات تاريخ ضارب في القدم ، وأصول راسخة ثابتة ؛ والإنجليزيَّة لغة طارئة مكونة من خليط غير متجانس من اللُّغات واللهجات . والعربيَّة لغة ثابتة متحدة الأصول والجذور ؛ والإنجليزيَّة لغة متغيرة لا تكاد ترسو علىٰ هيئة حتىٰ تتبدل وتتحول ، وتكون خلقاً آخراً في ظرف فترة قصيرة من الزمان . واللُّغة العربيَّة لغة قياسية تخضع في كثير من تصاريفها وصيغها إلىٰ المنطق والعقل والذوق . والإنجليزيَّة سماعية مفتقرة بطبيعة مكوناتها المتعددة إلىٰ ميزان صرفي يكيف بنياتها ويوحد هيئاتها .

الفصل الرابع :
أصـوات اللُّغة العربيَّة
وأصوات اللُّغات الأخرىٰ



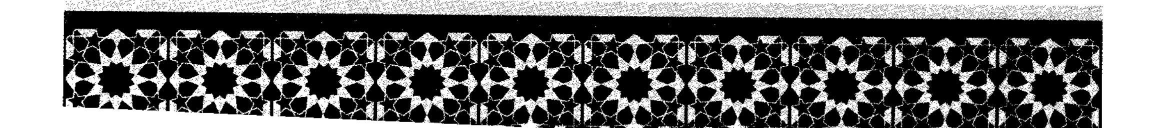
مدخل :

الصوت ظاهرة طبيعية يُدرك المرء أثرها من خلال الأذن ، دون أن يدرك كنهها . وقد ثبت من خلال التجارب العلمية أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ، وأن تلك الهزات مصدر الصوت تنتقل في وسط غازي أو سائل أو صلب حتىٰ تصل إلىٰ الأذن فيدركها السامع (أنيس ، ٢٠٠٧م) .

وتتوقف شدة الصوت وأثره ، علىٰ بعد الأذن من مصدر الصوت ، كما تتوقف علىٰ سعة الهزة ، وهي المسافة المحصورة بين موضع الجسم المهتز وهو في حالة السكون ، وأقصىٰ نقطة يصل إليها الجسم لحظة الاهتزاز . وعلىٰ قدر هذه المسافة يكون علو الصوت ووضوحه . كما يساعد علىٰ شدة الصوت وعلوه اتصال مصدر الصوت بأجسام رنانة .

وقد ثبت من بعض التجارب العلمية المخبرية ، أن حدة الصوت تتوقف علىٰ عدد الاهتزازات في الثانية الواحدة . فكلما ازدادت الاهتزازات ، ازداد الصوت حدة . ويسمىٰ عدد الاهتزازات في الثانية ، في المصطلح الصوتي ، بمعدل التردد . فالصوت العميق له عدد اهتزازات أقل من الصوت الحاد (Crystal ، 1995).

أما نوع الصوت ، فتمثله تلك الخاصية التي بواسطتها يميز صوت عن آخر وإن اتحدا في درجة الحدة والشدة . وهي ذاتها التي يُميز بها صوت إنسان من صوت آخر . فكثير من الناس يستطيع أن يميَّز أصوات أصدقائه من خلال الهاتف دون الحاجة لرؤياهم . وعلىٰ هذه الخاصية نشأ علم حديث ، عرف باسم علم البصمة الصوتية ، والذي استخدم علىٰ نطاق واسع في مجال علم اللُّغة الجنائي (عمر ، ١٤٢٩هـ) .



والمعلوم أن مصدر الصوت الإنساني هو الحنجرة ، والتي يُوجد في حيزها ما يسمىٰ بالوترين الصوتيين . فاهتزازات هذين الوترين هي التي تنطلق من الفم أو الأنف ، ثم تنتقل إلىٰ أذن السامع خلال حيز الهواء . والمعلوم أن درجة الصوت تختلف باختلاف سن الشخص وجنسه ؛ فالأطفال والنساء ، أصواتهم أكثر حدة من الرجال ، وذلك لأن الوترين الصوتيين لدىٰ الأطفال والنساء أقصر وأقل ضخامة . وهذا بالطبع يؤدي إلىٰ زيادة سرعتهما ، وبالتالي زيادة عدد ذبذباتهما في الثانية الواحدة . أما عند الرجال فإن طول الوترين وضخامتهما تقلل من سرعة اهتزازهما . مما يجعل أصوات الرجال أكثر عمقـاً وغلظة . (أنيس ، ٢٠٠٧م) .

ويمكن تلخيص العوامل المؤثرة في درجات الصوت الإنساني فيما يلي :

١ - السيطرة علىٰ الهواء المندفع من الرئتين ، وتحديد نسبة ما يندفع منه مع التنفس .

٢ - مرونة عضلات الحنجرة .

٣ - طول الوترين الصوتيين الذي يؤثر تأثيراً عكسياً علىٰ حدة الصوت .

٤ - مدىٰ شد الوترين الذي يؤثر تأثيراً طردياً علىٰ الصوت .

ولكن عموماً ، فإن شدة الصوت الإنساني تتوقف إلىٰ حد كبير علىٰ حجم الرئتين ، ونسبة ضغط الهواء المندفع منهما ، وسعة تجويف الحنجرة ، والتجويف الفمي .

جهاز النطق :

الصوت اللُّغوي أثر سمعي يصدر عنوة من تلك الأعضاء المسماة أعضاء النطق . يظهر هذا الأثر في صورة ذبذبات تتشكل بواسطة حركات الفم بأعضائه المختلفة . فالصوت اللغوي يتطلب وضع أعضاء النطق في أوضاع محددة ، أو

تحريكها بصورة معينة ، الأمر الذي يفرض علىٰ المتحدث أن يبذل جهداً مقدراً عندما ينتج هذه الأصوات اللُّغوية .

فالصوت بهذا المعنىٰ هو ما اعتنىٰ به الدرس اللغوي ، وأفرد له مجالًا أسماه علم الأصوات . وللتعرف علىٰ الأصوات اللُّغوية وخصائصها وميزاتها يلزم التعرف الدقيق علىٰ تلك الأعضاء المسماة تجاوزاً أعضاء النطق . والمعروف أن هذه الأعضاء لها وظائف أخرىٰ أهم بكثير من وظيفتها في النطق . وإجمالًا ، فإن هذه الأعضاء تشمل القصبة الهوائية ، والحنجرة ، والحلق ، واللِّسان ، والفك العلوي ، واللهاة ، والتجويف الأنفي ، والأسنان ، والشفتان . وفيما يلي تعريف موجز لهذه الأعضاء .

١) القصبة الهوائية :

وهي الأنبوب الذي يتكون من غضاريف حلزونية يتخذ منها النفس مجراه قبل اندفاعه إلىٰ الحنجرة . وهي عبارة عن فراغ رنان يؤثر علىٰ درجة الصوت ولاسيما الصوت العميق .

٢) الحنجرة :

تقع في أسفل الفراغ الحلقي ، وهي أشبه ما تكون بحجرة ذات اتساع معين ، وتؤدي الدور الأساسي في صياغة الصوت الإنساني لاشتمالها علىٰ الوترين الصوتيين اللذين يهتزان مع الأصوات . والحنجرة تتكون من ثلاثة غضاريف مستديرة ، وفيها يوجد الوتران الصوتيان ؛ وهما عبارة عن رباطين مرنين يشبههما الباحثون بالشفتين ، يمتدان من الخلف إلىٰ الأمام حيث يلتقيان عند البروز الذي يسمىٰ بتفاحة آدم . أما الفراغ الممتد بين الوترين ، فيعرف بالمزمار . وفتحة هذا المزمار تنقبض وتنبسط بمعدلات مختلفة مع الأصوات ، ويترتب علىٰ هذا

اختلاف شد الوترين واستعدادهما للاهتزاز . وكلما زاد توترهما ، زادت نسبة اهتزازهما في الثانية الواحدة . وتبعاً لذلك تختلف درجة الصوت . وللمزمار غطاء يسمىٰ لسان المزمار ، وظيفته الأساسية قفل طريق التنفس أثناء عملية البلع ، وليس له دور في عملية النطق .

٣) الحلق :

وهو الجزء الواقع بين الحنجرة والفم . فهو إضافة لوظيفته كمخرج لبعض الأصوات اللُّغوية ، يستغل كفراغ رنان يكبر بعض الأصوات بعد خروجها من الحنجرة .

٤) اللِّسان :

وهو الجزء الأهم في عملية إنتاج الصوت اللغوي وتشكيله ، وقد نسبت إليه اللُّغة في كثير من الثقافات القديمة والمعاصرة لدوره المهم في عملية النطق . فاللِّسان العربي هو اللُّغة العربيَّة . وعند الإنجليز كلمة (Mother- tongue) أي لسان الأم تعني اللُّغة التي يتحدثها الشخص لغة أولىٰ . وفي التنزيل : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل ، آية : ١٠٣] . واللِّسان عضو مرن كثير الحركة في الفم عند النطق ، حيث يتنقل من وضع إلىٰ آخر ، فيُكيَّف الصوت اللُّغوي حسب أوضاعه المختلفة . ويقسمه علماء اللُّغة إلىٰ ثلاثة أقسام هي :

أ - أقصىٰ اللِّسان أو مؤخرته : وهو الجزء المقابل للجزء اللَّين من الفك الأعلىٰ .

ب - وسط اللِّسان : وهو الجزء المقابل للمنطقة الصلبة بالفك الأعلىٰ .

ج - وطرف اللِّسان : وهو الجزء الذي يقابل اللَّثة ، وهو نهايته أوزلقه

(أنيس ، ٩ : ٢٠٠٧) .

٥) الفك الأعلىٰ :

وهذا هو العضو الذي يتصل به اللِّسان في أوضاعه المختلفة ، ومع كل وضع من أوضاع اللِّسان معه تتكون مخارج كثير من الحروف .

ويشتمل الفك الأعلىٰ علىٰ اللّهاة : (الجزء اللّين ، والجزء الصلب) ، ووسط الحنك ، وأصول الأسنان ، والأسنان .

٦) الفراغ الأنفي :

وهذا هو التجويف الذي يندفع خلاله النفس مع بعض الأصوات كالميم والنون . كما أنه يستغل كفراغ رنان ، يفخم بعض الأصوات حين النطق بها .

٧) الشفتان :

الشفتان من أعضاء النطق المهمة . فهما تنفرجان حيناً ، وتستديران ، أو تنقبضان حيناً آخرَ أثناء النطق . ويؤثر ذلك بصورة مباشرة علىٰ الأصوات ، ولا سيما عند النطق بالأصوات المتحركة .

٨) الأسنان :

وهذه من أعضاء النطق الثابتة . ولها وظائف في إنتاج عدد مقدر من الأصوات ، وفي تشكيل الكلام .

هذه باختصار أعضاء الجهاز النطقي ، والتي تؤدي دوراً مهماً في تشكيل الأصوات المكونة لكل لغة . غير أن هناك جزءاً مهماً ، كثيراً ما يغفل عنه الباحثون حين مناقشة أعضاء جهاز النطق ، وهو الرئتان . فالرئتان هما مصدر النفس ، الذي هو أساس النطق الذي يتم تشكيله في التجاويف العليا من الجهاز

النطقي .

تصنيف الأصوات :

يقسم اللُّغويون المحدثون أصوات اللُّغة إلىٰ قسمين رئيسين هما : ما يسمىٰ بالأصوات الصامتة ، وما يعرف أحياناً بالأصوات الصائتة . وقبل الخوض في تفاصيل هذين القسمين ، يود الباحث أن يبدي تحفظاً علىٰ تسمية القسم الأول بالأصوات الصامتة . فهي في تقدير الباحث تسمية غير موفقة ، ومصطلح خاطئ . إذ كيف يكون الصوت صوتاً وهو صامت . وبنفس المنطق ، فان تسمية بعض الأصوات بالصائتة هي تسمية غير موفقة أيضاً . فهي في أفضل حالاتها لا تضيف شيئاً! فالصوت بالضرورة صائت أي له صوت ، ومن هنا يستخلص أن جميع الأصوات صائتة بالضرورة .

وبالرجوع لكتب اللُّغويين القدماء مثل سيبويه وابن جنِّي والسيرافي وابن سيناء ، وُجد أن هؤلاء العباقرة يستخدمون مصطلح الحرف للدلالة علىٰ ما يسمىٰ الآن بالصوت . ويقسمون الحروف إلىٰ حروف ساكنة وحروف ممدودة . وهذا التقسيم يعد أشمل وأدق تعبيراً عما يسمىٰ بالأصوات اليوم .

ثم إن تسمية الحروف بالأصوات هي أيضاً تسمية اصطلاحية ، لا تخلو من بعض التعميم المخل . إذ إن كلمة الأصوات إذا أطلقت هكذا تعني كل ضوضاء صادرة من اهتزاز جسم ما ، نتيجة لطرقه أو تحريكه ، الأمر الذي يؤدي إلىٰ صدور ذبذبات تنتقل في الهواء فتصل إلىٰ أذن السامع .

أما إذا قُيد المصطلح ، وقيل الأصوات اللُّغوية ، فإن الأمر يصبح أكثر تعبيراً عن المراد ، ولكنه لا يوفي بالغرض . فالحرف صوت لغوي ، والكلمة الكاملة عبارة عن صوت لغوي ، والعبارة صوت لغوي ، والجملة صوت لغوي ، والبكاء

صوت لغوي ، والضحك صوت لغوي ، والصياح صوت لغوي فما المقصود بالصوت اللغوي إذن؟

وعليه يرىٰ الباحث أن إطلاق مصطلح الحروف علىٰ ما يعرف الآن بالأصوات ، هو مصطلح أكثر دقة من محاولات المحدثين . وهناك ملاحظات أخرىٰ علىٰ المصطلحات التي استخدمها المحدثون في مجال علم اللُّغة ، كثير منها ناتج عن أخطاء في الترجمة ، وسوف يعرض لها في حينها إن شاء الله .

أما في هذا البحث فيستخدم الباحث مصطلحات المحدثين علىٰ علّاتها حتىٰ لايخرج الباحث عن مقتضيات هذا البحث الرئيسة ، وينزلق وراء جدلٍ ثانوي لا يجدي فتيلًا . ولكن هذا لن يمنع من تبيان أخطاء المحدثين والإشارة إلىٰ بعض هفوات الأقدمين ، والتي يلتمس لهم فيها العذر لقلة عدتهم ، ونقص عتادهم المادي ، معترفين بأن جُلَّ ما أبدعوه من معارف وعلوم ، كاد أن يصل حدّ الكمال ، حيث اتسمت أعمالهم بدقة في التعريف ، وبراعته في التصنيف . وكان المأمول أن يأتي المحدثون ، ويترسموا خطاهم ، ويسيروا في ركابهم ، ويصلوا بما أرسوا قواعده إلىٰ مرافئ عالية ، ومراتب سامية ، ولكن غالبية من اللُّغويين العرب المعاصرين ، آثروا ترسم خطىٰ الغربيين ، وغدوا يرددون مصطلحاتهم دونما تفكُّر أو تدبر ، ومثَّلوا في أفضل حالاتهم صوراً شائهة لمفاهيم الغربيين القاصرة ، وأصبحوا مروجين لآرائهم المنحولة ، وليتهم علموا أن كثيراً من علماء اللُّغة الغربيين تتلمذوا خلسة علىٰ يد علماء العربيَّة الأوائل ، ولكنهم قصروا أشواطاً في الوصول إلىٰ ما وصلوا إليه .

وحتىٰ لا ينحرف هذا البحث عن مساره ، فليعد الباحث إلىٰ تصنيف الأصوات ، والذي اتفق علىٰ أنه يشمل قسمين : هما مجموعة الأصوات الساكنة ، والأصوات المتحركة . وقد بني هذا التقسيم علىٰ طبيعة الأصوات

وخواصها . وهنا يتركز الاهتمام علىٰ خاصيتين مهمتين وهما : أوضاع الأوتار الصوتية ، وطريقة مرور الهواء من الحلق والفم إلىٰ الأذن . وخاصية ثالثة هي المخرج . وقد أضاف بعض المحدثين خاصية أخرىٰ تتمثل في وضع الشفتين وتشكلهما بصور مختلفة .

فحسب تصنيف للخليل بن أحمد مثلًا ، فإنه يرىٰ أن في العربيَّة تسعة وعشرين حرفًا ، منها خمسة وعشرون صحاحًا ، لها أحياز ومخارج ، وأربعة هوائية وهي الواو والياء والألف اللينة والهمزة . (لسان العرب : ٢/ ٦٣٩) .

فالحروف الصحاح هي ما يسمىٰ عند المحدثين بالأصوات الصامتة . وقد سبق أن بُيِّن خطأ هذا المصطلح ؛ إذ كيف يكون الصوت صوتًا وهو صامت؟ فالصمت عكس التصويت أو إصدار الصوت ، وهذا خطأ لم يقع فيه اللُّغويون القدماء ، فسموها جملة بالحروف ، وهي التي لها أحياز ومخارج . أما القسم الثاني فهو يشمل الأصوات اللَّينة والحركات الثلاث .

فالأصوات الساكنة ، إما أن ينحبس فيها الهواء انحباسًا محكمًا فلا يسمح له بالمرور برهة من الزمن ، ثم يخرج دفعة واحدة . أو أن يضيق مجراه ، فيخرج الصوت محدثًا صفيراً أو حفيفًا . أما في حالة الأصوات اللَّينة ، فإن مجرىٰ الهواء يكون متسعًا ، ولا يعوق الصوت الخارج عائق . وهكذا سمىٰ الأقدمون هذه الأصوات بالأصوات الهوائية .

وقد صور ابن جنِّي مخارج الأصوات تصويراً دقيقًا ، حيث عقد لذلك فصلًا كاملًا أسماه « ذوق أصوات الحروف » في كتابه (سر الصناعة ١/ ٤٢) . حيث يشرح كيفية تذوق الأصوات ومحاولة نطقها . ثم يحدد ابن جنِّي ببراعة متناهية خواص الحروف المختلفة ؛ من حيث كيفية مرور الهواء حال النطق بها . فيذكر أن الهواء قد يقف وقوفًا تامًا فلا يجد الصوت منفذاً هناك . أو قد ينسل الصوت

من خلال طريق ضيق محدثاً حفيفاً . ثم ينتقل ابن جنِّي ليحدد معالم أصوات المدَّ فيقول : إن الهواء حال النطق بها(أي اصوات المد) يمتد خلال مجراه ويستمر في الامتداد ، لا يقطعه شيء ، ولا يمنع استمراره أي عارض ، ولا ينتهي هذا الهواء ، إلا بانتهاء تطور الصوت نفسه .

الأصوات المجهورة والمهموسة :

تقسم الأصوات الساكنة إلىٰ مجموعات بحسب وضع الأوتار الصوتية ، وبعبارة أخرىٰ بحسب ذبذبة هذه الأوتار ، أو عدم ذبذبتها حال إصدار تلك الأصوات .

ففي الحالة الأولىٰ ، ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض أثناء مرور الهواء من الرئتين ، بحيث يسمحان له بالخروج دون أن يقابله أي اعتراض ، فلا يتذبذب ولا يهتز الوتران الصوتيان . وفي هذه الحالة يصدر الصوت -كما يقولون- مهموساً (Voiceless) . والأصوات المهموسة في العربيَّة اثنا عشر صوتاً هي : التاء ، الثاء ، الحاء ، الخاء ، السين ، الشين ، الصاد ، الطاء ، الفاء ، القاف ، الكاف ، والهاء .

وفي الحالة الثانية ، وهي حالة الأصوات المجهورة ، فإن الوترين الصوتيين يقتربان بعضهما من بعض ، لحظة مرور الهواء ، أثناء النطق بالصوت المعني . فيضيق الفراغ بينهما حيث يسمح بمرور الهواء ، ولكن مع إحداث اهتزازات وذبذبات منتظمة لهذه الأوتار . وفي هذه الحالة يحدث ما يسمىٰ بظاهرة الجهر . وعليه يسمىٰ الصوت المنطوق بهذه الصورة صوتاً مجهوراً (Voiced) . فالصوت المجهور إذن هو الصوت الذي تتذبذب الأوتار الصوتية حال النطق به . والأصوات المجهورة في العربيَّة ثلاثة عشر صوتاً هي : الباء ، الجيم ، الدال ، الذال ، الراء ، الزاي ، الضاد ، الظاء ، العين ، الغين ، اللام ، الميم ، النون .

إضافة إلىٰ أصوات اللين والتي تشمل الألف والواو والياء .

شدة الصوت ورخاوته :

ترتبط مسألة شدة الصوت ورخاوته بهمس الصوت وجهره ، أي بضيق مجرىٰ النفس أثناء الكلام واتساعه . فحين يضيق مجرىٰ النفس تسمع صفيراً أو حفيفاً ، ويتسع حيناً اخراً فلا تكاد تسمع شيئاً . وقد ينحبس في مكان ما لحظة قصيرة جداً ، ثم ينطلق بعدها بقوة محدثاً دوياً . وهكذا تتكون ثلاثة أنواع من الأصوات : تلك التي يضيق معها مجرىٰ النفس ، وتلك التي يتسع لها المجرىٰ ، وأخيراً تلك التي يحدث النفس معها دوياً . فأما التي ينحبس معها الهواء انحباساً تاماً ثم تخرج فجأة ، فتعرف بالأصوات الشديدة ، وذلك مثل صوت الباء والتاء والقاف والكاف .

أما في حالة عدم انحباس الهواء انحباساً محكماً ، وإنما يكتفي بأن يكون مجراه ضيقاً جداً فيخرج النفس محدثاً نوعاً من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته باختلاف ضيق المجرىٰ ، فإن الأصوات الصادرة في مثل هذه الحالة تسمىٰ بالأصوات الرخوة . والأصوات العربيَّة الرخوة مرتبة حسب مرتبة رخاوتها هي : السين ، الزاي ، الصاد ، الشين ، الذال ، الثاء ، الظاء ، الفاء ، الهاء ، الحاء ، الخاء والعين (الكتاب : ٢/ ٤٠٦) .

وهناك أصوات تقع بين الرخاوة والشدة وهي ما تعارف اللُّغويون المحدثون علىٰ تسميتها بالأصوات المائعة (بشر ، ١٩٨٧م) وسماها القدماء بالأصوات المتوسطة ، وهي تشمل : اللام ، والميم والنون والراء . وتسمية الأقدمين أوفق .

والمعلوم أن لبعض الأصوات الشديدة نظائر رخوة . وذلك مثل : الزاي والذال ، والكاف والقاف ، والتاء والدال .

الأصوات حسب مواضع نطقها :

تنقسم الأصوات إلىٰ مجموعات بحسب مواضع النطق بها ، أو حسب مخارجها . ويقصد بمخارج الأصوات ، الأماكن التي تخرج منها تلك الأصوات ، أو نقاط التقاء عضو بآخر حين إصدار صوت معين . وفيما يلي تحديد لمخارج الأصوات الرئيسة في اللُّغة العربيَّة ، وذلك حسب تصنيف بشر (١٩٨٧) :

١ - أصوات شفوية : وهي التي يكون للشفتين أحدهما أو كلاهما دور بارز في إنتاجها أو النطق بها . وهي تشمل الباء والميم . ويضاف إليهما صوت الواو أحياناً .

٢ - أصوات أسنانية - شفوية : وهذه هي التي يتم النطق بها بالتقاء الشفة السفلىٰ بالأسنان العليا . ويمثل هذه المجموعة في اللُّغة العربيَّة صوت الفاء فقط .

٣ - أصوات أسنانية : وينحصر مخرجها بين أول اللِّسان أي (طرفه) ، والثنايا العليا وأصولها . وتشمل هذه المجموعة حروف الذال والثاء والظاء .

٤ - أصوات أسنانية- لثوية : وهذه تشمل الدال والضاد والطاء واللام والنون .

٥ - أصوات لثوية : وهي التي يتم إنتاجها بالتقاء مقدمة اللِّسان باللثة . ولذا سميت هذه الأصوات باللثوية . وهي تشمل صوت الزاي والسين والصاد .

٦ - الأصوات الشجرية : ويعنىٰ بها الأصوات التي تصدر من وسط الفك الأعلىٰ . وهذه تشمل صوت الجيم وصوت الشين وصوت الياء .

٧ - أصوات أقصىٰ الفك الأعلىٰ : وهذه تصدر عن صعود الجزء الخلفي من اللِّسان والتقائه بأقصىٰ الفك الأعلىٰ . وتشمل هذه صوت الخاء والغين والكاف .

٨ - أصوات لهوية : وهي التي تصدر عن التقاء مؤخرة اللِّسان مع اللّهاة ، ويمثلها صوت القاف .

٩ - أصوات حلقية : وهي التي مصدرها الحلق . وهذه تشمل صوتي العين والحاء .

١٠ - أصوات حنجرية : وهي التي تصدر عن الحنجرة . وتشمل صوتي الهمزة والهاء .

وقد تحدث علماء العربيَّة حديثاً وافياً ودقيقاً عن مخارج الأصوات . وممن تحدثوا وأوفوا في هذا المجال ، الخليل بن أحمد ، وتلميذه سيبويه ، وابن جنِّي ، والرئيس ابن سيناء . ولا بأس هنا أن يُستعرض تصنيف ابن جنِّي الذي اتسم بدقة متناهية ، وشمولية لا تفوت علىٰ صاحب فكر وبصيرة . وفي هذا الشأن يذكر ابن جنِّي (سر الصناعة ١/ ٢٠) ما يلي :

« اعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر . ثلاثة منها في الحلق :

١ - فأولها من أسفله وأقصاه مخرج الهمزة والألف والهاء .

٢ - ومن وسط الحلق ، مخرج العين والحاء .

٣ - ومما فوق ذلك مع أول الفم مخرج الغين والخاء .

٤ - ومما فوق ذلك من أقصىٰ اللِّسان مخرج القاف .

٥ - ومن أسفل من ذلك وأدنىٰ إلىٰ مقدم الفم مخرج الكاف .

٦ - ومن أول حافة اللِّسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد . « إلا أنك إن شئت تكلفها من الجانب الأيمن ، أو إن شئت من الجانب الأيسر ، أو من كليهما » .

٨ – ومن حافة اللِّسان من أدناها إلىٰ منتهىٰ طرف اللِّسان من بينها وبين ما يليها من الفك الأعلىٰ ، مما فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام .

٩ – ومن طرف اللِّسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون .

١٠ – ومن هذا المخرج ذاته غير أنه أدخل في ظهر اللِّسان قليلًا مخرج الراء .

١١ – ومما بين طرف اللِّسان وأصول الثنايا ، مخرج الطاء والدال والتاء .

١٢ – ومما بين الثنايا ، وطرف اللِّسان ، مخرج الصاد والزين والسين .

١٣ – ومما بين طرف اللِّسان وأطراف الثنايا (العليا والسفلىٰ) مخرج الظاء والذال والثاء .

١٤ – ومن باطن الشفة السفلىٰ وأطراف الثنايا العليا ، مخرج الفاء .

١٥ – ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو .

١٦ – ومن الخياشيم مخرج النون الساكنة والميم » .

من خلال هذا التقسيم الذي وضعه ابن جنِّي ، ترىٰ قوة ملاحظته وحدة ذكائه النادر . ويعلق بشر (١٩٨٧م) علىٰ هذا التصنيف قائلًا : « والحقّ إن النتائج التي وصل إليها هذا العالم في (ذلك الوقت) الذي كان يعيش فيه لتعد مفخرة له ، وللفكر العربي في هذا الموضوع » (ص ٩٥) .

ومما يؤكد براعة الأقدميين ونبوغهم في هذا العلم ، أنهم قد توصلوا إلىٰ ما توصلوا إليه من حقائق مدهشة ، وأوصاف دقيقة دون استخدام أجهزة متقدمة ، ولا تقنيات حديثة كما يفعل باحثو اليوم .

ومما تفرد به علماء اللُّغة العربيَّة الأقدمون ، أنهم رتبوا الأصوات حسب

مخارجها ترتيباً تصاعدياً ، بينما درج المحدثون علىٰ ترتيبها ترتيباً تنازلياً ، أي ابتداء من الشفتين وانتهاءً بالحروف الحلقية . مقلدين بذلك علماء اللُّغة الغربيين ، ناسين أن تقسيم الأصوات تصاعدياً هو تقسيم منطقي ، يخضع لحركة الصوت الذي ينشأ في الأحياز الدنيا في الجهاز النطقي ، ثم يتقدم نحو الأحياز العليا ، ليتم تشكيله والنطق به . وهذا ما ذهب إليه علماء العربيَّة الذين رتبوا الأصوات تصاعدياً أي ابتداءً من أقصىٰ الحلق إلىٰ الشفتين . وبناءً علىٰ هذا المبدأ رتب ابن جنِّي الأصوات في كتابه سر الصناعة (١/ ١٧) كما يلي : -

« الهمزة - والألف - والهاء- والعين - والحاء - والغين - والخاء - القاف - الكاف - الجيم والشين والياء - الضاد - اللام - الواء - النون - الطاء والدال - التاء - الصاد والزين والسين - الظاء والذال والثاء - الفاء - والميم والواو » .

زعم بعض المحدثين تبدل الأصوات العربيَّة :

زعم بعض اللُّغويين المحدثين ، وبناءً علىٰ الوصف الذي وضعه الأقدمون لأصوات اللُّغة العربيَّة ، أن تغييراً قد طرأ علىٰ هذه الأصوات في الوقت الحاضر . وفي هذا الإطار يذهب بشر (١٩٨٧م) إلىٰ القول بأن تطوراً قد طرأ علىٰ أصوات الطاء والضاد والكاف والقاف .

وهذا رأي غير صحيح . وسبب عدم صحته أن القائلين به ربما نظروا إلىٰ هذه الأصوات كما تنطق في اللهجات المحلية ، أو كما ينطقها بعض المتحدثين بالعربيَّة خطأ في الزمن الحاضر ، متأثرين بلهجاتهم المحلية . فأصوات اللُّغة العربيَّة لم تتبدل ، ولم تتغير . ولكن بالطبع لا أحد يزعم أن الجميع ينطقون بها بصورة واحدة . ولكن هناك معايير عامة للنطق بهذه الأصوات ، وهذه المعايير ظلت ثابتة بعمومياتها حتىٰ يومنا هذا . وسوف تظل هكذا إن شاء الله . أما التغيير

النسبي الذي يرافق إنتاج بعض الأصوات ، كأن يصبح صوتٌ ما أكثر رخاوة أو أكثر شدة ، أو أقل تفخيماً أو ترقيقاً ، فهذا أمر عادي ومعروف في كل البيئات اللُّغوية . وهو الذي يتخذ معياراً لتحديد اللهجات ، بما في ذلك اللهجات الشخصية . وهو الذي من خلاله يُميَّز كلام شخص عن آخر من نفس البيئة اللُّغوية .

فأصوات اللُّغة العربيَّة ، كما وصفها الأقدمون ، تظل المعيار الذي تقاس عليه صحة النطق بالأصوات . وهذا المعيار يظل النموذج الذي يقترب منه الناطقون بالعربيَّة في الأزمان والبلدان المختلفة ، أو يبتعدون بمقدار إجادتهم للنطق بهذه اللُّغة . فبقدر ما تحرر المتحدثون بالعربيَّة من سلطان لهجاتهم المحلية ، أو لغاتهم الأم ، بقدر ما اقتربوا من هذا النموذج المثالي .

أما بعض المحدثين الذين يتحدثون عن تَغيُّر أصوات اللُّغة العربيَّة ، كأمر حتمي ، فهم واهمون . أو أنهم متأثرون بنظريات اللُّغويين الغربيين . ويريدون أن يقحموا بعض الظواهر التي مرت بها اللُّغات الغربية ويطبقوها علىٰ اللُّغة العربيَّة . وهذه في نظر الباحث محاولات مردودة ، لم تراع خواص اللُّغة العربيَّة وسماتها المتفردة ، والتي ظلت أصواتها ثابتة ، وصيغها وتراكيبها مرنة راسخة ، حتىٰ وصلت إلينا معبرة عن تاريخ ضارب في القدم ، وتراث عريق ، تنطق علىٰ ألسنتنا ، كما كانت تنطق علىٰ ألسنة الأقدميين ، دون أن تستغرب ، أو تستعجم ، ولم يصبها التغيير ، رغم تطاول العصور وتتابع الأجيال . وهذا أمر نادر الحدوث في عالم اللُّغات ، لم يسجله التاريخ إلا للغة العربيَّة .

أما التنوع في النطق بالصوت الواحد ، فهو أمر طبيعي . وهو أكثر وضوحاً في اللَّهجات الإقليمية أو المحلية للغة الواحدة ، بل يوجد ذلك حتىٰ علىٰ المستوىٰ الشخصي ؛ حيث إن الأفراد يختلفون بصورة ملحوظة في إنتاج بعض الأصوات .

بل إن الشخص الواحد يمكن أن ينطق الصوت الواحد بصور متنوعة ، لكنها تضارع النموذج المثالي لطريقة النطق بالصوت المعين . والأهم من ذلك كلّه أن هذا التنوع لا يغيِّر في معنىٰ الكلمة المنطوقة ، ولا يقف حاجزاً في طريق فهمها ، وإدراك مرماها . وهذا النوع معروف لدىٰ اللُّغويين المحدثين ، ويسمىٰ بالألفونات . فالألفونات تعبر عن نطق الصوت الواحد بطرق متنوعة . وذلك مثل الراء المفخمة والمرققة ، واللام وما قد يصاحب نطقها من تفخيم وترقيق ، ونطق صوت الألف ممالًا أو بغير إمالة ، كما هو الحال في بعض اللهجات العربيَّة الفصيحة .

خلاصـــــة :

مما سبق يمكن القول بأن الأصوات اللُّغوية هي ظواهر طبيعية ، يدرك أثرها من خلال الأذن ولا يدرك كنهها . ويتكون الصوت -أي صوت- باهتزاز جسم ما ، وتنتقل هذه الهزات لتصل إلىٰ السامع فيدركها من خلال حاسة السمع أو الأذن .

والمعلوم أن الحنجرة هي مصدر الصوت الإنساني . ويعتبر اهتزاز الأوتار الصوتية الكائنة في الحنجرة مصدراً أساسياً في تكوين الصوت البشري . ثم ينتقل الصوت خلال الجهاز النطقي فتتشكل الأصوات اللُّغوية بناءً علىٰ حركة اللِّسان والشفتين وبقية أعضاء جهاز النطق .

صنف اللُّغويون الأصوات اللُّغوية بناءً علىٰ معايير كثيرة ، وذلك من خلال شدة الصوت ورخاوته وحدته . فقسموها إلىٰ أصوات مهموسة ومجهورة . كما صنفوها بناء علىٰ مخارجها التي تنفذ منها ، أو التي تشكلها في الجهاز النطقي . وهناك تصنيف آخر يعتمد علىٰ سكون الأصوات وحركتها ، وطولها وقصرها .

وأهم هذه التصنيفات ، هو ذلك الذي يعتمد علىٰ مخارج الأصوات . وهنا يجب الاعتراف بأن علماء اللُّغة العربيَّة الأوائل ، مثل الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وابن جنِّي ، والشيخ الرئيس ابن سيناء ، قد اهتدوا إلىٰ معايير فائقة في الدقة لتصنيف الأصوات ، وتحديد مخارجها . وأن اللُّغويين المحدثين في الغرب والشرق لم يتعدوا هذه المقاييس التي وضعها علماء العربيَّة الأقدمون قيد أنملة ، رغم اعتمادهم علىٰ مخترعات تقنية متقدمة مثل أشعة اكس ، والتصوير المقطعي ، ورغم اعتمادهم علىٰ علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء .

وقد لوحظ أن بعض اللُّغويين العرب المعاصرين قد ترسموا خطىٰ اللُّغويين الغربيين ، ولم يتورعوا في كثير من الأحيان من ازدراء التراث العربي الإسلامي الفخم في هذا المجال . ومن المؤسف حقـاً أن كثيراً منهم لم يوفقوا في إدراك الطبيعة المتفردة للغة العربيَّة ، وساروا في ركاب الغربيين والذين لم ينكر بعضهم استفادته من تراث العرب في الدراسات اللُّغوية . وهكذا جاءت بحوث كثيرٍ من اللُّغويين العرب المعاصرين ، مشوهة ممسوخة ، مملوءة بالأخطاء الناتجة عن الترجمة الحرفية غير الدقيقة لبعض المصطلحات التي استخدمها الغربيون . وذلك مثل مصطلح الأصوات الصامتة ، وهي ترجمة حرفية للكلمة اللاتينية (consonants) . جاء في قاموس اكسفورد : (١٩٧٦ : ١٣٢) أن كلمة (consonants) هي كلمة تطلق علىٰ الأصوات التي يصاحب نطقها انحباس جزئي أو كلي للنفس في الجهاز النطقي . والحقيقة أن هذا التعريف يوافق ما قال به علماء العربيَّة الأقدمون الذين تحدثوا عن انحباس النفس كلياً أو جزئياً في أحياز الجهاز النطقي المختلفة . وهذه هي الحال في إنتاج جميع الحروف ما عدا حروف اللين (الألف والياء والواو) والتي سماها الأقدمون بالحروف الهوائية ، أي أنه ليس لها مخارج محددة . فالنفس فيها يخرج منساباً من الجوف دون أن

يحبس كليًا أو جزئيًا . وهكذا كانوا موفقين جداً في هذا التصنيف ومنسجمين تمامًا مع مقتضيات العلم الحديث خلافًا للغويين العرب المحدثين .

عمومًا فان أصوات اللُّغة العربيَّة تشمل ثمانية عشرين صوتًا ساكنًا ، إضافة إلىٰ ثلاث حركات ، تتوزع توزيعًا عادلًا علىٰ قطاعات جهاز النطق المختلفة . وهي بمجملها أصوات واضحة متمايزة لانها تخرج من أطول مدرج صوتي عرفته لغة إنسانية ، ولكنها تشترك في معظم خصائصها مع أصوات اللُّغات الإنسانية الأخرىٰ . وهي يسيرة وسهلة النطق عدا بعض الأصوات الحلقية والتي قد يشكل نطقها تحديًا لمتعلميها من متحدثي بعض اللُّغات التي تخلو من هذه الأصوات . وحتىٰ هذه ، فإنه بشيء من المران والممارسة الموجهة ، يمكن لمتعلم العربيَّة أن ينطقها بصورة سليمة وصحيحة .

إن أهم ما يميِّز أصوات اللُّغة العربيَّة ، هو ثباتها واستقرارها علىٰ حالها ، لم تتغير ولم تتبدل مع مرور السنين والعصور . وإن العربيَّة لم تفقد أيًا من أصواتها . أما التنوع النسبي في النطق ببعض تلك الأصوات ، فهو أمر طبيعي ، عرف منذ أن عرفت اللُّغات . ولا يمكن أن يتصور أن الناس كلهم ينطقون الأصوات بطريقة واحدة . وإلا لما كان ممكنًا أن تُميَّز لهجة زيد عن لهجة عمرو .

أما اللُّغات الأخرىٰ المعاصرة ، فأصواتها تتبدل وتتحور بل وتموت تمامًا . فيبقىٰ رسمها ويختفي نطقها ، كما سيأتي بيانه ، إن شاء الله ، في أصوات اللُّغة الإنجليزيَّة مثالًا لبعض اللُّغات المعاصرة .

أصوات اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة :

اللُّغة الإنجليزيَّة المتحدثة اليوم هي لغة حديثة التكوين . وهي تكاد تكون من أصغر اللُّغات عمراً وتاريخًا ، إذ بدأ تشكلها بعيد القرن السادس عشر

الميلادي . أما ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، فهي لغة ميتة لا يعرفها أحد في عالم اليوم ، ولم تكن لها أبجدية مكتوبة . وقد جرت أول محاولة لكتابة الإنجليزيَّة علىٰ يد الهولنديين . ولما لم تكن هناك أبجدية إنجليزية ، فقد عمد هؤلاء الكُتَّاب إلىٰ الاعتماد علىٰ الحروف اللاتينية وهي المستخدمة في كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة حتىٰ اليوم .

واللُّغة الإنجليزيَّة هي لغة ذات أصول جرمانية . حيث تتكون في الأصل من مجموعة من لغات الشعوب الجرمانية ، التي غزت الجزر البريطانية بعد أن عبرت بحر الشمال من جهة الشمال والشرق من سكسونيا والجزر الاسكندنافية في منتصف القرن الخامس . وبعد ذلك تكونت اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة من خليط من لغات تلك القبائل الجرمانية الغازية والمتمثلة في لغة الجوت والساكسون والانجليز ، والتي اختلطت بلغات سكان الجزر البريطانية من الولش والاسكتلنديين والإيرلنديين ، والتي تتحدث لغات خاصة بها تعرف إجمالًا باللُّغات السلتية (Celtic Languges) . ثم تبع ذلك هجرات مجموعات أخرىٰ من القبائل الجرمانية من جهة الشمال ، من الجزر الأسكندنافية والذين عرفوا برجال الشمال .

من هذا الخليط العجيب من اللُّغات المختلفة ، تكونت اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، والتي ظلت لغة متحدثة بلهجات مختلفة في طول الجزر البريطانية وعرضها . ثم تعرضت الجزر البريطانية لغزو آخر من قبل النورمنديين ، حيث استولىٰ حاكم نورمنديا علىٰ الجزر البريطانية ، وفرض سلطانه عليها في عام ١٠٦٦م ، كما فرض لغته لغة رسمية للدولة . ونورمنديا هذه مقاطعة فرنسية في الأصل ، ولكنها مستقلة عن فرنسا . وبذلك أصبحت اللُّغة الفرنسية هي اللُّغة الرسمية ، وتراجعت اللُّغة الإنجليزيَّة لتكون لغة للعامة والزراع والفلاحين .

وظل هذا الحال حتىٰ العام ١٢٠٠م ، حيث انفصل النبلاء النورمنديون في بريطانيا عن الوطن الأم في نورمنديا . وتبعاً لذلك انحسر التأثير الثقافي والسياسي لنورمنديا علىٰ بريطانيا ، مما أتاح الفرصة لعودة تدريجية للغة الإنجليزيَّة لمسرح الحياة العامة ، ولكن بعد أن تأثرت تأثراً عميقاً باللُّغة الفرنسية ، حيث استعارت الإنجليزيَّة أكثر من (٥٠٪) من مفردتها من الفرنسية . وهنا نشأ ما يسمىٰ باللُّغة بالإنجليزيَّة الوسيطة ، والتي كانت خليطاً من الإنجليزيَّة القديمة والفرنسية . استمر هذا الحال حتىٰ القرن الرابع عشر ، حيث تبلورت اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة وهي اللُّغة التي كتب بها شاعر الإنجليز الكبير جوسر أشعاره وأقاصيصه التي عرفت بأقاصيص كانتربري (CANTER BURRY TALES) .

التحول الصوتي العظيم (عودة علىٰ بدء) :

منذ بداية القرن الخامس عشر ، تعرضت اللُّغة الإنجليزيَّة إلىٰ ظاهرة غريبة من نوعها عرفت بالتحول العظيم في أصوات المد . وكان هذا التحول فجائياً ومحيراً للباحثين في مجال الدراسات الصوتية .

وبموجب هذا الحدث اللغوي الغريب ، تحولت جملة أصوات المد الطويلة إلىٰ أصوات قصيرة ، ثم إن كل الأصوات الخلفية تقدمت لتصبح أصواتاً أمامية . كما فقد حرف الـ " e " قيمته الصوتية تماماً في آخر الكلمة ، مثل ما هي الحال في كلمة name والتي كانت تنطق " / nam-aَ / (Crystal ، 1995) .

ولم ينحصر هذا التحول علىٰ أصوات المد ، بل إن بعض الأصوات الأخرىٰ من غير حروف المد ، لحقها بعض التبدل والحذف أحياناً . حيث اختفت من الإنجليزيَّة بعض الأصوات الحلقية . فأسقطوا صوت « الخاء » في القرن السابع عشر . وكان هذا الصوت يُمثل بحرفين من حروف الهجاء ، وهما الـ " gh " .

فكلمة "light" الحالية والتي تنطق « لايت » كانت تنطق « لِخت » ، وكلمة "night" (نايت) كانت تنطق (نِخت) ، وهكذا الحال مع كثير من الكلمات التي تتضمن هذا الصوت ، أي صوت الخاء(Baugh & Cable ، 1993).

والغريب في الأمر أن هذا الصوت حذف من اللُّغة المنطوقة ، ولكنه بقي في اللُّغة المكتوبة ممثلًا بحرفي "gh" . وفي مرحلة لاحقة ، استثقل الانجليز صوت الراء فأُسقط أيضـًا ، اللّهم إلا إذا وقع في بداية الكلمة ، أو بين صوتين من أصوات المد . أما في الحالات الأخري مثل كلمة "Teacher " و " doctor " و"turn" فهي تنطق بدون حرف "r" الواقع في نهاية الكلمة أو في وسطها .(Crystal ، 1995)

ونتيجة لهذا التغيير والتحول الكبير في النظام الصوتي في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فقد تبدل نطقها بصورة كبيرة ، حتىٰ أصبح من العسير أو المستحيل علىٰ متحدث اللُّغة الإنجليزيَّة اليوم ، فهم اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة إذا نطقت حسبما كانت تنطق في زمانها ، أي قبيل القرن الخامس عشر . ولم يعد في مقدور الناطق بالإنجليزيَّة اليوم ، فهم أشعار شاعرهم الكبير جفري جوسر " Jeffery Chaucer" ، الذي كتب أشعاره وأقاصيصه المعروفة بأقاصيص كانتر بري "Canterbury Tales" في القرن الرابع عشر .

الواقع إن تغيير أصوات اللُّغة الإنجليزيَّة لم ينحصر في مرحلة التحول الصوتي العظيم "Great Vowel Shift" ، ولكنه استمر حتىٰ خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . ولذلك التغيير أسباب يلخصها اسكوت (٢٠٠٨م) فيما يلي : اتصال البريطانيين بشعوب عديدة أخرىٰ فيما بعد القرن السادس عشر ، ودخول ما يعرف بعصر التنوير ، وانتشار الدراسات الكلاسيكية ، والثورة الصناعية والعلمية التي انتظمت البلاد .

والمعروف عن اللُّغة الإنجليزيَّة فيما قبل هذه المرحلة أنها كانت لغة للعامة ،

ولم يكن لها شأن يذكر في فضاءات العلوم والآداب . وبدخول عصر التنوير وإطلالة العلوم الكلاسيكية ، لم تكن اللُّغة الإنجليزيَّة مؤهلة للتعاطي مع ذلك التراث العلمي . ولذلك كانت اللاتينية هي لغة العلم والثقافة والدين والقضاء والقانون إجمالًا . وقد أُنشئت جامعة أكسفورد العريقة منذ القرن الرابع عشر ، ولكن لم تكن تستخدم اللُّغة الإنجليزيَّة لغة للتدريس . كما أن الكثدرئيات والمجامع الكنسية لم تكن تستخدم الإنجليزيَّة لغة لنشر تعاليمها أو أداء صلواتها . ولكن مع تطور النزعة القومية التي انتظمت أوربا الغربية في القرن السادس عشر ، فقد ظهرت ميول قوية لتبني اللُّغة الإنجليزيَّة في المحافل الرسمية والعلمية . واستجابة لهذا المد القومي المتنامي ، فقد قام الملك إدوارد الثالث ولأول مرة بمخاطبة البرلمان- برلمان بريطانيا- باللُّغة الإنجليزيَّة بعيد منتصف القرن الرابع عشر ، وتحديداً في العام ١٣٦٢م . وبالتدريج تنامت اللُّغة الإنجليزيَّة لتستخدم في دور القضاء ، والدوائر العلمية والأكاديمية . ولكن كانت هناك مشكلة قصور اللُّغة الإنجليزيَّة ، والتي ذُكر أنها لم تكن لغة علم أو ثقافة أو آداب ، بقدر ما أنها لغة للعامة والزراع والرعاة .

ولهذا السبب ، فقد اعتمدت الإنجليزيَّة علىٰ الاستلاف بلا تحفظ من اللُّغات الكلاسيكية ، مثل اللاتينية والإغريقية ، للتعبير عن المفاهيم العلمية والأدبية والفلسفية الجديدة التي لم تكن اللُّغة الإنجليزيَّة مؤهلة للتعبير عنها بحكم محدوديتها ، وانحصار تداولها واستخدامها علىٰ طبقات المجتمع الدنيا .

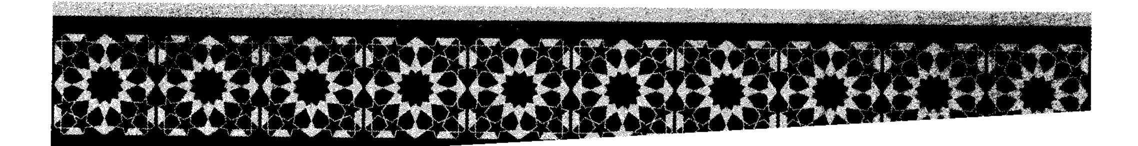
إن هذا الاستلاف غير المحدود من اللُّغات الأخرىٰ ، قد أحدث تغييراً جوهرياً في نظام اللُّغة الإنجليزيَّة كلِّه ، وشمل ذلك نظامها المعجمي والصرفي والنحوي والصوتي . والمهم هنا بالطبع التغيير الكبير الذي طرأ علىٰ النظام الصوتي في اللُّغة الإنجليزيَّة ، حيث وفدت إليها أصوات لم تكن موجودة فيها

أصلًا ، واختفت أصوات أخرىٰ كانت منطوقة ، وتعدلت أصوات واختلف نطقها قليلًا أو كثيراً عما كانت عليه في السابق ، ويتمثل هذا الأخير في ترقيق بعض الأصوات ، وتقدم مخارجها إلىٰ الأمام ، وخروجها من الفم بدلًا عن خروجها من الحلق أو الخياشيم . كما قصرت كثير من الأصوات التي كانت طويلة نسبياً . حدث هذا كله قبيل نهاية القرن السابع عشر .

ثم جاءت مرحلة الإمبراطورية البريطانية (العظمىٰ) ، التي تمددت فيها الإمبراطورية في مشارق الأرض ومغاربها ، حتىٰ غطت ربع مساحة الكرة الأرضية في القرن الثامن عشر .

ومن الغريب هنا أنه بينما حاولت بريطانيا نشر لغتها وثقافاتها وفرضها علىٰ الشعوب المحتلة ، فإن اللُّغة الإنجليزيَّة وبوصفها لغة غير مكتملة النمو ، قد استعارت- وبلا تحفظ- ، من كافة لغات الشعوب المغلوبة علىٰ أمرها ، حتىٰ بلغ عدد اللُّغات التي استعارت منها الإنجليزيَّة أكثر من اثنتين وثمانين لغة Crystal)، (1995 . ومما لاشك فيه ، فإن المفردات الجديدة التي استعارتها الإنجليزيَّة من لغات الشعوب المغلوبة أو المستعمرة ، تحمل أصواتاً مختلفة عن منظومة الأصوات الإنجليزيَّة . وقد أحدث هذا الأمر تغيرات إضافية في النظام الصوتي في اللُّغة الإنجليزيَّة . وترتب علىٰ هذه التبدلات والتحولات الصوتية ، ظهور لغة جديدة تختلف تماماً عن اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، واللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة التي لم يعد يفهمها أحد من المتحدثين بالإنجليزيَّة الان .

ومما يجدر ذكره أن هذه الظاهرة ؛ أي ظاهرة التحول الصوتي ، لم تنجُ منها كثير من اللُّغات الأوربية ، مثل الفرنسية والألمانية والإسبانية والايطالية . والدليل علىٰ ذلك الاختلاف الملحوظ بين نظم تلك اللُّغات في الكتابة ، وطريقة نطقها ؛ حيث إن كثيراً من تلك اللُّغات تكتب بطريقة ، وتنطق بطريقة أخرىٰ



مغايرة تماماً لطريقة نطقها . والسبب في ذلك تبدل نطق تلك اللُّغات ، وعدم مسايرة النظام الكتابي لتلك التغيرات .

نقطة للمقابلة :

بمقارنة هذه الحال مع وضع اللُّغة العربيَّة ، يُدرك الباحث تماماً أن الفرق شاسع جداً والبون عظيم ، والاختلاف جوهري . فنظام اللُّغة العربيَّة الصوتي نظام ثابت راسخ لم يتغيَّر ولم يتبدل ولم يتحول ، ولم يتعدل منذ عرفت هذه اللُّغة قبل قرون سحيقة ، الأمر الذي مهد لتواصل عجيب بين أجيالها علىٰ مر السنين والأعوام . فيقرأ القارئ العربي أو متعلم العربيَّة ، الأدب الجاهلي فيفهمه ويهضمه ويطرب له ، وينفعل به ، ويتفاعل معه ، بل وينظم علىٰ مناهجه شعراً ونثراً . ويتلو طفل المرحلة الأبتدائية قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيفهم ويعي ، ويدرك دون الحاجة لشرح معنىٰ الآية الكريمة . أو يسمع حديث رسوله الكريم ﷺ « بُني الإسلام علىٰ خمس... » ، فيفهم ويدرك ويؤمن ويطبق ، دونما حاجة إلىٰ تفسير أو تأويل أو قاموس .

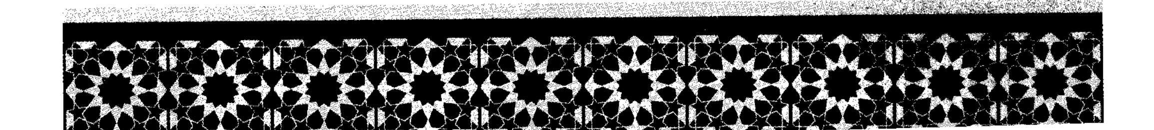
أما في اللُّغة الإنجليزيَّة فالأمر جد مختلف ، انظر إلىٰ هذا النص من الإنجليزيَّة الوسيطة المتحدثة في القرن الرابع عشر والخامس عشر أي قبل ستة قرون فقط .

Oure fadir? at art heuenes halwid be ? I name;

?i reume or k yngdom come to be .

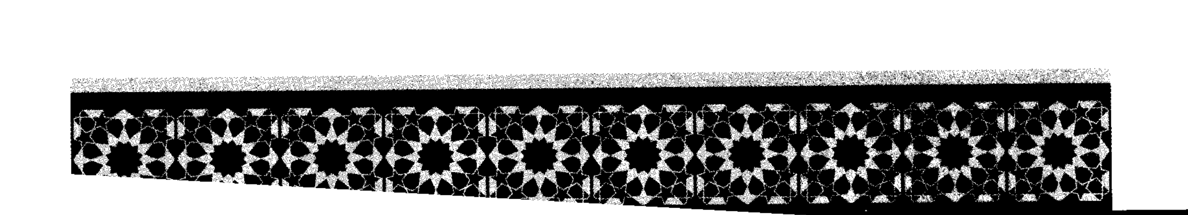
Be ?i wille don in her ? e asitis doun in heuene .

en . wikipedia . org/wiki/Résumé

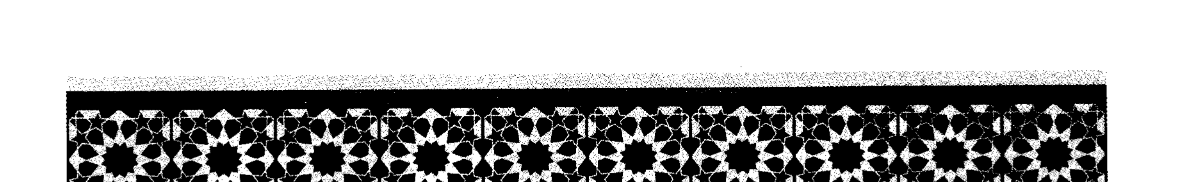


وهنا يجوز للباحث أن يسأل المتحدثين بالإنجليزيَّة اليوم من أهلها ، أو من الذين درسوها ونالوا فيها أعلىٰ الدرجات العلمية ، كم فهموا من النص السابق ، والذي لم يمض علىٰ تأليفه أكثر من أربعة قرون؟

وهذا عكس الوضع في اللُّغة العربيَّة التي تعتبر دوحة راسخة الجذور ثابتة الأصول ، تكفل تواصل الأجيال علىٰ مر العهود والدهور ، محفوظة مصونة ، ومعجزة مكنونة برعاية ربانية كريمة ؛ فلم يصبها ما أصاب لغات الكون الأخرىٰ من تبدل وتحور وشيخوخة وموت . وهكذا سوف تظل محفوظة مصونة بإذن ربها ، حتىٰ يقضي الله أمراً كان مفعولا .



الفصل الخامس :
الكتابة في اللُّغة العربيَّة
ومقابلتها باللُّغات الأخرىٰ



مدخل :

يفترض الباحثون في علم اللُّغة أن الإنسان قضىٰ قرونـًا عديدة استخدم فيها اللُّغة شفاهة قبل أن يهتدي إلىٰ مرحلة الكتابة . وتعتبر الكتابة اكتشافـًا متأخراً في تاريخ تطور اللُّغات ، بل إن هناك لغات كثيرة لم تعرف النظام الكتابي إلا في عصور متأخرة جداً ، وإن هناك لغات الآن ليس لديها نظم كتابية ، كما هو الحال في عدد من اللُّغات الإفريقية المعاصرة . وكم من لغة زالت قبل أن تعرف الكتابة ، فما استطاع اللُّغويون أن يعرفوا عنها شيئـًا أو أن يجدوا لها أثراً .

والكتابة رمز للغة ، كما أن اللُّغة رمز للفكر . وهي في مجملها ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة استخدمها الإنسان منذ قرون عديدة لتسجيل خواطره ، والأحداث التي مر بها بقصد تذكرها أو إبلاغها إلىٰ أقوام آخرين عبر تباين الزمان والمكان . وهكذا استطاع الإنسان أن يوثق خواطره ، ويسجل مسيرته وتجاربه اليومية ، والتي بقيت علىٰ مر الأيام والسنين تمثل معينـًا من التجارب والمعارف ، تنهل منه الأجيال ، وتبني الحضارة الإنسانية ، وذلك استناداً إلىٰ تطوير تجارب الأجيال المختلفة التي سطرها السابقون . والحقيقة إن الإنسان استفاد كثيراً ، وفي مختلف شؤونه الاجتماعية والثقافية والمعرفية ، من معرفته الكتابة ، حتىٰ إن بعض اللُّغويين والمؤرخين يعدونها من أهم أسباب التقدم الحضاري في المجالات كافة .

ويذكر السامرائي (١٩٦٦) أن الكتابة قد مرت بأطوار شتىٰ ، قبل أن تصل إلىٰ الطور الهجائي المستخدم الآن في معظم اللُّغات المكتوبة . وقد حدد Rogers (1967) خمسة أطوار لمراحل الكتابة وهي :

١ - الطور الصوري

٢ - الطور الرمزي

٣ - الطور المقطعي

٤ - الطور الصوتي

٥ - الطور الهجائي

وسيُفَصل القولُ في كل من هذه الأطوار كل علىٰ حده .

١ - الطور الصوري :

وفيه لجأ الإنسان القديم إلىٰ تصوير ما ينوي التعبير عنه عن طريق الصور والرسوم . فإذا أراد زعيم القبيلة مثلًا أن يخطر أفراد قبيلته في بقعة أخرىٰ أنه ذاهب إلىٰ الصيد ، فإنه يصور مشهداً يدل علىٰ ذلك من خلال رسم رجل أو رجال يحملون في أيديهم الرماح أو الحراب ، ويركضون وراء قطيع من الحيوانات . ولاشك أن مثل هذه الكتابة تتطلب أن يكون كاتب الرسالة حاذقـًا للرسم ، وأن يستخدم عدداً غير محدود من الأشكال . إضافة إلىٰ ذلك فمثل هذه الكتابة تكون عادةً قاصرةً عن التعبير عن المعاني والأفكار المجردة .

٢ - الطور الرمزي :

وفي هذا الطور أحرز الإنسان تطوراً كبيراً باعتماده الرموز للتعبير عن بعض الأفكار المجردة ، والمعاني غير المجسدة . وذلك من خلال رسم بعض الصور التي تكون لها دلالات رمزية لا يختلف عليها اثنان . فالتاج مثلًا يرمز للسلطة والسلطان أو الملك ، والحمامة رمز السلام ، والزهرة رمز الحب والوئام ، والشمس رمز النهار ، والسيف رمز القوة ، والشجرة رمز النماء وغير ذلك من

الرموز . وعليه فإذا أراد الشخص أن يحكي قصة ما ، فإنه يمكن أن يعبر عن ذلك برسم عدد من الرموز المتسلسلة التي تدل علىٰ شخوصها وأحداثها .

وهكذا مثَّل استخدام الرمز خطوة متقدمة علىٰ طريق تطور الكتابة . وتمت إضافة مزيد من الرموز التي أصبحت لها دلالات متعارف عليها بين المجموعات البشرية المختلفة . فمثلًا القدم التي كانت في الكتابة التصويرية دالة علىٰ ذات القدم ، أصبحت لها دلالة رمزية ، حيث أصبحت تمثل السير أو المشي بدلًا عن مجرد القدم . ومما يجدر ذكره ، إن مثل هذه الرموز ما زالت مستخدمة حتىٰ في زماننا هذا . وأصبحت هناك رموز عالمية تستخدم في كافة أنحاء العالم ، وهي ذات دلالات محددة تستخدم في كثيرمن المرافق العامة ، مثل المطارات والطرق السريعة عابرات القارات ، والمستشفيات والمرافق التي يرتادها من قد لا يعرفون الكتابة الهجائية . فصورة الرجل للدلالة علىٰ المرافق المخصصة للرجال ، وصورة المرأة رمز للمرافق المخصصة للنساء . كما يُرمز للأشغال التي تجري في مرفق ما ، مثل الطرق العامة ، برسم رجل وهو يحمل معولًا . ويُرمز للمدرسة بصورة أولاد صغار يحملون حقائب مدرسية . ويرسم خطٌ ملتوٍ للدلالة علىٰ انعطافات في الطرق العامة ، أو السريعة حتىٰ ينتبه لها السائق وهكذا .

ورغم أن هذه الطريقة كانت تمثل خطوة متقدمة في مسيرة تطور الكتابة ، إلا أنه يجب الإقرار بأن هناك معضلات عملية جمة عند الكتابة بها . فهي تحتاج إلي أن يتقن الكاتب الرسم حتىٰ تظهر الرموز معبرة عما ترمز إليه . ثم إنه إذا قُصد أن يُرمز لكل كلمة أو فكرة برمز ، تظهر الحاجة إلىٰ عشرات الآلاف من الرموز . وانطلاقا من هذا الواقع ، فإن عدد الرموز يزداد بصورة غير متناهية ، وهذا هو الوضع الآن في اللُّغات التي تستخدم نمط الكتابة الرمزية مثل الكتابة الصينية ،

التي تحتوي على أكثر من ٤٥٠٠٠ رمزاً ، للتعبير عن مجمل المفاهيم والأفكار والعبارات التي يحتاج أن يعبر عنها الشخص الذي يستخدم هذه اللغة . ولهذا كان لابد من التقدم خطوة للأمام ، لاختصار هذا الجهد وتسهيل الكتابة . وهذا ما ظهر في الطور التالي .

٣ - الطور المقطعي :

ويأتي هذا الطور علامة فارقة ، ساعدت كثيراً في تمهيد الطريق للوصول إلى مرحلة الكتابة الهجائية . فحسب هذا النظام ، إذا أراد كاتب أن يكتب كلمة تبدأ افتراضاً بالمقطع « يد » كماا في كلمة « يدحر » ، فإنه يصور يداً . وهكذا انتقلت اللُّغة من طور لا يتم التعبير فيه عن معانيها إلا بالآف الصور ، إلى طور تكتفي فيه ببضع مئات من المقاطع (زيدان ، ٣٣ : ١٩٨٧) .

٤ - الطور الصوتي الأكروفوني Acrophony

وكلمة أكروفونيAcrophony كلمة يونانية الأصل ، تتكون من كلمتين هما : (acro & phone) . و (acro) تعني : البداية و (phone) ومعناها الصوت . وهنا اتخذت الصورة لتكون رمزاً للحرف أو الصوت الذي تبدأ به الكلمة .

وفي هذا الطور لجأ الإنسان إلى استخدام الصور للدلالة على حروف الكلمة بدلًا عن مقاطعها . وهكذا كانت الكتابة الأكروفونية تمثل تطوراً نوعياً للكتابة المقطعية . وكثيراً ما يدمج بعض الباحثين هذين الطورين في طور واحد . وفي هذه الحالة يكفي التعبير عن الأفكار والأشياء بعدد محدود من الصور ، يساوي عدد الحروف الهجائية في تلك اللُّغة التي تستخدم هذا النظام . وقد أورد زيدان (١٩٨٧) مثالًا لكتابة كلمة (شرب) . فإنه يرمز للشين بالشمس ، و للراء بالرمح ، وللباء بالبيت . ويلاحظ أن هذا النمط يستخدم في هذا الزمان لتعليم

الأطفال الحروف الأبجدية مستخدمين الأسماء التي تبدأ بحروف معينة لتعليم تلك الحروف . فمثلًا : يستخدم أ ، (أسد) و ب (بنت) ، و (ولد) . ون(نمر) و ث (ثمر) وهكذا (زيدان ، ١٩٨٧ : ١٢٤) .

٥ - الطور الهجائي :

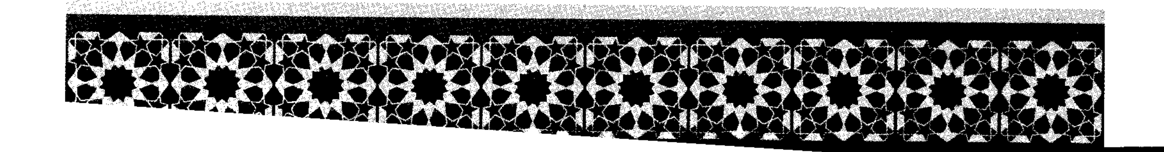
وهو مرحلة متطورة جداً في تاريخ الكتابة الإنسانية . ويعده بعض اللُّغويين أنه تطور طبيعي لمسيرة الطور المقطعي والصوتي (الأكروفوني) (Rogers، 1967).

عموماً فإن كثيراً من الباحثين يرجعون هذا الطور إلىٰ طور الكتابة الصوتية ، حيث تم فيها استبدال الصور الرامزة إلىٰ الأصوات بالحروف . وهناك جملة من الباحثين ينسبون نظام الكتابة الصوتية إلىٰ قدماء المصريين ، ومنهم من يعزون اكتشاف الكتابة الهجائية إلىٰ الفينيقيين : سكان الشواطئ الممتدة علىٰ الساحل الشرقي للبحر المتوسط . وتشير بعض المراجع إلىٰ أن الحروف الفينيقيية هي التي انطلقت منها جميع الأبجديات التي كتبت بها غالبية اللُّغات العالمية المعاصرة (فريحة ، ١٩٨٢) .

تطور الكتابة العربيَّة :

للعلماء العرب القدامىٰ في نشأة الكتابة العربيَّة مذهبان مختلفان ، مثل ما هي حالهم في تفسير نشأة اللُّغة نفسها . فمنهم من يقول : بأن الكتابة توقيف ، ومنهم من يزعم بأنها اصطلاح .

أما المذهب التوقيفي ، فهو الذي يعيد أمر الكتابة إلىٰ وحي رباني ، أو إلىٰ تعليم من الله (عزَّ وجلَّ) . وقد قال بهذا الرأي أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ، المتوفىٰ سنة ٣٩٥هـ ، وهو أحد أئمة الأدب واللُّغة في القرن الرابع الهجري . . (الصاحبي١/ ١٣٧)



وأورد ابن فارس في كتابه (الصاحبي ١/ ١٣٨) أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها سيدنا آدم (عليه السلام) . يقول كتبها علىٰ طين فأحرقه ، فلما أصاب الكون الطوفان ، وجد كل قوم كتاباً فكتبوه . فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي . ويذهب أحمد بن فارس ، بعد هذه المقدمة ، إلىٰ القول بأن الخط العربي توقيف . ويسند رأيه هذا بقوله تعالىٰ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[العلق ، آية : ١-٥] .

وهناك من يذهب إلىٰ القول بأن نبي الله إدريس (عليه السلام) أو النبي إسماعيل(عليه السلام) هو أول من عُلم الحروف العربيَّة . يقول بهذا الرأي القلقشندي في كتابه (صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء ١/ ٧٢) .

أما أصحاب المذهب الاصطلاحي ، فيقولون بأن الحروف العربيَّة من وضع البشر . وبهذا الرأي يقول ابن النديم في كتابه (الفهرست) . فيرجع الخط العربي إلىٰ ثلاثة رجال من بولان -وبولان هذه إحدىٰ قبائل طيء- « نزلوا مدينة الأنبار وهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ؛ اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها علىٰ هجاء السريانية ؛ فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام » . (الفهرست ١/ ٧) .

وقال بعضهم : « إن أول من وضع الحروف ستة نفر من طسم كانوا ينزلون عند عدنان بن أدد ؛ وكانت أسماؤهم أبجد ، وهوز ، وحطي ، وكلمن ، وسعفص ، وقرشت ، فوضعوا الكتاب والخط علىٰ أسمائهم ، فلما وجدوا في الألفاظ حروفاً ليست في أسمائهم زادوها عليها وسموها الروادف ؛ وهي الثاء والخاء والذال ، والضاد والظاء والغين » . (الفهرست ١/ ٣٨) .

وتذكر بعض المصادر التاريخية أيضاً : أن أول من وضع الخط العربي هو حميَّر بن سبأ ، وأنه عُلم هذا الخط في المنام (صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء : ١/ ٧٢) .

عموماً رغم أن هذه الروايات لا تقوم علىٰ أسس علمية ثابتة ، إلا أنه لا يمكن صرف النظر عنها كلياً . فهناك من الأسانيد الثابتة التي تدعم صحة بعضها ، خصوصاً فيما يتعلق بتعليم الإنسان الكتابة بالقلم ، الوارد ذكره في الآية الكريمة في سورة العلق ، والتي تشير إشارة واضحة إلىٰ تعليم الإنسان الكتابة ، وذلك إما عن طريق الوحي المباشر ، أو عن طريق الإعداد والتجهيز من عند الله (سبحانه وتعالىٰ) للإنسان بالقدرة اللازمة للقيام بمهمة الكتابة ، التي كان لها أجلُّ الأثر في مسيرة الحضارة الإنسانية .

أما الدراسات الحديثة مثل دراسة البعلبكي (١٩٨٦) فتقول بأن العرب قد أخذوا خطهم من الأنباط . والأنباط هؤلاء من القبائل العربيَّة الذين وقعوا تحت تأثير الثقافة أو الحضارة الآرامية ، فجاء خطهم آرامياً . وكانت لغتهم مزيجاً من العربيَّة والآرامية . يظهر ذلك من الآثار والنقوش التي ترجع لتلك الفترة وأشهرها نقش النمارة . فكان هؤلاء يقيمون في المنطقة الممتدة من سيناء غرباً وعبر شمال الجزيرة العربيَّة حتىٰ حوران شرقاً ، وتخوم بلاد الشام شمالاً . وكانت عاصمتهم البتراء أو البطراء ؛ وهي كلمة آرامية تعني الصخرة . وقد تم العثور علىٰ عدة نقوش في هذه المنطقة اشتهر منها نقش أم الجمال في حوران في جنوب بلاد الشام ، ويعود تاريخه إلىٰ سنة ٢٥٠م ، ونقش النمارة الذي أُشير إليه سابقاً ، وهو أشهرها علىٰ الإطلاق ، ويعود تاريخه إلىٰ ٣٢٨م . والنمارة قصر قرب دمشق ، وقد وجد هذا النقش علىٰ قبر امرئ القيس بن عمرو أحد ملوك الحيرة . ونقش زبد وهي أطلال تقع بالقرب من مدينة حلب السورية ، ويعود تاريخه إلىٰ العام

٥١٢م . ونقش حران في النجا في الجزء الشمالي من منطقة جبل الدروز ، ويعود تاريخه إلىٰ سنة ٥٣٦ م . وما يجدر ذكره أن كل هذه النقوش مكتوبة باللُّغة العربيَّة مع اختلاف طفيف في بعض المفردات ، وأن معظم هذه النقوش مترجم إلىٰ الإغريقية والآرامية . (رمزي البعلكي ، ١٩٨٦م) .

وفي جنوب الجزيرة العربيَّة ، اكتشفت نقوش تذكارية كتبها كتاب محترفون من رجال القوافل والرعاة ، يذكرون فيها أسماء آلهتهم وأسماء عشائرهم ، ونقوش علىٰ قبور موتاهم تذكر مآثرهم وقوانينهم وعقودهم الاجتماعية وشرائعهم . وقد التزم عرب الجنوب ما يعرف بالخط المسند ، ومنه نشأت خطوط اللهجات العربيَّة مثل اللحيانية والثمودية والصفوية . واللحيانيون من أهل القبائل العربيَّة التي كانت تسكن في منطقة العلا بالقرب من المدينة المنورة . ومن الباحثين من يرجعهم إلىٰ القرن الأول أو الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من يتأخر بهم قليلًا (جورجي زيدان ، ١٩٨٧) . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلىٰ ما قبل الميلاد بقرون عديدة . وتظهر الرواية القرآنية الشريفة أن هؤلاء أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت عليهم الزلازل والبراكين ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾[الأعراف ، آية : ٧٨] . وقد خلَّف هؤلاء كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعيني . أما الكتابات الصفوية ، فعثر عليها في منطقة الحرة في تلال وتخِوم أرض الصفا ، وقد نقشت بالخط المعيني . والصفوية هي إحدىٰ اللهجات العربيَّة القديمة ، مثلها مثل الثمودية واللحيانية ، وكثير من نقوشها يرجع إلىٰ القرون الأولىٰ بعد الميلاد .

المهم في الأمر ، أن كل هذه النقوش الصفوية والثمودية والليحانية عربية بحتة ، وخصائصها اللُّغوية هي أقرب ما تكون إلىٰ اللُّغة العربيَّة التي نزل بها القرآن الكريم . وهي علىٰ أصح الأقوال طور من أطوار الكتابة العربيَّة التي أخذت

شكلها النهائي في أوائل القرن السادس الميلادي ، في تلك البيئة العربيَّة الخالصة قبل البعثة الشريفة بقليل .

و علىٰ ضوء هذه الاثار ، قام بعض الباحثين بصياغة ثلاث نظريات تفسر نشأة الكتابة العربيَّة وتلك النظريات تلخص إجمالًا فيما يلي :

النظرية الأولىٰ :

إن الخط العربي قد تم إنشاؤه من قبل ثلاثة أشخاص اجتمعوا في الحيرة فوضعوا الأحرف الهجائية العربيَّة مستلهمين إياها من النبطية القديمة . وهؤلاء هم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة . فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربيَّة علىٰ هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من الأنبار . وكان منهم بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك بن عبدالجند الكندي . وكان يأتي الحيرة ويقيم بها لحين ، فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة (ابن النديم : الفهرست ١/ ٨) .

النظرية الثانية :

تذكر هذه النظرية أن أول من وضع الكتابة ، هو حميَّر بن سبأ . وكانت لحميَّر كتابات تسمىٰ المسند حروفها متصلة غير منفصلة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها (القلقشندي ، صبح الأعشىٰ ١/ ٧) .

النظرية الثالثة :

إن الأبجدية العربيَّة الحديثة أتت من تطور الحرف النبطي . وقد ذكر أن الأنباط يعود تاريخهم إلىٰ قرون ما قبل الميلاد . وبدأت مملكتهم حول نهايات القرن الأول قبل الميلاد ، وامتد حكمهم وسيطرتهم علىٰ المنطقة شرق سيناء حتىٰ بداية القرن الثاني الميلادي . وتشير المصادر إلىٰ أن الغساسنة ، وهم أيضًا

من القبائل العربيَّة ، أضافوا إضافات مهمة لتطوير الكتابة النبطية التي أفضت إلىٰ الكتابة العربيَّة المعروفة الآن(البعلبكي ، ١٩٨٦) .

من الواضح أن هذه النظريات الثلاث تفسر موقف أصحاب المذهب الاصطلاحي في نشأة الكتابة العربيَّة . أما أصحاب المذهب التوقيفي الذين يرون بأن الحروف العربيَّة وتعلمها توقيف أو وحي ، فإن لهم ما يسندون به رؤيتهم أو نظريتهم هذه . فهناك الآيات القرآنية الصريحة التي تشير إلىٰ تعليم الله (سبحانه وتعالىٰ) للإنسان بالقلم . ثم هناك السور التي تفتتح بحروف عربية صرفة . وهنا يجب أن يعلم أن الله (سبحانه وتعالىٰ) لن يختار هذه الحروف مفتتحاً بها سوراً قرآنية ، أو يقسم بها دون أن تكون هذه الحروف ذات مدلول أعمق من أنها مجرد اختراع إنساني قابل للتطور والتدهور والنسيان . وقد أقسم سبحانه وتعالىٰ بـ « نون » والقلم وما يسطرون . وقال ابن عباس (رضي الله عنه) : إن النون هو الدواة . ويكون هذا قسم بالدواة والقلم حيث إن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة . (تفسير ابن كثير : ٨/ ١٨٤) .

الكتابة العربيَّة في صدر الإسلام :

عرف نفر من العرب الكتابة قبل الإسلام . وكان ذلك إرهاصاً لبعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتمهيداً لتسجيل الوحي المنزل عليه . غير أن العرب كانوا في مجموعهم أمّة أميّة كما وصفهم القرآن الكريم : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة ، آية : ٢] .

وقال القرطبي في تفسيره : قال ابن عباس (رضي الله عنه) : « الأميون العرب كلهم ، من كتب منهم ومن لم يكتب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب . وقيل :

الأميون الذين لا يكتبون . وكذلك كانت قريش » . (تفسير القرطبي : ١٨ / ٨٣)

ثم جاء الوحي إلىٰ النبي الأمي (صلىٰ الله عليه وسلم) ، وهو يتعبد بغار حراء مخاطباً إياه أن : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق ، آية : ١-٥] .

قال القرطبي هذه السورة أول ما نزل من القرآن الكريم في قول معظم المفسرين ، نزل بها جبريل(عليه السلام) علىٰ النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) وهو قائم في حراء ، فعلمه خمس آيات من هذه السورة . (تفسيرالقرطبي : ٢٠ / ١٠٥)

ويقول ابن كثير : « إن من كرمِهِ تعالىٰ ، أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبوالبشر علىٰ الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان وتارة يكون في اللِّسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ؛ : ذهني ولفظي ورسمي » . (تفسير ابن كثير : ٨ / ١١٥) .

إذن فهذه أول آيات نزلت علىٰ سيدنا محمد (صلىٰ الله عليه وسلم) ، تكلفه بالرسالة وتحمله مسئوليتها ، تصدع أول كلمة منها بالقراءة ، والتي هي صنو الكتابة ومفتاح العلم ، وتنطق آياتها بتعليم الله عزّ وجلّ لعباده ما لم يعلموا ، وعلىٰ رأس ذلك القراءة ؛ والتي لا تكون بمعزل عن الكتابة ، وهي وسيلة تدوين العلم وأداة التعبير عما يعتمل في الذهن .

ثم تنزل السورة الثانية لتثبت نفس المعنىٰ ، وتفتح الأذهان والنفوس ، وتقرع الآذان بحرف من حروف الهجاء ، حيث يقْسِم المولىٰ (عزّ وجلّ) بالقلم تنبيهاً إلىٰ مكانته ، وتشريفاً وتعظيماً لما يخطه القلم من كتابة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم ، آية : ١] .

إضافة إلىٰ القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فقد عقد نبيُّ الله عليه الصلاة

والسلام ، العديد من الأحلاف والمعاهدات بينه وبين القبائل في المدينة وخارج المدينة ، وكانت هذه المعاهدات مكتوبة . ومن هنا يبرز دور الكتابة في التوثيق والمرجعية لإلزام الأطراف المعنية بالبنود المتفق عليها . وقد وردت الآيات القرآنية الكريمة حاضة علىٰ الوفاء بالعهود والمواثيق . قال تعالىٰ في فاتحة سورة المائدة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ...﴾[المائدة ، آية : ١] . وفي سورة الإسراء : ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء ، آية : ٣٤] . وجاءت آيات أخرىٰ في القرآن العظيم تحض الناس علىٰ كتابة الدّين كبيراً كان أو صغيراً لتنظيم الحياة المدنية ، والمعاملات اليومية ، ولسد كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها أسباب الفتنة والقطيعة . جاء في سورة البقرة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ...﴾ (البقرة ، آية : ٢٨٢) وهي أطول آية من آيات القرآن الكريم .

وهكذا أقبل المسلمون في صدر الإسلام علىٰ الكتابة يحسنونها ويجودونها ويتقنونها ، يحضهم علىٰ ذلك نبيهم (عليه الصلاة والسلام) ، وتدفعهم إليها تعاليم القرآن الكريم التي أعلت من شأن الكتابة ، فأقبلوا عليها يعلمونها ويتعلمونها استكمالًا لواجبات مأمورين بها شرعًا . وهكذا احتلت الكتابة العربيّة مكانة مرموقة في صدر الإسلام . ثم انطلق المسلمون في عهود تالية يجودونها ويتأنقون فيها ، حتىٰ بلغت شأواً لم تبلغه كتابة في لغة أمة أخرىٰ علىٰ مدار تاريخ البشرية .

تطور الكتابة العربيّة فيما بعد عصر النبوة :

اهتم المسلمون بالكتابة في بادئ الأمر بقصد تدوين القرآن الكريم دستورهم المنزل ، ومرشدهم إلىٰ الطريق القويم . فلم يألوا جهداً في تطويرها وتجميلها

حتىٰ تكون في مستوىٰ الحدث العظيم ، وهو تدوين القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وحفظهما من الزيادة والنقصان أو التحريف . ثم تطورت الكتابة القرآنية باتجاهين متوازيين : اتجاه نحو تحسين الخط والرسم ، واتجاه نحو ضبط قواعد الإملاء بقصد ضبط قراءة القرآن الكريم ، وتحاشي اللحن والتصحيف . وتطبيقاً للاتجاه الثاني القاصد إلىٰ ضبط قواعد الإملاء والرسم ، فقد شهدت الكتابة العربيَّة عدة تطورات تضمنت إضافة النقط (الإعجام) والشكل .

فالنقط والشكل يعتبران أثراً من آثار الإسلام في الكتابة العربيَّة . ذلك لأن الكتابة في عصر الجاهلية لم تكن منقوطة ولا مشكولة . وظلّ الحال كذلك حتىٰ بداية الإسلام وإشراق شمس الرسالة المحمدية . غير أنه لما انتشر نور الإسلام ، وعم دياراً لم يكن أهلها من العرب ، كان من الطبيعي أن توضع الاحترازات الكافية لضمان نقاء العربيَّة وحمايتها من الفساد . فوضع الشكل لصيانة الألسن من اللّحن ، ووُضع الإعجام لإزالة الغموض من الحروف المتشابهة (كالباء والتاء والثاء والياء .) وهكذا خضعت الكتابة العربيَّة لإصلاحات جذرية أكملت صورتها وجعلتها متاحة ليتعلمها كل ذي عقل وبصيرة ، وارتفعت بها إلىٰ مصاف العالمية دون تخصيص . وتشمل هذه الإصلاحات ثلاث مراحل :

الإصلاح الأول في الكتابة العربيَّة : (الشكل بالنقط) :

كان العرب أولي بصيرة نافذة ، وسليقة نادرة وذكاء وقاد . وكان فيهم اللبيب الذي بالإشارة يفهم . وكانوا يعتبرون نقط الكتاب أو شكله ، سوء ظن بالمكتوب إليه . وكان عرب الصدر الأول من الإسلام يكرهون أن يضيفوا شيئاً إلىٰ مصحف عثمان رضي الله عنه وأرضاه ، ولو بقصد الإصلاح . ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، ناهيك عن المكروهات . فقد اتسعت دولة الإسلام جغرافياً وإقليمياً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وعمت الرسالة البدو والحضر ،

فدخل تحت راية التوحيد أقوام من غير العرب . فاتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، واختلط العرب بالعجم والعجم بالعرب وتعددت الأمصار ، وأصبحت المدن مراكز الحياة الحضرية الجديدة بدلًا من البادية ، واضمحلت السليقة . وعندها علت صيحات المهتمين باللُّغة بضرورة المحافظة عليها خوفًا من تفشي اللحن وفساد اللُّغة ، وذوبان التراث الثقافي إثر هذا الاتصال الموسع .

وهنا أدرك العلماء الحاجة إلىٰ علوم تؤهل للنطق الصحيح ، وتحقق الفهم والإفهام والاحتراز من الوقوع في الالتباس ، بالقدر الذي يحقق السلامة من خطأ اللِّسان . فوضعوا لذلك عدة تدابير أصبحت فيما بعد علومًا لسانية نهل منها كثير من علماء اللُّغات في عصور تالية .

كان الهدف من هذه الجهود ابتكار الوسائل واستنباط المعالجات التي تضمن حماية القرآن الكريم من التحريف واللحن . فهداهم الله فيما هداهم إليه ، إلىٰ وضع علامات فارقة حققت الهدف المنشود ، فاخترعوا الشكل والإعجام .

أما بالنسبة للشكل في آخر الكلمات ، فقد وضعه أبوالأسود الدؤلي الذي استحضر كاتبًا ، وأمره أن يتناول المصحف ، وأن يأخذ صبغًا يخالف لون المداد ، فإذا رأىٰ الكاتب أبا الأسود قد فتح شفتيه نقط نقطة فوق الحرف ، ويضع نقطة واحدة تحت الحرف فيكون هذا للكسر ، وإذا ضم شفتيه جعل الكاتب النقطة بين يدي الحرف ، أي أمامه ، فيكون هذا للضم . وإن تَبِع الحرفَ الأخيرَ غنة ، نقط الكاتب نقطتين إحداهما فوق الأخرىٰ وهذا للتنوين (الفهرست ١/ ٦٦)

الإصلاح الثاني : الإعجـام :

تم هذا التطور علىٰ عهد خلافة عبدالملك بن مروان ، في أواخر القرن الأول

الهجري ، بعد أن كثر التصحيف وأصبح ظاهرة ، خصوصاً في مناطق العراق والأمصار الإسلامية البعيدة . وعند ذلك فزع الحجاج بن يوسف إلىٰ كُتَّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة في الرسم علامات تميزها بعضها عن بعض . وقد قام بهذه العملية يحيىٰ بن يعمر ، ونصر بن عاصم . ونقطت الحروف بنفس مواد الكتابة وذلك لأن نقطة الحرف جزء منه . وتم وضع النقط بحيث غدت الحروف المتشابهة رسماً كالدال والذال غير قابلة للالتباس : فنقطت الذال وأهملت الدال ، ونقطت الظاء وأهملت الطاء ، ونقطت النون من فوقها ، ونقطت الباء من أسفلها . ووضع للقاف نقطتان ، وللفاء نقطة واحدة . ونقطت الغين وأهملت العين ، وأُعطيت التاء نقطتين ، والثاء ثلاث نقاط . وهكذا وضعت الضمانات والاحترازات وانتفىٰ احتمال حدوث التصحيف فيما بعد (المفصل : ٨/ ١٨٧) .

الإصلاح الثالث في الكتابة العربيَّة : (الشكل بالحركات) :

استمرت جهود الإصلاح والتجويد والرقي والسمو باللُّغة العربيَّة ، وتطورت علومها علىٰ أيدي أفذاذ عباقرة خدمة للغة ، وحفاظاً علىٰ أصولها وأصالتها ، حتىٰ جاء زمن العلامة العبقري الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ، والذي أدرك بحسه اللغوي المرهف ، وذوقه الفطري المحروس بعناية الحق من الزيغ والفساد ، فاخترع أسلوباً بسيطاً للشكل بدل النقط . فوضع ألفاً صغيرة مضجعة فوق الحرف للفتحة ، ووضع للكسرة رأس ياء صغيرة توضع تحت الحرف ، ورمز للضمة بواوٍ صغيرة توضع فوق الحرف . إضافة إلىٰ ذلك استقطع الهمزة من رأس العين ، وجعلها حرفاً مستقلًا من حروف اللُّغة له منظومته الخاصة .

ثم جاء من بعده تلاميذه النجباء الأذكياء وأشهرهم سيبويه ، وأضافوا إضافات مقدرة حيث اختاروا رأس السين دلالة علىٰ الشَّدة ، ووضعوا الهمزة

المكسورة تحت الألف ، ووضعوا السكون مدوراً .

وهكذا وبعد جهود مضنية بذلتها نفوس وعقول عشقت لغتها ، وأدركت مكانتها بين لغات العالمين ، وصلت الكتابة العربيَّة إلىٰ صورتها الكاملة التي تعرف بها اليوم ، كأحسن وأتم نظام كتابي عرفته لغة قديمة أو معاصرة . وأصبح نظامها الكتابي نموذجاً تحاول اللُّغات المعاصرة الاقتراب منه فتقصر دونه أشواطاً . وسوف تظهر هذه الحقيقة في الأجزاء التالية من هذا الفصل ، حيث تُخضع الكتابة العربيَّة للمقارنة مع النظم الكتابية في اللُّغات الأخرىٰ ، إن شاء الله .

سمات ومميزات الكتابة العربيَّة :

تتكون الحروف الهجائية العربيَّة من ثمانيةٍ وعشرين حرفاً . وهي الهمزة والباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والواو والياء . ولم تكن الحروف العربيَّة مرتبة هذا الترتيب ، وإنما رتبها كذلك تلميذا أبي الأسود الدؤلي : نصر بن عاصم الليثي ، ويسمىٰ نصر الحروف ، ويحيىٰ بن يعمر العدواني في زمن الحجاج بن يوسف ، عامل عبد الملك بن مروان علىٰ العراق .

وكانت الحروف العربيَّة من قبل مجموعة في ست كلمات هي : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثم أضيف إليها ستة أحرف أخرىٰ مجموعة في كلمتي ثخذ وضظغ . وسميت هذه الأخيرة بالروادف لأنها أُضيفت ، أو أُردفت في مرحلة لاحقة علىٰ الكلمات الست السابق ذكرها .

ومن المسائل العجيبة حقاً في هذا الترتيب ، أن حروفه لها أرقام مقابلة أو

نظيرة ، فالألف يعادل واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، والدال أربعة ، والهاء خمسة ، والواو ستة ، والزاي سبعة ، والحاء ثمانية ، والطاء تسعة ، والياء عشرة ، ثم الكاف ويعادل عشرين ، واللام ثلاثين ، والميم أربعين ، والنون خمسين ، والسين ستين ، والعين سبعين ، والفاء ثمانين ، والصاد تسعين ، أما القاف فمائة - والراء مئتان ، والشين ثلاثمائة ، والتاء أربعمائة ، والثاء خمسمائة ، والخاء ستمائة ، والذال سبعمائة ، والضاد ثمانمائة ، والظاء تسعمائة ، والغين وهو الحرف الأخير يعادل ألفًا .

وهناك علم قائم بذاته اسمه علم الحرف ، يخرج من هذه السلاسل والأرقام حقائق مذهلة تتعلق بالكواكب والأجرام السماوية . وقد ثبت في العلم الحديث أن لكل من هذه الحروف والأرقام طاقات الكترونية تحسب بحسابات دقيقة ويستخرج منها معارف وعلوم عجيبة . فعلىٰ سبيل المثال : الرقم خمسة والذي يعادل حرف الهاء ، يمكن أن يشكل حماية بيننا وبين الأجسام الالكترونية المضرة ، كالأشعة الخارجة من الحاسب الآلي والتلفاز . وذلك بأن توضع خمسة أشياء متماثلة في كل شيء لونـًا وطولًا وعرضـًا . فوجد بعض الباحثين أن طاقة هذا الرقم تعمل علىٰ تحويل الذبذبات المضرة المنبعثة من تلك الأجهزة إلىٰ طاقة مفيدة أو طاقة مُحيَّدة . (المحمودي ، ٢٠٠٧ : ٤٧) .

ويقسم رواد هذا العلم المرتبط بكثير من الغيبيات ، الحروف العربيَّة إلىٰ أحرف ترابية ، وأحرف نارية ، وأحرف هوائية ، وأحرف مائية . ولكل منها حركة تشكيل خاصة . وكذلك تقسم الحروف العربيَّة إلىٰ حروف نورانية وحروف ظلمانية ، حيث إن الحروف النورانية هي المجموعة في عبارة (صراط علىٰ حق تمسكه) ، وهذه الحروف لا يخلو منها اسم من أسماء الله الحسنىٰ عدا اسم الودود .

ومن أسرار هذه الحروف العربيَّة الواضحة ، أنها اجتمعت كلها في آية واحدة في كتاب الله في موضعين أولهما قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[آل عمران ، آية : ١٥٤] .

وثانيهما قوله تعالي : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[الفتح ، آية : ٢٩] .

ومن خصائص الحروف العربيَّة أن لكل حرف اسماً يعرف به مثل (الباء) ، واسم منطوق يسمع له في صدر الكلمة مثل (بقرة) ، واسم مكتوب يرمز إليه وهو (ب) .

وإن كانت الحروف العربيَّة متميِّزة ، فإن الكتابة العربيَّة بمجملها ، لها خصائص متفردة ، تضعها في مقدمة النظم الكتابية الجيدة بين اللُّغات المعاصرة . ومن أجلِّ تلك الخصائص ما يلي :

- تخصيص كل حرف ليمثل صوتاً واحداً . فلا يوجد في العربيَّة حرف له أكثر من قيمة صوتية واحدة .
- لا يوجد في الكتابة العربيَّة صوت يمثل بأكثر من حرف واحد .

- لا توجد في اللُّغة العربيَّة حروف مركبة لتمثيل الأصوات .
- العلاقة بين المكتوب والمنطوق في العربيَّة علاقة أحادية . فلا توجد في العربيَّة أصوات منطوقة غير مكتوبة ، ولا توجد حروف مكتوبة غير منطوقة .
- هناك استثناءات قليلة تحكمها قواعد صارمة ومحفوظة ، ولا تسبب إشكالًا في دراستها . ومن هذه الاستثناءات واو الجماعة الذي تعقبه ألف تثبت رسمًا ولا تنطق . وهناك أسماء الإشارة التي تتضمن ألفًا منطوقة غير مكتوبة ، إضافة إلىٰ اللام الشمسية التي تكتب ولا تنطق .

وبذلك تكون الكتابة العربيَّة هي أقرب ما تكون للكتابة الصوتية التي يحاول أن يتبعها اللُّغويون المحدثون لكتابة اللُّغات المعاصرة ، بحسبان أنها (أي الكتابة الصوتية) كتابة علمية مثالية تزاوج ما بين المنطوق والمكتوب بصورة منطقية ، وتسهل عملية دراسة وتعلم اللُّغات . والجدير بالذكر أن هذه الكتابة الصوتية ظهرت أول ما ظهرت سنة ١٩٣٦م وكان قد اقترحها العالم الامريكي بلومفيلد لتكون بديلا للكتابة التقليدية عندهم . ويعرفها دانيال جونز (١٩٧٢) علىٰ أنها نظام غير مبهم يمثل النطق عن طريق الكتابة . والمبدأ الأساسي فيها ، هو تخصيص حرف واحد فقط لكل صوت . وهذا بالضبط وضع الكتابة في اللُّغة العربيَّة . فالكتابة الصوتية إذن هي طريقة سهلة لعرض ترتيب الأصوات برسم ناطق . وهذا الرسم الناطق الممثل للترتيب الصوتي يساعد ذاكرة الرؤية ، وبالتالي فهو يساعد ذاكرة السمع . (إبراهيم ، ١٤٠٥ هـ)

فإذا كانت الكتابة العربيَّة ، ومنذ نشأتها قد أخذت بهذه المعايير (أي معايير الكتابة الصوتية في الحسبان) فإنه يحق للعربية أن تفخر بنظامها الكتابي علىٰ أنه

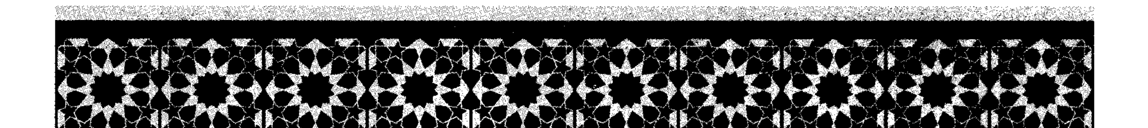
يمثل نمطًا علميًا راقيًا ومتقدمًا ، سبقت به العربيَّة كثيراً من النظم الكتابية في اللُّغات المعاصرة .

وقديمًا صنف علماء العربيَّة أنواع الكتابة بصورة دقيقة . فقد قسموا عموم الكتابة إلىٰ قسمين : قياسية واصطلاحية . فالكتابة القياسية عند ابن الأثير ، ما طابق فيها الخط اللفظ . والاصطلاحية ما خالفه بزيادة أو حذف أو بدل يدل علىٰ وصل أو فصل . (الكامل في التاريخ ١/ ٤٨) .

وهكذا كان علماء العربيَّة مدركين ، ومنذ عصور سحيقة ، لأهمية أن تكون الكتابة مطابقة للنطق ، ويفرقون بينها وبين الكتابة التي تخالف النطق ، وسموها الكتابة الاصطلاحية . فالكتابة القياسية عندهم تعادل اليوم ما يعرف بالكتابة الصوتية ، والاصطلاحية ما يختلف فيها المكتوب والمنطوق ، وهذه تشمل كافة الأبجديات التي تستخدمها بعض اللُّغات الحديثة ، والتي لا يكون فيها توافق ما بين المكتوب والمنطوق . وانطلاقا من هذا الفهم المتقدم لدىٰ علماء العربيَّة ، وإدراكهم العميق لضرورة تطابق المكتوب والمنطوق ، فقد جاءت كتابة اللُّغة العربيَّة كتابة صوتية قياسية في مجملها . أما الاستثناءات التي أُشير إليها سالفًا ، فهي استثناءات محدودة وتحكمها قوانين صارمة يسهل حفظها وإتقانها في وقت وجيز .

نظم الكتابة في لغات أخرىٰ :

هذا الجزء من البحث يناقش النظم الكتابية في لغات معاصرة ، وذلك بهدف إجراء مقارنة علمية بين هذه النظم الكتابية ، ونظام الكتابة في اللُّغة العربيَّة . وسوف يتم التركيز في هذا الجزء ، ويُسلط الضوء علىٰ نظام الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة بحسبانها تمثل نموذجًا حيًّا لكثير من اللُّغات الأوروبية ، التي



تستخدم الأبجدية اللاتينية ، والتي يلاحظ فيها كثير من السمات الاصطلاحية . كما سيتطرق الباحث لنظام الكتابة الفرنسية ، وهي الأخرىٰ تتبنىٰ الحروف اللاتينية في كتابتها . ثم تجري مقارنات ومقابلات بين هذه النظم الكتابية ، ونظام الكتابة العربيَّة لتبيان مكانة الكتابة العربيَّة بين تلك النظم المعاصرة .

الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة :

للتعرف علىٰ الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فإنه يتوجب الاطلاع علىٰ تاريخ تلك الكتابة ، وما مرت به من مراحل شتىٰ حتىٰ تبلورت إلىٰ مستوىٰ هذه الكتابة التي يتعامل بها العالم اليوم . فمن الناحية التاريخية ، فإن نظام الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة لا يتعدىٰ عمره الستة قرون . أما ما قبل ذلك ، فإنه لم يكن هناك نظام محدد لكتابة اللُّغة الإنجليزيَّة . أما الآثار المكتوبة والقليلة جداً التي وجدت للغة الإنجليزيَّة القديمة ، والتي تعد من جملة اللُّغات الميتة ، فهي نقوش محدودة مكتوبة بالحروف الرونية ، وهي من أنماط الكتابات الأثرية المنقرضة ، والتي لا وجود لها في عالم اليوم ، ولا يعرفها إلا عدد محدود جداً من علماء الآثار ، مثلها في ذلك مثل الهيروغلوفية والإغريقية والفارسية القديمة .

أما كتابة الإنجليزيَّة بالحروف اللاتينية ، فقد ارتبطت بدخول الديانة المسيحية إلىٰ بريطانيا . ولكن ازداد استخدامها بعد دخول النورمنديين الذين احتلوا بريطانيا في بداية القرن الحادي عشر . وقد فرض هؤلاء لغتهم الفرنسية لتكون لغة التعامل اليومي ، ولغة للدولة والحكم وطبقات المثقفين . وظل هذا الحال حتىٰ عام ١٢٧٢م ، حيث أصبح إدورد الأول ملكاً علىٰ انجلترا . (بو و كيبل ، ١٩٩٣م) .

وفي فترة حكم النورمنديين ، تراجعت اللُّغة الإنجليزيَّة تماماً ، وأصبحت لغة للعامة ، ولم يعد لها وجود في أضابير الحياة الرسمية أو الأدبية . ولا توجد آثار

مكتوبة ذات قيمة باللُّغة الإنجليزيَّة في فترة حكم النورمنديين الذين فرضوا لغتهم الفرنسية لغة رسمية وأدبية على البلاد . وبعد انحسار حكم النورمنديين عن انجلترا ، بدأت اللُّغة الإنجليزيَّة للعودة إلى الحياة الرسمية والأدبية تدريجياً . وأخذت تكسب قيمة اجتماعية بعد أن ظلت لغة للطبقات الدنيا في انجلترا على مدى قرنين من الزمان . عادت اللُّغة الإنجليزيَّة ، إذن ، إلى حيز الوجود واستخدمت في البرلمان لأول مرة في العام ١٣٦٢م (Baugh & Cable : 1993) .

ولكن اللُّغة الإنجليزيَّة التي عادت للوجود ، لم تكن تشبه اللُّغة التي كانت سائدة قبل انحسارها في منتصف القرن الحادي عشر . ولم تكن لها القدرة على التعبير عن استحقاقات الحياة الجديدة . وهنا لم يجد أهلها بداً من الاستعارة ، وبلا حدود ، من اللُّغة الفرنسية التي كانت سائدة في انجلترا . فقد استعارت الإنجليزيَّة أكثر من نصف مفرداتها من الفرنسية . وهكذا ولد ما عرف باللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة ، وهي لغة هجين نصفها إنجليزية ونصفها فرنسية .

أما الكتابة ، وهذا ما يهمنا في هذا الفصل ، فقد تبنت اللُّغة الإنجليزيَّة الأبجدية اللاتينية بصفة رسمية . وجاءت معظم الآثار ذات الصلة بهذه الفترة مكتوبة بحروف لاتينية . ومن أشهر هذه الآثار الأعمال الأدبية التي كتبها شاعر الانجليز الكبير جفري جوسر ، الذي كتب أقاصيص كانتر برى . والمعروف أن الكتابة في هذه الفترة كانت كتابة مضطربة جداً ؛ بحيث يختلف هجاء الكلمة الواحدة في الجملة الواحدة ، ناهيك عن اختلاف اللهجات التي كتبت بها اللُّغة الإنجليزيَّة في ذلك العصر . (Barber، 1993) .

واستمرت هذه المسيرة المضطربة طوال القرن الرابع عشر الميلادي ، وحتى بداية القرن الخامس عشر ، حيث تعرضت اللُّغة الإنجليزيَّة إلى حدث لغوى

غريب عرف في التاريخ بالتحول الصوتي العظيم . فبموجب هذا الحدث تبدلت اللُّغة الإنجليزيَّة تبدلًا جذريًا في نطقها ومن ثم في رسمها ومدلولاتها .

التحول الصوتي العظيم وأثره على الكتابة الإنجليزيَّة :

التحول الصوتي العظيم ظاهرة غريبة اعترت اللُّغة الإنجليزيَّة في القرن الخامس عشر الميلادي ، خلال فترة ما يسمى بمرحلة اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة . ويقول علماء تاريخ اللغة : إن أسباب هذه الظاهرة مجهولة في مجملها ، ولكن البعض يردها إلى التمايز الطبقي الذي ساد المجتمع الإنجليزي في تلك الفترة (Bong، 1995) . فبموجب هذا التحول الصوتي الضخم ، تبدلت جملة الأصوات الطويلة لتصبح قصيرة ، وعدلت كل الأصوات الخلفية التي تنطق من مؤخرة الفم إلى أصوات أمامية ، وطرأ ارتفاع ملحوظ على وضع اللِّسان حيث تحرك نحو سطح الفم العلوي ، مع انخفاض واضح في مستوى فتحة الفم حين النطق بالكلمات . كما تم الدمج بين بعض الأصوات المتحركة المفردة ، لتصبح أصواتًا ثنائية مركبة (Diphthongs) (Blaser، 1993) .

ويرى (1993) Blaser أنه بموجب هذا الحدث الكبير ، والتحول الضخم في النطق بالأصوات الإنجليزيَّة ، تغيرت اللُّغة الإنجليزيَّة حتى أصبحت خلقًا آخراً ، وأصبح من الصعوبة بمكان أن يفهم شخص إنجليزي من القرن السادس عشر لغة القرن الرابع عشر ، خصوصًا إذا ما نطقت بنفس الطريقة التي كانت تنطق بها في ذلك الحين .

ويرى بعض المؤرخين أن هذا التحول الصوتي العظيم قد استمر حتى القرن السابع عشر ، حيث شمل التحول ليس فقط الأصوات المتحركة ، وإنما تعدى ذلك ليؤثر في بعض الأصوات الساكنة . ثم جاءت مرحلة أخطر من ذلك كله حيث أسقطت بعض الأصوات تمامًا من منظومة أصوات اللُّغة الإنجليزيَّة ،

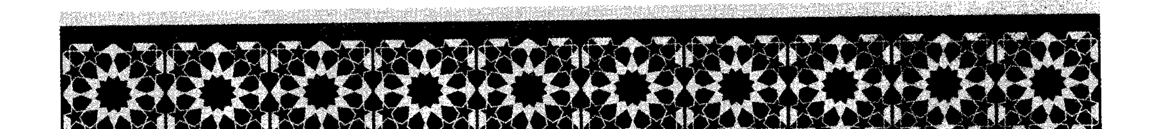
وذلك مثل صوت الخاء والذي كان يمثل بحرفين هما (GH) في بعض الأحيان . كما أسقط (e) إذا وقعت متطرفة في الكلمة (Barber، 1995) . وأسقط صوت / k/ في الكلمات التي يأتي فيها هذا الصوت قبل حرف (N) ، وتفشت ظاهرة الحروف الصامتة غير المنطوقة (Silent letters) بصورة كبيرة (Baugh & Cable : 1993) .

الحقيقة إن التحول الصوتي العظيم كان قد أحدث تحولًا ضخمًا في طريقة النطق باللُّغة الإنجليزيَّة ، ونتج عن ذلك تباينٌ عظيم بين المكتوب والمنطوق في هذه اللّغة . ومن ثمّ اتسعت الشقة بين النصوص المكتوبة ونظائرها المنطوقة . حتىٰ أصبحت الكتابة في واد والنطق بها في وادٍ آخر ؛ الأمر الذي جعل من الصعب القول بأن تكون كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة كتابة هجائية تحكمها علاقة ثابتة بين الحروف وقيمها الصوتية (Blaser، 1993) .

اكتشاف الطباعة وأثره علىٰ الكتابة الإنجليزيَّة :

مع بداية مرحلة التحول الصوتي العظيم ، ظهرت الآلة الكاتبة ، واكتشفت الطباعة لتؤثر بصورة حاسمة في مسيرة الكتابة الإنجليزيَّة . فكان أول من أدخل الطباعة في انجلترا شخص يدعىٰ ويليام كاكستون في العام ١٤٨٦م ، حيث أنشأ أول دار للطباعة والنشر . فسعىٰ لوضع معايير ثابتة لكتابة اللُّغة الإنجليزيَّة ، فكان أول ما واجهه مشكلة تعدد اللهجات واختلافاتها بصورة جذرية فيما بينها ، فعمد كاكستون إلىٰ تبني لهجة لندن واتخذها معياراً للغة المكتوبة .

وكان من المؤسف أن مرحلة تقنين الكتابة ، وتبني لهجة لندن جاء في مرحلة كان التحول الصوتي العظيم فيها علىٰ أشده ، أي أن اللُّغة الإنجليزيَّة كانت تعيش مرحلة تغير وتبدل عظيم ، ولم تفلح محاولات المعيَّرة فى استيعاب التغيرات



الصوتية الشاملة التي بدلت معالم اللُّغة كلياً . ورغم أن المأمول كان أن يساعد دخول الآلة الكاتبة علىٰ تعديل الكتابة ، ووضع معايير لها يتفق عليها الجميع ، إلا أن دخول الآلة الكاتبة ساعد في تعقيد المسألة وزيادة الفجوة بين المنطوق والمكتوب . حيث ساعدت الآلة الكاتبة علىٰ ترسيخ وتثبيت نمط كتابي معين للكلمات ، بينما كانت اللُّغة المنطوقة تعيش مرحلة تغييرات متسارعة . فبدلًا من أن تستوعب هذه التغيرات ، فقد جمدت الكتابة علىٰ حالتها لتعبر عن لغة غير اللُّغة التي طرأت عليها كثير من التبدلات والتحولات .

ومما زاد الطين بلة ، أنه نسبة لقلة الذين يعرفون الكتابة من الإنجليز في هذه الحقبة الزمنية ، فقد استعانت دور النشر بمجموعات من الكتبة الهولنديين ليكتبوا اللُّغة الإنجليزيَّة ، وليضعوا لها أسس كتابتها . ولما كان هؤلاء من غير الناطقين باللُّغة الإنجليزيَّة ، فقد نتج عن ذلك نمط كتابي للإنجليزية متأثر لحد بعيد بتقاليد نمط وقواعد الكتابة الهولندية . فعلىٰ سبيل المثال كلمة "ghost" كانت تكتب بالإنجليزيَّة القديمة (gast) وهكذا تنطق ، ولكن هذه الكلمة لها كلمة مشابهة في الهولندية هي كلمة (Ghest) وحرف الـ(g) غالباً ما يأتي مصحوباً بحرف الـ (h) في الهولندية . فنقل الهولنديون هذه الصورة إلىٰ اللُّغة الإنجليزيَّة . كما حذف الهولنديون الذين كتبوا للانجليز لغتهم ، بعض الأصوات التي لم تكن مألوفة لديهم في لغتهم ، وذلك مثل الصوت الذي يمثله الرمز/ θ/ ويرمزله بالحرف (y)والذىٰ تبدل فيما بعد ليمثل بحرفين هما الـ (th) (Basler، 1993) .

ثم هناك ظاهرة أخرىٰ مرتبطة بظهور الطباعة ودخول الآلة الكاتبة ، وهي إضافة بعض الحروف إلىٰ بعض الكلمات ، وذلك لإحداث التوازي بين الأسطر من حيث طولها . ولهذا السبب فقد ظهرت بعض الحروف الزائدة علىٰ بعض الكلمات دون أن يكون لها قيَّم صوتية . وهكذا ازداد التباعد بين صورتي اللُّغة

المكتوبة والمنطوقة بصورة كبيرة (كريستيان وآخرون ، ١٩٩٨م) .

الكلمات المستعارة من اللُّغات الأخرىٰ وأثرها في الكتابة الإنجليزيَّة :

حينما أدخل وليم كاكستون الطباعة في انجلترا ، واجه مجموعة ضخمة من الكلمات الأجنبية في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فهذه الكلمات الأجنبية والتي تمثل جزءاً مقدراً من مفردات اللُّغة الإنجليزيَّة ، جعلت قضية الكتابة مسالة معقدة جداً ، حيث كانت هذه المفردات تكتب بطريقة مخالفة لتقاليد اللُّغة الإنجليزيَّة ؛ فكانت تكتب حسب تقاليد وقواعد الكتابة في اللُّغة التي استعيرت منها (كريستيان وآخرون ، ١٩٩٨) .

وفي هذا المجال سبق القول بأن الإنجليزيَّة قد استعارت عدداً مقدراً من مفرداتها من لغة النورمنديين ، وهي لهجة فرنسية قديمة . وحتىٰ بعد سقوط النورميين ورحيلهم عن البلاد ، فقد ظلت هذه المفردات تكون جزءاً أساسياً من اللُّغة الإنجليزيَّة . ويحصي (Basler، 1993) أكثر من عشرة آلاف مفردة من اللُّغة الفرنسية النورمندية ، والتي صارت جزءاً من قاموس اللُّغة الإنجليزيَّة . وكانت المفردات الفرنسية الوافدة إلىٰ الإنجليزيَّة تكتب حسب تقاليد اللُّغة الفرنسية . ولكنها تطورت في مراحل لاحقة لتفقد بعض سماتها الرئيسة ، وحافظ البعض منها علىٰ نمطه الأصل . ومن أمثلة ذلك الحرف (w) الذي تطور ليصبح (gw) ثم تطور في مرحلة لاحقة ليصبح (g) . وبذلك نجد كلمات في اللُّغة الإنجليزيَّة الآن مثل (wage) التي أصبحت (gage) و كلمة (warrnty) التي أصبحت (guaranty) . مثل هذه المتغيرات أدت إلىٰ إضافة المزيد من التعقيد علىٰ كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة .

إعادة كتابة الكلمات حسب أصولها وأثر ذلك في اللُّغة الإنجليزيَّة :

إن من المسائل التي أدت إلىٰ زيادة تعقيد الهجاء في اللُّغة الإنجليزيَّة ، المحاولات التي جرت في عهود مختلفة لكتابة بعض المفردات حسب الأصول التي جاءت منها . ومن أشهر هذه المحاولات ما جرىٰ في عصر التنوير . ويذكر (Culpeper، 1997) أن هذا العصر شهد توجهًا قويًا نحو بعث المعارف والعلوم القديمة ، ولا سيما علوم الرومان والإغريق . وحسب هذا التوجه ، فقد قام بعض العلماء بتقصي الأصول التي وفدت منها بعض الكلمات المستخدمة في اللُّغة الإنجليزيَّة . وعلىٰ الرغم مما طرأ علىٰ هذه الكلمات من تغيير في اللفظ ، إلا أن هؤلاء الباحثين قاموا بمحاولات عديدة لإعادة كتابة تلك الكلمات حسب طرق كتابتها في اللُّغة اللاتينية القديمة والإغريقية . وقد صحب هذه المحاولات جدل كثيف ، وكانت حجة دعاة هذه المحاولة ، أنه من الضرورة بمكان ، المحافظة علىٰ أصول تلك الكلمات بغض النظر عما طرأ عليها من تغيير . ونتج عن هذه المحاولات كتابة بعض الكلمات بصورة تخالف مخالفة واضحة طريقة نطقها . ومن أمثلة تلك الكلمات ما تم من تحور في كتابة مفردات مثل : (doubt وdebt) والتي كانت تكتب (doute) و (dette) ، وقد أدخل الحرف (b) للإشارة إلىٰ أن هذه الكلمات ذات أصول لاتينية . وأصولها اللاتينية هي (dubitae) و (debitum) . هذا الأمر ينطبق علىٰ حرف الـ (p) في كلمات مثل (receipt) (psychology) . وقد اندفع بعض المتحمسين لهذا التوجه إلىٰ تجاوز الحدود وتعميم هذا المذهب علىٰ كثير من الكلمات مما أوقعهم في أخطاء فادحة . ومن أشهر تلك الأخطاء ، إدخال حرف الـ (s) علىٰ كلمات مثل (island) . فهذه الكلمة منحدرة من اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة ، وكانت تكتب وتقرأ (iland) بدون " (s) . وقد أدخلت (s) علىٰ اعتقاد أن هذه الكلمة منحدرة من أصل الكلمة

اللاتينية (insula) وهذا خطأ . وأصلها في اللُّغة الإنجليزيَّة القديمة (igland) . واسقط منها صوت الـ (g) في مرحلة الإنجليزيَّة الوسيطة .

ومن الكلمات الأخرىٰ التي شهدت تبدلًا واضحًا في نطقها ورسمها جراء التأثر بمحاولات إرجاع الكلمات إلىٰ أصولها ، ما يظهر في الكلمات مثل : (aventure) ، والتي تحولت نطقًا ورسمًا لتكتب (adventure) . وقد حدث نفس هذا التحول في كلمة (assaualt) والتي كانت تكتب وتنطق (assaut) بدون حرف الـ (L) وكلمة و (verdict) والتي كانت تكتب وتنطق (verdit) (Barber، 1993) .

محاولات إصلاح الكتابة الإنجليزيَّة :

منذ القرن الرابع عشر وحتىٰ الآن ، جرت محاولات عديدة لإصلاح الكتابة الإنجليزيَّة . وكان الدافع لمجمل تلك المحاولات ردم الهوة الواسعة ما بين المكتوب والمنطوق ، أي بين الرموز الكتابية وقيمها الصوتية . وكانت هذه العملية من العمليات الشاقة ، وكثيراً ما يقابلها رفض قاطع من بعض قطاعات المحافظين المهتمين بالشأن الثقافي ، وذلك تحت شعار المحافظة علىٰ التراث اللغوي . وقد يسوق المعارضون بعض المغالطات التي لا ترقىٰ لمستوىٰ النقاش العقلاني . فمن ضمن أولئك الذين يسوقون لتلك المغالطات ، شخص اسمه مستر فليش (Flesch) والذي يدعي أن (٨٦٪) من مفردات اللُّغة الإنجليزيَّة لها طريقة هجاء منتظمة . وقد أجريت كثير من الاستطلاعات والدراسات التي تدحض مثل هذه الادعاءات ، والتي أثبتت وبما لا يدع مجالًا للشك ، أن كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة كتابة معقدة جداً ، وتستغرق كثيراً من الجهد والزمن . كما أبانت بعض الدراسات التطبيقية أن صعوبة النظام الكتابي يؤثر سلبًا في مستوىٰ سرعة القراءة وفهم المقروء . وأثبتت دراسات أخرىٰ أن الطفل الإنجليزي يحتاج إلىٰ

عـامين أكثـر مـن الأطفـال في ألمانيـا وفرنـسا لإتقـان نظـام الكتابـة الإنجليزيَّـة (Troger، 1957) .

ولإحداث شيء من التوافق ما بين المكتوب والمنطوق ، فقد جرت عدة محاولات في مراحل عديدة لإصلاح النظام الكتابي في الإنجليزيَّة . وأُنشأت عبر التاريخ الحديث بعض الجمعيات والمنظمات لهذا الغرض ، وكانت أول هذه المحاولات في عهد شكسبير . ولكن جاءت معظم تلك المحاولات الباكرة من قبل أفراد ، ولذا لم يكتب لها النجاح . كما أنها دائماً كانت ترتطم بعقبة التيارات التقليدية التي تقاوم كل محاولة للإصلاح أو التعديل تحت شعار المحافظة علىٰ التراث .

ومـن المحـاولات المنظمـة لإصـلاح الكتابـة الإنجليزيَّـة ، مـا تـم في العـام ١٨٧٩م ، حيث أنشأت الجمعية البريطانية لإصلاح الهجاء في اللُّغة الإنجليزيَّة . وفي عـام ١٨٩٨م قامـت جمعيـة الهجـاء المبسط التـىٰ أنـشأتها مجموعـة مـن الأكاديميين البريطانيين . وعلىٰ الرغم من هذه الجهود المنظمة ، إلا أن عملية الإصلاح تعثرت كثيراً ولم تأت أكلها .

وفي خارج بريطانيا ، فقد جرت محاولات مشابهة في هذا الاتجاه ، ولكنها أيضاً لم تحظ بالنجاح المطلوب . ففي استراليا مثلًا ، جاء ما عرف بالمبادرة الأولىٰ لإصلاح الهجاء في عام ١٩٦٩م ، وأجريت بعض التغيرات علىٰ رسم بعض الكلمات مثل (head) و (friend) و (guess) التي كتبت بصورة نطقها أي "hed" و (frend) و (gess) . ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح وماتت في مهدها بعد مجيء حكومة المحافظين (Sampson، 1985) .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية جرت محاولات أكثر جدية . واستطاعت تغيير هجاء بعض الكلمات مثل (through) التي كتبت (throu) و (centre) التي

كتبت (center) و (colour) التي كتبت (color) علىٰ الطريقة الأمريكية . وقد روجوا لهذه الإصلاحات من خلال الإعلانات التجارية والسينما ووسائل الإعلام حتىٰ اكتسبت نوعاً من الذيوع والانتشار . ولكن تحت كل الظروف ظلت هذه المحاولات ، محاولات محدودة لم تطل جوهر كتابة المفردات ، ولم تعالج الخلل الرهيب الذي تعاني منه الكتابة الإنجليزيَّة ، والتي تشكل صعوبات معتبرة لكل من يحاول تعلم هذه اللغة .

كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة في الوقت الحاضر :

كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة في الوقت الحاضر تعتبر من أنماط الكتابة المعقدة جداً . وهي في مجملها كتابة اصطلاحية يتطلب فك رموزها وحل شفراتها زماناً وجهداً . وهي أبعد ما تكون عن أنماط الكتابة الهجائية القياسية . فالعلاقة بين رموزها الكتابية ، وقيمها الصوتية ليست علاقة أحادية . فالصوت قد يمثل بأكثر من رمز أو حرف . والحرف قد يمثل أكثر من صوت ، وقد يكتب الحرف في الكلمة دون أن تكون له قيمة صوتيه مطلقاً ، والعكس صحيح ، أي أنه قد ينطق صوت في كلمة دون أن يكون له حرف يمثله في الكلمة التي ينطق فيها . وأمثلة ذلك تجل علىٰ الحصر . فاللُّغة الإنجليزيَّة والتي تكتب بالحروف اللاتينية ، يتكون نظامها الصوتي من ثمانية وأربعين صوتاً ، بينما يتكون نظامها الهجائي من ستة وعشرين حرفاًفقط . فمن عموم هذه الحالة يفهم بالضرورة أن يمثل الحرف أكثر من صوت ، وهذا أمر متوقع . إلا أن الذي يصعب فهمه ، أن يُمثل الصوت الواحد بأكثر من حرف كما هي الحال في الصوت " /K/ والذي يمثله الحرف (k) والحرف (c) والحرف (q) والحرفان (ch) وغير ذلك كثير .

ومن واقع القوائم الطويلة لما يحتمل أن تمثله حروف الأبجدية اللاتينية والمستخدمة في كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة ، وبالنظر إلىٰ استثناءاتها غير المتناهية ؛ فإنه

يتبين أنه من الصعوبة بمكان ، إن لم يكن من المستحيل ، التنبؤ بطريقة كتابة الكلمات الإنجليزيَّة . بمعنىٰ آخر أنه لا يمكن للفرد أن يكتب كلمة باللُّغة الإنجليزيَّة إن لم يكن يحفظ طريقة هجائها سلفا ، إذ أن العلاقة بين سلسلة الأصوات المكونة للكلمة ورموزها الهجائية ليست علاقة ثابتة . وهذا الأمر يجعل الباحث يصل إلىٰ نتيجة واحدة ، مفادها أن نظام الكتابة الإنجليزيَّة نظام معقد جداً ؛ فلكي تقرأ الكلمة صحيحة يتوجب أن تكون حافظاً لطريقة هجائها ، وأن تكون هذه الكلمة واردة في سياق . ولكي تكتبها صحيحة ، فإنه يتوجب أن تكون حافظاً لهجائها سلفاً . أما حدس الشخص وذوقه واستخدام المنطق والقواعد العامة للهجاء ، فلن يفيد كثيراً ، ولن يجدي فتيلًا ، ولن يسعفَ متعلماً .

نظرة تحليلية لحروف اللُّغة الإنجليزيَّة :

لإثبات صحة القول بصعوبة وتعقيد النظام الكتابي في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فانه يجدر أن يلقي الباحث نظرة تحليلية علىٰ نماذج الحروف التي تستخدم في كتابة اللُّغة الإنجليزيَّة ، والقيم الصوتية المتعددة التي يمكن أن يمثلها كل حرف ، والأصوات المختلفة التي يمكن تمثيلها بحرف واحد ، وبدون أن يكون ذلك كله محكوماً بقواعد ثابتة أو معايير متعارف عليها . وإذا أضيف إلىٰ ذلك مجموعة الأصوات المنطوقة غير المكتوبة ، والحروف المكتوبة والتي ليس لها قيم صوتية منطوقة في بعض الكلمات ، فإن الصورة تبدو معقدة حقاً . وفيما يلي استعراض لبعضٍ من تلك النماذج علىٰ سبيل المثال لا الحصر .

١ - الصوت / k/ يمكن أن يُمثل بعدة حروف تشمل الـ(c) و(k) و (qu) و(ch) و(ck) وذلك مثلما هو الحال في كلمات مثل (Cat وkit و queen و chemistry وback) .

وفي نفس الوقت ، فان حرف الـ (c) يمكن أن ينطق / S/ مثلما هي الحال في (city) و (cellar) و (face) وقد ينطق / k/ مثلما هي الحال في (cat) و (cross) و (cate) وقد ينطق / ks/ مثلما هي الحال في (accept) و (accentric) و (accident) .

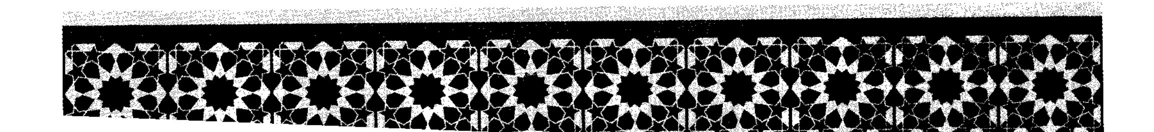
٢ - والحرف المركب الممثل بـ (ch) قد ينطق /tʃ/ مثلما هي الحال في (chase) و (chin) و (teacher) . ولكن نفس الحرف المركب (ch) قد ينطق / k/

كما هو الحال في (Chemistry) و (Ache) و (Chord) وقد ينطق / ʃ/ كما هي الحال في (Chaise و Machine) .

٣ - أما الحرف (G) فقد ينطق /g/ مثلما هي الحال في (go) و (great) . وأحياناً يحتاج لأن يكرر هذا الحرف للحصول على نفس الصوت مثلما هي الحال في (Stagger) و (Suggest) . ولكنه لا ينطق أبداً في كلمات مثل (Diaphragm) و (Phlegm) (gnome) و (gnew) و (Sign) .

٤ - أما الحرف المركب gh فقد ينطق /f/ مثلما هي الحال في (Laugh) و (Enough) . وقد ينطق /g/ مثلما هي الحال في كلمة (Ugh) وقد ينطق /p/ مثلما هي الحال في كلمة (Hiccough) ، وقد يأتي في كلمة ولا تكون له أي قيمة صوتية ، مثلما هي الحال في كلمة (Dough) وكلمة (High) وكلمة (Neighbor) وكلمة (Right) .

٥ - أما الحرف T فلا ينطق في كثير من الحالات التي يقع فيها متوسطاً بين حرفي S و L ، مثلما هي الحال في (Castle) و (Whistle) . ولا ينطق صوت /t/ في (Christmas) و (Listen) . كما لا ينطق هذا الحرف في أواخر الكلمات ذات الأصول الفرنسية مثل (Depot) و (ballet) و (bouquet) و (Peugeot) .



٦ - والحرف المركب Th قد يمثل الصوت / Θ/ مثلما هي الحال في (Rather) و (Father) يمثل الصوت / ə/ مثلما هي الحال في (The) و . (That) . وقد ينطق (ث)مثلما هيٰ الحال في كلمة (Think)

٧ - والحرف (S) قد ينطق /s/ مثلما هي الحال في (Dense) و (Pass) ، وقد ينطق /z/ مثلما هي الحال في (Plays) وقد ينطق /ʃ/ مثلما هي الحال في (Sugar) .

٨ - أما صوت / ʃ / الذي يقابل صوت الشين في العربيَّة فأمره عجيب . فقد يمثل بـ (Sio) مثل (Vision) ، وقد يمثل بـ (C) مثلما هي الحال في (Ocean) وقد يمثل بـ (Sc) ومثلما هي الحال في (Conscience) وقد يمثل بـ (ssio) مثل (Discussion) و (Passion) و (Mission) . وقد يمثل الصوت /ʃ/ بمركب ch في مثل كلمة (champion)، (Moustache) .

٩ - الحرف (L) لا ينطق في حالات متعددة خصوصاً إذا وقع قبل حروف (f) و (k) و (m) مثلما هي الحال في الكلمات (calf) و (half) و (walk) و (talk) و (palm) و (Holmes) والحرف " L " لا ينطق في وسط كلمتي (should) و (could) .

١٠ - أما الحرف (R) فهو لا ينطق أبداً إلا إذا وقع في بداية الكلمة أو وقع بين صوتين صائتين مثل (red) و (reference) .

هذه مجرد أمثلة عابرة لما يمكن أن تكون عليه الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة من تعقيد . وهنا يشير Rolling (2004) إلىٰ أن في اللُّغة الإنجليزيَّة أكثر من تسعين قاعدة غير ثابتة للهجاء . وأن لكل قاعدة من تلك القواعد عدداً غير محدد من الاستثناءات . ويدعم هذا القول ما ذهب إليه باحث انجليزي آخر إذ يقول : هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال فيما يتعلق بالهجاء الانجليزي ، ولكن لا يستطيع

أحد أن يدعي أن الهجاء في اللغة الانجليزية وسيلة ثابتة تمثل أصوات اللُّغة علىٰ الورق ، وأنه ليس أداة علمية . (ألبرت ، ٢٠٠١ : ٧)

أما الأديب الانجليزي الشهير برناردشو ، فينتقد الهجاء الانجليزي بصورة فيها كثير من السخرية والتندر ، ويصفه بأنه غير منطقي . ويطالب برناردشو بإلغاء طريقة الهجاء الإنجليزي التقليدية بالكلية ، وينادي بضرورة تبنىٰ طريقة أخرىٰ تربط ما بين المنطوق والمكتوب بصورة عقلانية . وحين توفي في سنة ١٩٥٠م أوصىٰ بوقف نصف ثروته لدعم الجهود القاصدة إلىٰ تطوير هجاء اللُّغة الإنجليزيَّة....وإزاء هذه الحقائق المذهلة ، ليس أمام الباحث إلا أن يقول : « شهد شاهد من أهلها » .

الهجاء في اللُّغة الفرنسية :

وما يقال عن الهجاء في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فإنه يمكن أن ينطبق إلىٰ حد كبير علىٰ الهجاء في اللُّغة الفرنسية . فالفرنسية أيضاً من اللُّغات الحديثة نسبياً ، حيث ترجع بداية نشأتها إلىٰ القرن السادس الميلادي ، حين انشطرت هي والايطالية والأسبانية من اللُّغة اللاتينية الأم . فنشأت هذه اللُّغات بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر علىٰ كل أوربا الغربية ، وكثير من البلاد حول البحر المتوسط .

تطورت الفرنسية إلىٰ لغة مستقلة ، بعد أن كانت لهجة من لهجات اللُّغة اللاتينية ، وتبلورت في شكلها المعروف اليوم بعيد منتصف القرن السادس عشر . واللُّغة الفرنسية المعاصرة ورثت نهج الكتابة اللاتينية وتبنت نظامها الهجائي واتخذت حروفها رموزاً لكتابتها .

كانت المشكلة تكمن في التغيير الكبير الذي طرأ علىٰ نطق اللُّغة الفرنسية في

الفترة ما بين بداية نشأتها في القرن السادس الميلادي وانشطارها من اللُّغة اللاتينية ، وحتىٰ تبلورها في صورتها الحديثة في القرن السادس عشر . وقد حدثت تطورات وتغيرات ثقافية وسياسية وسكانية علىٰ مدىٰ تلك القرون العشرة انعكست آثارها علىٰ اللُّغة الفرنسية الحديثة بصورة واضحة . حيث تبدلت الفرنسية في نطقها ونحوها وصرفها حتىٰ لم يعد من السهولة علىٰ متحدثي الفرنسية الآن فهم اللُّغة الفرنسية التي كانت مستخدمة قبل القرن السادس عشر أو الخامس عشر . أما صلة الفرنسية الحالية باللُّغة اللاتينية الأم فقد ضعفت تماماً وغدت أثراً بعد عين (Walter & Walter، 1998) .

وكان من الطبيعي أن تنعكس هذه الاحداث علىٰ نظام الهجاء في الفرنسية . فالفرنسية المعاصرة والتي طرأ عليها كثير من التغييرات في نطقها ، ظلت تكتب بنفس الطريقة التي كانت تكتب بها قبل حدوث تلك التغيرات . فقد أسقطت كثير من الأصوات من الشكل اللغوي المنطوق ، ولكنها ظلت مُحافظاً عليها في النمط الكتابي ، خصوصاً في نهاية الكلمات . وقد يصل عدد الحروف غير المنطوقة في الكلمة الفرنسية الواحدة إلىٰ ثلاثة أو أربعة حروف تكتب ولا تنطق .

ففي اللُّغة الفرنسية ما يعرف بـ(e) (meute) أي حرف الـ(e) الصامتة . فهذا الحرف غالباً ما يسقط من النطق إذا جاء متطرفاً أو متوسطاً في الكلمة ، ولا تكون له أية قيمة صوتية مثلما هي الحال في كلمات : (monde) وتنطق / mend/ و(mode) وتنطق / mod/ و(petite) و تنطق / pti/ و(elle) وتنطق / el/ .

أما علىٰ مستوىٰ الأصوات الساكنة ، فكثيراً ما تظهر في الشكل المكتوب ولا يكون لها تمثيل صوتي . ومن تلك الحروف المكتوبة غير المنطوقة ما يعرفه الجميع عن أسماء بعض الشركات المنتجة للسيارات مثل (Peugeot) و(Renault) . وتجد ذلك في مثل كلمة (plemb) وتنطق / plo/ وهي تعني معدن

الرصاص . وكلمة (trop) وتنطق / tro/ وتعني كثيراً جداً ومثلها كلمة (tres) وتنطق / tre/ وتعني كثيراً جداً أيضا . وكلمة (congers) وتنطق / konre / وتعني مجلسًا ، وكلمة (temps) وتنطق / to/ وتعني الوقت أو الزمن وكلمة (corps) وتنطق / kor / وتعني الجسم أو الجسد .

وتشتهر اللُّغة الفرنسية بظاهرة حذف الحروف الأخيرة حيث يظهر ذلك علىٰ مستوىٰ واسع في كثير من العبارات الشائعة الاستخدام مثل (leshommes) وتنطق / Lezon/ وتعني الرجال . كما تشتهر الفرنسية بظاهرة الإدغام كما هي الحال في عبارات (Jaime) وتنطق / zem/ وتعني أنا أحب ، وعبارة (je'aime) وتنطق / Zotem/ وتعني أحبك . وعبارة (ils sappellento)وتنطق / ilsapel/ وتعني يميتون أنفسهم . وعبارة /silveux/ وتنطق / silvo / وتعني إذا يريد ، وكذلك عبارة / sils veulent/ وننطق /silvol/ وهي تعني إذا يريدون .

وهكذا يظهر هذا الفرق الشاسع بين المنطوق والمكتوب في الفرنسية مما يجعل مسألة الكتابة والهجاء مسألة في غاية التعقيد والصعوبة . وبذلك يصح القول بأن هذه النظم الكتابية أو الهجائية لتلك اللُّغات ، إنما هي نظم اصطلاحية ، وليست بأي حال من الأحوال نظم هجائية صوتية ، كما يدعي البعض . وتكون بذلك بعيدة كل البعد عن النهج الذي ينادي به اللُّغويون المحدثون الذين يعدون الكتابة الصوتية الهجائية معياراً لجودة الكتابة وسهولتها .

خاتمـــة :

في ختام هذا الفصل يعود الباحث تارة أخرىٰ إلىٰ اللُّغة العربيَّة ، وطريقتها في الهجاء والكتابة ويقارن بينها وبين أنماط الهجاء والكتابة في اللُّغات الأخرىٰ ، فيؤكد أن نمط الكتابة العربيَّة مبرأ لحد كبير من تلك العلل والنقائص التي تشكل

عقبات كأداء في سبيل تمثيل أصوات تلك اللُّغات برموز مكتوبة ، ومن ثَمَّ في سبيل تعلمها وإتقانها وسلامة قراءتها ونطقها . فنظام الكتابة العربيَّة هو نظام صوتي قياسي يتطابق فيه المنطوق مع المكتوب بصورة شبه تامة . يقال شبه تامة ، لأن هناك حالات محدودة جداً يخالف فيها المنطوق المكتوب . ولكن ، ولحسن الحظ ، فإن هذه الحالات النادرة تحكمها قواعد صارمة ثابتة . فهناك مثلًا الألف التي تعقب واو الجماعة التي تثبت كتابة وتسقط نطقًا . وقد أضيفت هذه الألف لعلة التفريق بين واو الجماعة وواو الفعل المضارع الذي يكون فاعله مفرداً كما هو الحال في كلمة يرجو وينمو ويدنو وأرجو . فإضافة الألف لواو الجماعة تؤدي وظيفة مهمة ، وهي ليست إضافة عبثية كما هو الحال في اللُّغات الغربية .

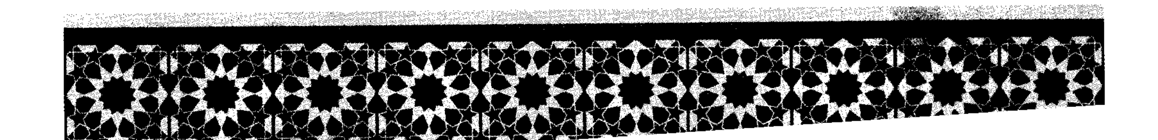
ثم هناك صوت الألف الذي يسمع في أسماء الإشارة ، وهو صوت يثبت لفظًا ويسقط رسمًا ، كما هي الحال في « هذا » ، « وذلك » ، و« أولئك » و« هكذا » . ومرة أخرىٰ فان هذه الظاهرة تحكمها قاعدة ثابتة ، وهي مرتبطة بأسماء الإشارة فقط . وأخيراً هناك اللام الشمسية وهي لام تسقط نطقًا لاعتبارات تجاور بعض الأصوات . وهي ظاهرة مرتبطة بعدد محدد من الحروف ومحكومة بقاعدة صارمة ثابتة ولا مزيد علىٰ ذلك .

وبدراسة هذه الحالات النادرة ، وما يحكمها من قواعد ثابتة ، يمكن للشخص مهما تواضعت حصيلته المعرفية باللُّغة العربيَّة ، أن يكتب أية كلمة ويقرأها دون عناء ، وهذا نقيض ما يحدث في اللُّغات الغربية الحديثة ، حيث الفرق شاسع بين أنماطها المكتوبة والمنطوقة ، ويكاد ينعدم التطابق بين الرموز الكتابية أو الحروف ، وما تمثله من أصوات . وعليه فإنه يصعب ، إن لم يكن من المستحيل في كثير من الأحيان ، أن يتنبأ شخص بطريقة كتابة كلمة ما ، أو قراءتها صحيحة ما لم يكن قد حفظ هجاءها سلفا ، حيث إن لكل كلمة طريقة خاصة بها

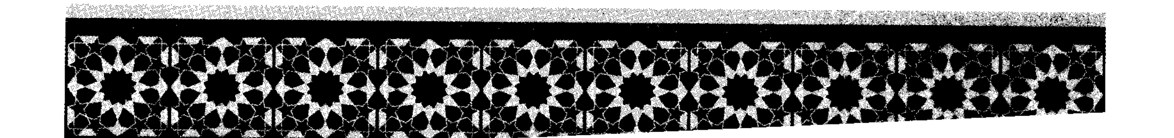
في الهجاء والنطق وليست ثمة قواعد ثابتة تحكم ذلك .

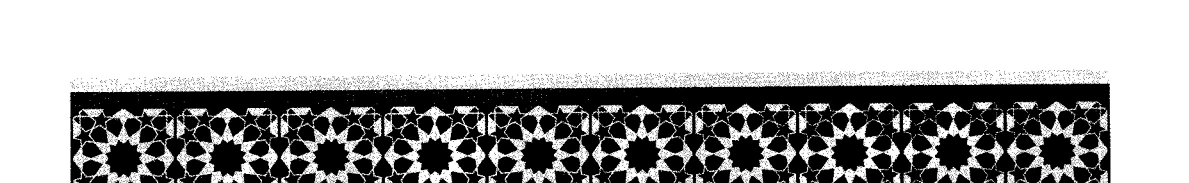
فالنظام الصوتي في اللُّغة العربيَّة مكون من واحد وثلاثين صوتاً تمثلها ثمانية وعشرون حرفاً وثلاث حركات ، وبذا يُمَثل كل صوت برمز مخصص له ، وهذا هو جوهر النظام الصوتي الذي بنيت عليه الألفبائية العالمية الحديثة (IPA) .

بقيت ملاحظة مهمة تجدر الإشارة إليها في هذا المقام ، وهي أن طريقة كتابة اللُّغة العربيَّة وحروفها قد تبنتها كثير من لغات العالم . فمن اللُّغات التي تكتب بالحرف العربي : اللُّغة الفارسية والأُردية ، واللُّغة الكشميرية والبشتونية ، واللُّغة الطاجيكية واللُّغة القمرية ، واللُّغة الكردية ولغة البهاسا ، واللُّغة الملاوية والبلوشية والبالتية ، واللُّغة البراهومية والبنجابية ، واللُّغة السندية والكازاخية والقرغيزية والأذرية ، واللُّغة البربرية ، كما تكتب اللُّغة البلاروسية بحروف عربية وكذلك الأفركانية ، ولغة الهوسا في أفريقيا . وقد كانت اللُّغة التركية تكتب بالحرف العربي حتىٰ قيام حركة كمال أتاتورك ، الذي تبنىٰ الحروف اللاتينية لكتابة اللُّغة التركية . وثمة ملاحظة أخيرة تجدر الإشارة إليها ، وهي أن كتابة اللُّغة العربيَّة تتماشىٰ مع فطرة غالبية البشر : إذ تكتب من اليمين إلىٰ اليسار . واللُّغات الأوربية وكثير من اللُّغات الأخرىٰ تكتب من اليسار إلىٰ اليمين ، وهذا عكس فطرة غالبية بني الأنسان .



الفصل السادس :
النحو والصّرف في اللُّغة العربيَّة
واللُّغات الأخرىٰ





مدخـل :

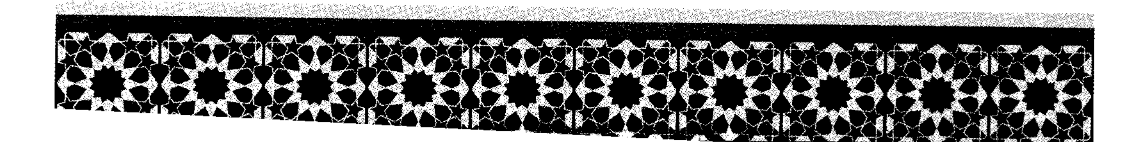
يبحـث هـذا الفـصل في نحـو اللُّغـة العربيَّـة وصـرفها وقيمتهمـا الوظيفيـة ، ودورهما في إبراز المعاني وتسهيل تعلم اللُّغة العربيَّة ، والمحافظـة عليهـا علىٰ مرِّ السنين وتعاقب الأجيال . ثم يتطرق الفصل إلىٰ مناقشة هـذين العلمين في اللُّغـات الأخرىٰ تمهيداً لإجراء المقارنات والمقـابلات المطلوبـة بـين النحـو والـصرف في اللُّغـة العربيَّـة ونظائرهمـا في اللُّغـات المعاصـرة . وحتـىٰ يـسهل إجـراء تلـك المقابلات والمقارنـات كـان لزامـاً أن يـسعىٰ هـذا الفـصل للتعريـف بتلـك العلـوم والوقوف علىٰ نشأتها وتطورها ، والجهود التي بذلت من قبل علمـاء اللُّغـة لتطـوير تلك العلوم ، وتبويبها وبسطها لطلبة العلـم ودارسـي اللغـة ، لتعـصم ألـسنتهم مـن الخطأ ، وعقولهم من الإبهام .

النحو في اللُّغة العربيَّة :

تعريف النحو :

عرفت الموسوعة العربيَّة www . mawsoah . net النحو علي أنه علـم يبحـث في أصول تكوين الجملة ، وقواعد الإعراب . فغاية علـم النحـو أن يحـدد أسـاليب تكـوين الجمـل ومواضـع الكلمـات ووظيفتهـا فيهـا ، كمـا يحـدد الخـصائص التي تكتـسبها الكلمـة مـن ذلـك الموضـع ، سـواء أكانـت خـصائص نحويـة كالابتـداء والفاعلية والمفعولية ، أو أحكامـاً نحوية كالتقديم والتأخير والإعراب والبناء .

فالنحو لغة ، هو القصد والاتجاه والمقدار . فقـد ورد في المعجـم المحـيط في معنىٰ كلمة (نحو) (نحا ينحو نحواً) نحـو الـشيء وإليـه : مـال إليـه وقـصده ؛ نحـا الصديقان إلىٰ المقهىٰ : ونحا نحـوه : سـار علىٰ إثـره وقلـده . نحـا الطالـب نـحو



أستاذه ، و كذا نحا عنه : أبعده وأزاله : نحا عن نفسه الجبن والكسل . (القاموس المحيط)

ومن ذلك فقد سُمي علم النحو بهذا الاسم لأن المتكلم ينحو به منهاج كلام العرب إفراداً وتركيباً . قال ابن جنِّيْ في كتابه الخصائص « النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره : كالتثنية ، والجمع ، والتحقير والتكسير ، والإضافة والنسب ، والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللُّغة العربيَّة بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذَّ بعضهم عنها رد به إليها . وهو في الأصل مصدر شائع ، أي نحوت نحواً ، كقولك قصدت قصداً ، ثم خُصّ به انتحاء هذا القبيل من العلم » (١/ ٣٤) . فبهذا المفهوم يكون النحو عند ابن جنِّيْ هو انتهاج نهج العرب في طريقة كلامهم تجنباً للحن وتمكيناً لدارسي اللُّغة العربيَّة أن يكونوا كأهلها الناطقين بها في فصاحتهم ، وسلامة أدائهم اللغوي عند الكلام بها .

وفي موضوع هذا العلم ، تمييز الاسم من الفعل من الحرف ، وتمييز المعرب من المبني ، وتمييز المرفوع من المنصوب من المخفوض من المجزوم ، مع تحديد العوامل المؤثرة في هذا كله . وقد استُنبط هذا كله من كلام العرب بالاستقراء . وصار كلام العرب الأوائل شعراً ونثراً -بعد نصوص الكتاب والسنة- هو الحجة والمرجع في تقرير وتحديد قواعد النحو في صورة ما عرف بالشواهد اللُّغوية . وهو ما استشهد به العلماء من كلام العرب لتقرير القواعد التي تحكم كلامهم ، والقوانين التي تضبط أداءهم اللغوي .

أسباب نشأة علم النحو العربي :

بعد اندياح الدعوة الإسلامية المباركة ، ودخول كثير من الأمم من العرب

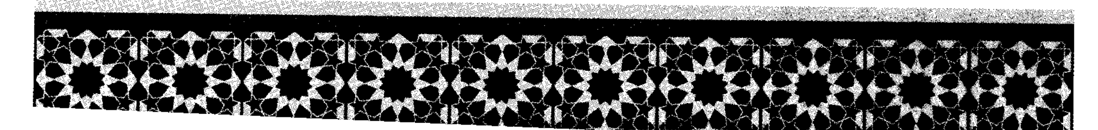
وغير العرب في دين الله أفواجاً ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية ، انتشرت العربيَّة بين هذه الشعوب . كيف لا وهي لغة دينهم الجديد ، الذي أخرجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد . ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة ؛ فأقبلت هذه الشعوب علىٰ العربيَّة تدرسها وتلتمس المعينات والآليات التي تسهل اكتسابها . وكان علىٰ قيادة الأمة في ذلك الزمان ، علماء فحول أدركوا حاجة هذه الشعوب لتعلم العربيَّة ، فأعملوا عقولهم الذكية ، وبصائرهم المستنيرة بنور الله (عزَّ وجلَّ) ، فألفَّوا في هذا العلم الشريف قواعد تستنير بها الأفهام ، وينجلي بها الغموض ، ويزول بها الإبهام .

ويذكر أن أول ما اختل من كلام العرب ، وأحوج إلىٰ التعلم هو الإعراب ؛ لأن اللَّحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي (صلىٰ الله عليه وسلم) . وقد روي أن رجلًا لحن بحضرته ، فقال عليه الصلاة والسلام : (أرشدوا أخاكم فقد ضَلَّ) . فوسم الرسول (صلىٰ الله عليه وسلم) اللّحن بالضلال ، أو الميل عن الطريق الصحيح .

والحقيقة إنه بعد اتساع رقعة العالم الإسلامي ، ودخول كثير من الشعوب غير العربيَّة في الإسلام ، انتشرت العربيَّة لغة بين تلك الشعوب ، مما أدىٰ إلىٰ ظهور اللحن في الكلام . وتأثر بذلك العرب أنفسهم . وحينئذ دعت الحاجة علماء ذلك الزمان ، لتأصيل قواعد العربيَّة لمواجهة ظاهرة اللحن خاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم والعلوم الإسلامية .

الإعــراب :

الإعراب هو أحد أهم خصائص العربيَّة . وهي خاصية عرفت بعد أن تفشىٰ النطق الخاطئ ، أو اللحن في اللِّسان العربي . والإعراب هو الإبانة والإفصاح . ويقال أعرب فلان عن قلقه ، أي عبَّر عنه وأفصح عنه وأبانه . وإعراب العربيَّة هو



تشكيل نهاية الكلمات في سياق الحديث على الوجه الصحيح ، سواء كان هذا التشكيل يختص بتغيير حركة الحرف الأخير ، أو تغيير الحروف الأخيرة في حالات أخرى . وتوصف حالات الإعراب في هذه الحالة بالرفع وعلامته الضمة ، أو الواو أو الألف أو ثبوت النون ؛ والنصب وعلامته الفتحة والياء وحذف النون ، والجر وعلامته الكسرة أو الياء أو حذف النون ، والجزم وعلامته السكون أو حذف النون أو حذف حرف العلة . كما يوجد التنوين ، وهو مضاعفة الحركة الإعرابية في أواخر بعض الكلمات . وغالبًا ما يدل التنوين على أن الاسم المنوَّن نكرة . هذا ويُعَدُّ الإعراب من المميزات التي تخص اللُّغة العربيَّة . فهو قيمة إضافية ، عن طريقه تستطيع معرفة الفاعل والمفعول به في الجملة ، حتى ولو تم تقديم المفعول به على الفاعل . وهذا الأمر يعطي العربيَّة ميزة خاصة ويجعلها أكثر مرونة في التعبير عما يدور في خلد المتحدث . أما في اللُّغات الأخرى المعاصرة ، فإن الرتبة ، أي موقع الكلمة في الجملة هوالذي يحدد وظيفتها وغالبًاما ترد الجملة كما يلي : فاعل ثم مفعول به . ومثال ذلك :

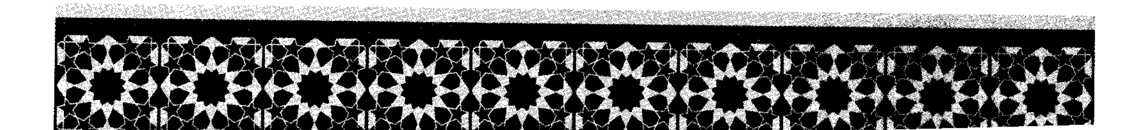
- زار محمدٌ خالداً (محمد فاعل وخالد مفعول) والمعنى هنا واضح : أي قام محمد بزيارة خالد (والجملة هنا عادية وتنطق في أغلب لغات العالم بهذا الترتيب)
- أما زار خالداً محمدٌ (فهي أيضًا تعني أن الفاعل محمد وإنْ تأخر ، وخالداً مفعول وإن تقدم) . وهذه الجملة تعني تمت زيارة خالد بواسطة محمد . عُرف ذلك عن طريق الضم لأن الفاعل يكون مرفوعًا دائما ، ويكون إعرابه : (محمدٌ فاعل مرفوع مؤخر ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره) .

فبهذا الشكل يكون الإعراب أحد أهم السمات المميزة للعربية علىٰ غيرها من اللُّغات المعاصرة . وهو أهم أسباب تفوق الأدب العربي ، سواءً أكان ذلك في الشعر أم النثر أو القصص .

فالعربيَّة ذات طبيعة مرنة تمكن من ابتداع أساليب متنوعة ، بيد أن كثيراً من اللُّغات الأخرىٰ تفتقر لهذه المرونة ، وهكذا تأتي أساليب تلك اللُّغات رتيبة لا حياة فيها ولا تنوع ، ولا جمال . علما بأن التنوع في أساليب العربيَّة وتراكيبها لا يستخدم لأغراض جمالية فحسب ، وإن كان الجمال اللُّغوي في حد ذاته ، يصلح أن يكون غاية وهدفاً . فالتنوع في أساليب العربيَّة يؤدي وظائف شتىٰ تدخل في إيضاح المعنىٰ وعكس الحالة الذهنية والنفسية للمتحدث .

أهم خصائص النحو العربي :

تستند دراسة النحو أو النظام النحوي في كل اللُّغات الحديثة إلىٰ مستويين اثنين هما مستوىٰ المعنىٰ ، ومستوىٰ المبني ، أو ما يسمىٰ في الدراسات اللُّغوية الحديثة ، بمستوىٰ الوظيفة (Function) ومستوىٰ الشكل (Form) (دبة ، ٢٠٠٤) . وقد اهتم النحو العربي ومنذ نشأته الأولىٰ بهذين المستويين معاً . صحيح أنه في بعض مراحل التطور التاريخي لهذا العلم ، اهتم الباحثون اهتماماً زائدا بالجانب الشكلي من خلال نظرية العامل ، إلا أن شيوخ علماء النحو في العربيَّة احتفوا احتفاءً كبيراً بالمعنىٰ ، وجعلوه محوراً مهماً لهذا العلم الشريف . فهناك شيخ النحاة سيبويه وابن السراج (٣١١هـ) و ابن جنِّي (٣٩٢هـ) وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) والسكاكي (٦٦٢هـ) وشمس الدين السخاوي (٩٠٢هـ) وغيرهم من المتأخرين الذين يرون أن وظيفة علم النحو معرفة تأليف الكلام العربي كما نطق به الفصحاء من العرب ، وليس مجرد بحث في أواخر الكلمات .



وتأتي أهمية احتفاء النحو العربي بالمعنىٰ ، من الأهمية التي يحظىٰ بها في التواصل اللغوي . فالمعنىٰ هو الغاية التي من أجلها وضعت اللُّغات ، والأساس الذي تبنىٰ عليه صيغ الكلام وتنتظم بها عباراته . ومما يلفت النظر في جهود علماء النحو الأوائل ، اهتمامهم واحتفاؤهم بالمعنىٰ والمبني بصورة متوازنة . فلم تقف دراساتهم عند حدود المعاني النحوية الجزئية (أبواب النحو) ، ولكنهم انتبهوا للتفاعل الحاصل بين تلك الأبواب ، وما يحصل بسبب ذلك التفاعل من معانٍ نحوية كلية مثل : معاني الخبر ، والإنشاء والقصر ، والوصل والفصل ، والإيجاز والإطناب ، وغيرها مما عده عبد القاهر الجرجاني من صميم علم النحو .

ولعل هذا النهج المتوازن بين المبني والمعنىٰ في معالجة الجوانب النحوية في اللغة ، والذي انتهجه علماء اللُّغة العربيَّة الأوائل ، هو الذي لفت نظر علماء اللُّغة الغربيين المحدثين إلىٰ الاحتفاء بالمعنىٰ ، وقادهم إلىٰ تتبع مستويات المعنىٰ النحوي ، ودراسة خصائصه التركيبية بوصفه أثراً لما يحصل في العقل من ارتباط وتفاعل بين دلالات الألفاظ ومعاني النحو . ويعتقد دبة (٢٠٠٤) أن التقابل المنهجي بين المستوىٰ السكوني (Synchronic) والمستوىٰ الحركي (Dynamic) في اللِّسانيات الحديثة ، ما هو إلا صدىً لما انتهجه علماء النحو العربي الأوائل الذين أكدوا علىٰ هذا التتابع في النظام النحوي في اللغة . فعند دوسيسر فإن البعد السكوني يمثله النظام المغلق ، أي مبنىٰ اللُّغة وقواعدها الثابتة . والنظام الحركي يمثله النظام المفتوح ، أو المعاني التي يرمي المتحدث إلىٰ الإفصاح ، أو التعبير عنها . ففي البعد السكوني ، كما يقول دبة(٢٠٠٤) يكون المتحدث أو المتكلم ملزمًا باتباع قواعد المبني اللغوي ومتقيداً بها ، وبما يمكن أن تمنحه هذه القواعد من معانٍ صورية ينطلق في فهمها أو الإفهام بها مما هي عليه في أبنيتها النموذجية وتواضعاتها الاجتماعية . وفي المستوىٰ الثاني أي

المستوى الحركي ، يكون المتكلم مخيراً بحيث تنفتح طاقاته التعبيرية -في ظل تنوعات سياقية داخلية وخارجية- على احتمالات معنوية متعددة ، غير أن فسحة الحرية والاختيار تظل مقيدة بحدود العلاقة التي تفرضها بنيات اللغة . وهذا عين ما قال به الجرجاني في (أسرار البلاغة ١٩ : ١) الذي يشيد بهذا التوازن بين المستوى (السكوني) و (الحركي) ، أي بين ثبات المباني وحركية المعنى في نظام النحو العربي ، مشيراً إلى أنه مما يبرز فضل التقيد بالبنيات اللُّغوية الثابتة وقواعدها الراسخة ، أن يعصم اللُّغة من أن ينفرط عقد وحدتها ، فيختل فيها ميزان الوظائف ، وتتحول إلى تعبير فوضوي لا صلة له بغرض الإبلاغ والتواصل . وبين هذا التقيد ، وذاك الانفتاح الذي يمثله المستوى الحركي ، تنتظم جمل اللُّغة العربيَّة ، وتترتب وحدات عبارتها بين ثبات تارة ومرونة تارة أخرى ، وفي هذا ما يكسبها قدرة في التوسع في المعاني بما لا يوجد له نظيرٌ في أنظمة اللُّغات الأخرى ، وبما تحصل به الحاجة إلى الانفتاح بناء على أن المتكلم يعجز في كثير من الأحيان عن أن يجد في النظام السكوني ما يعبر به عن كل ما في خاطره من معان (دبة ، ٢٠٠٤) .

إن من أبرز ما يمكن ملاحظته في نظام النحو العربي ، هو مظهر الثبات في صور المبني ، أو صور كلام العرب . فقد وُجد أن كلام العرب يرد على ست صور إجمالًا ، وهي إحدى عشرة صورة تفصيلًا ، وذلك لأنه إما أن يتألف الكلام من اسمين ، وإما من فعل واسم ، وإما من جملتين ، وإما من فعل واسمين ، وإما من فعل وثلاثة أسماء ، وإما من فعل وأربعة أسماء . فهذه ست صور على وجه الإجمال (عبد الحميد ، ١٩٩٨) . ويقول الجرجاني في نفس السياق « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعض بسبب من بعض . والكلم ثلاث : اسم وفعل وحرف . وللتعلق فيما بينها طرق معلومة وهو لا يعدو

ثلاثة أقسام – تعلق اسم باسم ، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما » (أسرار البلاغة ١/ ١) . ثم يمضي الجرجاني في تفصيله مفرعا من هذه الصيغ الأساسية جميع الصيغ التركيبية الممكنة في نظام البنيات محصورة العدد في النحو العربي .

ويذكر السالم (٢٠٠١ : ٨) أن النحاة يقسمون الجملة العربيَّة إلىٰ فعلية واسمية ، فالفعلية ما تصدرها فعل علىٰ رأي البصريين ، أو هي ما حوت فعلًا تقدم أو تأخر علىٰ رأي الكوفيين . والاسمية ما تصدرها اسم علىٰ رأي البصريين ، أو هي ما لا يكون أحد ركنيها فعلًا علىٰ رأي الكوفيين . وعلىٰ هذا تجد أن الجملة العربيَّة مهما تنوعت تراكيبها وتعددت ، لا تخلو أن تكون متمثلة في إحدي هاتين الصورتين . ومن النحاة من يضيف صورة ثالثة وهي الجملة الشرطية ، غير أن ابن هشام يرىٰ أنها من قبيل الجملة الفعلية ويقترح الجملة الظرفية بدلًا عنها .

ثم يأتي عبد القاهر الجرجاني ليتجاوز هذه الصور المحددة ، والجانب الصوري للغة ، إلىٰ آفاق أرحب يستوعب المعنىٰ الكامن وراء المستوىٰ السكوني للغة . يقول الجرجاني : « وهل رأيتم إذ قد عرفتم المبتدأ والخبر ، وأن إعرابهما الرفع أن تتجاوزوا ذلك إلىٰ أن تنظروا في أقسام خبره ، فتعلموا أنه يكون مفرداً وجملة ، وأن المفرد ينقسم إلىٰ ما يحتمل ضميراً له ، وإلىٰ ما لا يحتمل الضمير...وإذا نظرتم في الصفة مثلًا ، فعرفتم أنها تتبع الموصوف ، وأن مثالها قولك : (جاءني رجَل ظريف ، ومررت بزيد الظريف) ، هل ظننتم أن وراء ذلك علماً ، وأن ها هنا صفة تُخَصِص ، وصفةٌ تُوضح وتبين ، وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح؟ . كما أن فائدة الشياع غير فائدة الإبهام؟ ، وأن من الصفة ، صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ، ولكن يؤتىٰ بها مؤكدة ، كقولهم (أمس الدابر) ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ، وصفة يراد بها المدح

والثناء كالصفات الجارية علىٰ اسم الله تعالىٰ وحده . وهل عرفتم الفرق بين الصفة والخبر وبين كل واحدٍ منهما والحال؟ وهل عرفتم أن هذه الثلاث تتفق في أن كافتها لثبوت المعنىٰ للشيء ، ثم تختلف في كيفية ذلك الثبوت » (الدلائل : ١/ ١٢) .

ومن ثنايا هذا النص ، نلاحظ أن عبد القاهر الجرجاني يدعو النحاة إلىٰ تجاوز الصور المغلقة للنحو ، للانفتاح علىٰ آفاق أوسع في هذا العلم الشريف ، وللتعرف علىٰ ما تحويه هذه الأبواب من اختلاف وفوارق ينفتح بها التعبير علىٰ وجوه متعددة من المعاني والأساليب . فهو يرىٰ أن من لم يُعن بدراسة المعاني « فقد أصابته الآفة العظمىٰ بأن يكثر في غير تحصيل ، وأن يحسن البناء علىٰ غير أساس ، وأن يقول الشيء لم يقتله علماً » (الدلائل : ١/ ١٦) .

وتأتي دراسات بعض المتأخرين من علماء اللُّغة العرب وغير العرب ، لتستفيد من هذا التراث الضخم الذي خطه النحويون الأوائل فيما يختص بالمزاوجة بين منظومة المباني والمعاني في النحو العربي . ومن ضمن هذه الدراسات ما جاء في كتاب (اللُّغة العربيَّة معناها ومبناها) لتمام حسان ؛ حيث يستعرض هذا الكتاب نظام النحو العربي ، والذي يتميَّز باحتوائه علىٰ مكونات من النظام الثابت ، أو قل النظام السكوني (Syncoronic) وأخرىٰ تنتمي للنظام المفتوح (Dynamic) والتي تعني بالمعاني . ويلخص تمام حسان أبواب النظام النحوي العربي في مجموعات هي :

١- مجموعة من المعاني النحوية العامة التي تسمىٰ معاني الجمل أو الأساليب ؛ كالخبر ، والإنشاء ، والإثبات ، والنفي ، والتأكيد . وكالطلب وفيه الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والدعاء ، والتمني ، والترجي ، والعرض ، والتخصيص . وكالشرط ، والقسم ، والتعجب ، والمدح ، والذم ، إلىٰ الخ .

٢- مجموعة من المعاني الخاصة ، أو معاني الأبواب النحوية المفردة ؛ كالفاعلية ، والمفعولية ، والحالية الخ .

٣- مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتىٰ تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها . وهي مجموعة العلاقات السياقية ، أو القرائن المعنوية مثل الإسناد ، والتخصيص ، والنسبة ، والتبعية .

٤- مجموعة من المباني والحركات والحروف التي يأخذها علم النحو من الصرف وعلم الأصوات ؛ وهي ما يطلق عليها اسم القرائن اللفظية . مثل : العلامات الإعرابية ، والصيغة ، والرتبة ، والربط ، والأداة ، والتضام ، والمطابقة ، والنغمة .

القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفراده .

ما يميز النحو العربي من النحو في اللُّغات الأخرىٰ :

سبق القول في هذا الفصل بأن النحو العربي يختلف عن النظم النحوية في اللُّغات الأخرىٰ في كثير من السمات . و أبرز تلك السمات كونه يتمتع بقدرٍ عال من المرونة تسمح بالتقديم والتأخير في نظم الكلام . فالنحو العربي لا يحتفي كثيراً بالرتبة أو موقع الكلمة من الجملة لتحديد وظيفتها . فهناك براح للتقديم والتأخير لتحقيق أغراض بلاغية ومعنوية وجمالية عديدة . وفي هذا الإطار يشير عبد القاهر الجرجاني إلىٰ أهمية المعاني النحوية المفتوحة التي تتحقق بالتقديم والتأخير في كلام العرب . فيقول : « ولا تزال ترىٰ شعراً يروقك سمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك أن قُدم فيه شيء ،

وحُول اللفظ من مكان إلىٰ مكان...وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ، ولِمَ كانت أهم . ولتخيلهم ذلك ، فقد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه حتىٰ إنك لترىٰ أكثرهم يرىٰ تتبعه ، والنظر فيه ضرباً من التكلف . وكذلك فعلوا في سائر الأبواب ، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار ، والإظهار ، والإضمار ، والفصل والوصل ، وفي كل نوع من أنواع الفروق والوجوه...وليت شعري إن كانت هذه أموراً هينةَ ، وكان المدىٰ فيها قريباً ، والجدي يسيرا ، من أين كان نظم أشرف من نظم؟ وبِمَ عظم التفاوت ، واشتد التباين وترقىٰ الأمر إلىٰ الإعجاز وإلىٰ أن يقهر أعناق الجبابرة؟ » (دلائل الإعجاز ، ١/ ٨) .

بهذا النص البليغ ينبه الجرجاني إلىٰ أثر التقديم والتأخير ، ويشير إلىٰ أنها ليست محصورة في العناية بالمتقدم فحسب ، بل إنه إجراءٌ نحوي فائق الأهمية ، يختاره المتحدث لينفتح به علىٰ جملة من المعاني النحوية التي يعبر بها بدقة متناهية عما يجيش بخاطره ، ويجد فيه السامع الفهم الدقيق والمتعة التامة .

ويشير دبة (٢٠٠٤) إلىٰ أن نظام النحو العربي لا يتقيد كثيراً بمبدأ الرتبة إلا في ما سماه النحاة بالرتب المحفوظة ، مثل : الجار والمجرور ، والصفة وموصوفها ، والصلة وموصولها ، والمضاف والمضاف إليه ، والمعطوف والمعطوف عليه ، وغيرها مما لا يكون فيه الربط بين الوحدات إلا علىٰ شاكلة واحدة مفروضة ، بل إن هذه الرتب ذاتها قد يلحقها التغير بالتقديم والتأخير أحياناً ، مثل تقديم الصفة علىٰ الموصوف لإبرازها ولفت الأنظار إليها . ومثال ذلك بيت شعر لعمر بن قميئة يقول فيه :

فلما لم يَرَيْنَ كثير ذعر   وَرَدْنَ صواديـاً ورداً كميـاً

فيقول الشاعر « كثير ذعر » أراد به ذعراً كثيرا ، فقدم الصفة علىٰ الموصوف .

ويشير دبة (٢٠٠٤) إلىٰ أنه فيما عدا الرتب المحفوظة ، والمواطن التي يجب فيها التقديم والتأخير ، فإن الترتيب العربي يستند إلىٰ علاقات اختيارية حرة يتصرف فيها المتكلم ، ويحدد وجهتها بحسب مقصده من الكلام ، وذلك في إطار ما يُسمح به له في النظام النحوي من إمكانية التصرف بالتقديم والتأخير ، إن كان علىٰ نية التأخير ، وذلك في كل تقديم لا يزول معه الحكم في المقدم والمؤخر عن ما كانا عليه قبل التقديم ، أو علىٰ نية التأخير ، وذلك مع كل تقديم ينقل معه المقدم والمؤخر من حكم إلىٰ حكم ، علماً بأن صوغ العبارة بالمحافظة علىٰ الترتيب الأصلي لعناصرها إنما يكون لمجرد الإخبار . وهو التعبير الطبيعي الذي لا يحتاج فيه المتكلم إلىٰ غرض تعبيري خاص . أما حينما تصاغ بتقديم ما حقه التأخير ، وتأخير ما حقه التقديم ، فإن مجال الكلام يكون فيها مفتوحاً علىٰ العديد من الأغراض التعبيرية والمعاني الخاصة .

وللتقديم والتأخير في الجملة العربيَّة صور شتىٰ ، وهي في تعددها هذا محكومة بنظام من العلاقات التركيبية المحددة . ولكنها من حيث المعاني متعددة ، وذلك لأن العبارة ترتبط في تلك التراكيب بسياق المقام الذي تتعدد فيه أحوال التعبير بتعدد المتخاطبين ، وتعدد ظروف تخاطبهم . وفيما يلي استعراض لبعض مما يمكن أن تحمله وتؤديه صور التقديم والتأخير من الأغراض والمعاني في ضوء العلاقات الداخلية للنظام المفتوح .

تقديم الخبر المفرد علىٰ المبتدأ : ومن أغراضه التعبيرية التي استعرضها دبة (٢٠٠٤) :

١ – التخصيص كقولهم (قائمٌ زيدٌ) إذا كان المتكلم يريد تخصيص القيام بزيدٍ

خلافاً لقولهم (زيدٌ قائمٌ) والمعتبر في ذلك أن المتكلم لا يريد مجرد الإخبار عن زيد أنه قائم ، وإنما يريد أنه قائم وليس قاعداً مثلاً .

٢- الافتخار : كقولهم (تميميٌ أنا) فثمة فرق بين قولهم (أنا تميميٌ) و(تميميٌ أنا) فالأولىٰ إخبار عن نفسه وفي الثانية افتخار بنفسه وبقبيلته .

٣- التفاؤل والتشاؤم كقولهم (ناجحٌ زيدٌ) و (مقتولٌ عمرو) .

تقديم الخبر الظرف والجار والمجرور ، ومن أغراضه :

(١) التخصيص أو الحصر ، مثل قولك (سعيدٌ أعانني) وبيان ذلك أنك إذا قلت (أعانني سعيدٌ) كان إخباراً ابتدائياً ، والمخاطب خالي الذهن ، فإن قلت (سعيدٌ أعانني) فقد خصصت سعيداً بالإعانة وقصرتها عليه ، وذلك بأن كان المخاطب يظن أن الذي أعانك خالدٌ .

(٢) تحقيق الأمر وإزالة الشك عن ذهن السامع كقولك (هو يغيث الملهوف) لمن يظن أنه لا يفعل ذلك ، فأنت لا تريد أن تقصر إغاثة الملهوف عليه ، أوتحصرها فيه ، ولكنك أردت أن تزيل الشك من ذهن السامع .

(٣) التعجيل بالأخبار السارة أو المفجعة ، كقولك (أبوك عاد) لمن كان أبوه غائباً وقولك (السفاح حضر) .

(٤) تعظيم المقدم أو تحقيره ، كقولك (السلطان حضر) ، وقولك (الغبي جاء!) .

(٥) التعبير عن الغرابة في أمر المقدم كقولك (المقعد مشىٰ) أو (الأخرس نطق) .

تقديم المفعول علىٰ الفاعل ومن أغراضه التعبيرية :

الاعتناء بأمر المقدم كقولك(أعان خالداً محمدٌ) إذا كان المخاطب يعنيه أمر

خالد ، وكانت دلالة سياق الكلام تنصب عليه . وكقوله تعالىٰ : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[هود : ٦٧] ، تقدم المفعول وهو (الذين ظلموا) لأن الكلام في الآية الكريمة عليهم و علىٰ عاقبتهم .

تقديم المفعول علىٰ الفعل ، ومن أغراضه التعبيرية :

(١) الاختصاص كقوله تعالىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة ، آية : ٥] ، أي : نخصك بالعبادة والاستعانة دون سواك ، بخلاف قولك (نعبد إيَّاك) الذي يدل علىٰ الإقرار بعبادة الله ولا يمنع من عبادة غيره .

(٢) رد الخطأ في التعيين كقولك : (زيداً عرفت) لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً آخر .

(٣) التعجب ، كقولك (ديناراً أعطىٰ خالدٌ !) إذا كانت مثل هذه الحادثة مستغربة ، كأن تكون أكثر من أن يعطيه خالد ، أو أقل فيكون مثار تعجب .

(٤) المدح والثناء ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾[الأنعام : ٨٤] ، فهذا ليس من باب التخصيص والحصر ، إذ ليس معناه ما هدينا إلا نوحاً من قبل ، وإنما هو من باب المدح والثناء .

(٥) التعظيم ، كقولك لمن سأل الله (عظيماً سألت) .

هذه بعض الأمثلة للوظائف التي يمكن أن يؤديها نظام النحو العربي من خلال إتاحته فرصة التقديم والتأخير ، حيث إنه يمثل نمطاً مفتوحاً غير جامد ، وله في تراكيبه من المرونة ما يمكّن مستخدم اللُّغة العربيَّة من التوسع في دلالات الكلام ، ومن الدقة في التعبير ، ونقل صور عقلية ومعنوية وحسية متباينة داخل التراكيب والسياقات المتشابهة ، بصورة تعجز عنها كل لغات البشر المعاصرة .

ومما يجدر ذكره عند التعرض لظاهرة التأخير والتقديم في اللِّسان العربي ، الإشارة إلىٰ أن خاصية الإعراب باعتبارها قرينة كبرىٰ تحصل بها إمكانية التقديم والتأخير ، وتضمحل بموجبها قرينة الرتبة ، إلا فيما يدخل مع التراكيب من الطوارئ . فقد يطرأ علىٰ الرتبة غير المحفوظة ما يدعو إلىٰ حفظها مما يخشىٰ معه اللبس مثل قولك (ضرب موسىٰ عيسىٰ) . فالطارئ هنا هو غياب العلامة الإعرابية ، وقد يكون الطارئ مخالفة حكم من أحكام الباب كالتقديم الواجب في الخبر في مثل قولك : (عندي درهم) لورود المبتدأ نكرة ، والأصل فيه أن يعرف ، أو كورود الفاعل ضميراً في مثل قولك : (زرت محمداً) .

الصَّرف في اللُّغة العربيَّة

مدخل :

الصرف سمة من سمات اللُّغة العربيَّة ، وأصل من أصولها الثابتة وقيَّمها الراسخة التي تمييزها عن كثير من لغات العالمين . والصرف في الاصطلاح هو علم بأصول ، أي بقواعد تعرف بها أحوال أبنية الكلمة المفردة التي ليست بإعراب أو بناء (شرح الشافية ١/ ١) . وكانت العرب تنطق نطقاً صحيحاً علىٰ سجيتها في الجاهلية وصدر الإسلام . ولما فشا الفساد في التعبير بسبب ما أدىٰ إليه انتشار الإسلام من اجتماع الألسنة المتفرقة ، واللُّغات المختلفة ، انصرفت الهمم أولًا لوضع قواعد النحو لدفع هذا الفساد ، بضبط حركات الإعراب والبناء . وبقىٰ الخطأ واللحن شائعين في صوغ بعض المفردات . واحتيج عندئذ إلىٰ وضع قواعد أخرىٰ لضبط أبنية الكلمات ، ومعرفة أحوالها غير الإعراب والبناء . وتلك القواعد هي التي كونت علم الصرف .

علم الصرف في اللُّغة العربيَّة :

علم الصرف هو أحد علوم اللُّغة العربيَّة ، له أهمية قصوىٰ في الدرس اللُّغوي المعاصر والقديم . وقد سماه بعض العلماء علم التصريف . وأيد هذا بعض كبار علماء اللُّغة كابن فارس ، وأيد بعضهم الأخر مصطلح الصرف مثل ابن مالك (٦٧٢هـ) علىٰ أنه الأصل في التسمية ، وأنه أكثر اختصاراً وموازنة في اللفظ لصنوه علم النحو ، وهو اللفظ الشائع اليوم .

أما المتقدمون من علماء العربيَّة كالخليل بن أحمد (١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه

(١٨٠هـ) فلا يصطلحان عليه لا صرفًا ولا تصريفًا ، لأن مسائله كانت عندهما متداخلة مع علم النحو .

والحقيقة إن الصرف في طور نشوئه كان مندمجًا في النحو واللُّغة والأدب تحت اسم (علم اللغة) . ثم أطلق عليه وعلىٰ النحو (علم النحو) ، ويظهر ذلك جليًا في كتاب سيبويه (١/ ١٤٤) ، الذي يعرِّف النحو بأنه (علم تعرف به أحوال الكلم العربيَّة إفراداً وتركيبًا) . وهذا التعريف كما هو واضح يشمل النحو والصرف معًا . ثم أصبح الأول بعدهم علم الصرف ، وأصبح الآخر علم النحو . ولا شك أن وجود النحو والصرف معًا في كتاب سيبويه يدل علىٰ أنهما صنوان نبتا في أصل واحد ، وأطلق عليهما اسم واحد ، وجمعهما التأليف في كتاب واحد (عبد الحميد عنتر ، ١٩٩٧م) .

والصرف والتصريف لغة ، يدور معناهما علىٰ مطلق التغير والتحويل . أما في الاصطلاح ، فالصرف علم يبحث في أبنية الكلمة ، وأحوال هذه الأبنية التي ليست بإعراب ولا بناء ، من صحة واعتلال ، وأصالة وزيادة ، وإمالة وإدغام ، وشبه ذلك (شرح الشافية ١/ ١) .

موضوع علم الصرف ووظيفته وفضله :

موضوع علم الصرف هو الألفاظ العربيَّة من حيث الصحة والإعتلال ، والأصالة والزيادة ، والأفعال المتصرفة ، والأسماء المعربة من حيث البحث عن كيفية اشتقاقها لإفادة المعاني الطارئة . فيجري التصريف علىٰ هذه الأفعال بتغيير بنياتها ؛ مثلا : اسم الفاعل من الفعل الثلاثي وزنه فاعل ، واسم التفضيل بزنة أفعل ، واسم الهيئة بزنة فِعلةَ ، إلىٰ غير ذلك . ويجري التصريف علىٰ الأسماء المعربة بالتثنية والجمع والتصغير والنسب ، أماالأسماء المبنية نحو (مَن وكيفَ وأينَ) فلا يدخلها التصريف . ولا يرد علىٰ هذا تصغير (ذا) الإشارية و (الذي) و

(التـي) الموصـولتين ، ولا تثنيـة هـذه الأسـماء وجمعهـا ، لأن ذلـك خـارج عـن القياس فهو نادر أو قليل شاذ . أما الأفعال الجامدة (كعسىٰ) (وليس) و (نعم) و (بئس) والحروف مثل (مِن) و (في) و(إلىٰ) و (علىٰ) فلا يلحقها التصريف حال الإفراد ، فهي كالأسماء المبنية ثابتة لا تتغير أبنيتها وتلازم صورة واحدة . أما في حالة التركيب فإنه يعتريها شيء من التغيير ؛ فقد تقلب الألف ياءً مع الضمير مثل (إليك) و (عليك) . وقد تحذف عين الفعل الجامد أو لامه عند الإسناد للتخلص من التقاء الساكنين في نحو (لستَ وعست) . وهذا كله شاذ يُوقف عند ما سُمع عليه . وقد عنىٰ العلماء بالصرف كثيراً ، وكانوا يعدون الخطأ في المفردات عيباً يخل بالكلام ، ويتنافىٰ مع فصاحة المفردِ ، ويبطل بلاغه المركب . وكانت غاية الصرف وثمرته ، صون اللِّسان عن الخطأ في صوغ المفردات العربيَّة والنطق بها طبقاً لما نطقت به العرب . وفي معرفة قواعد هذا العلم الكلية ، وضوابطه الجامعة التي تؤلف بين أشتات اللُّغة مايقرب الشقة علىٰ الدارس ، ويغنيه عن البحث في المعاجم .

وتتمثل وظائف هذا العلم في الاستعانة به في تحويل الكلمة إلىٰ أبنية مختلفة باختلاف المعاني كصيغ الأفعال المختلفة ، واسمَىٰ الفاعل والمفعول ، والتثنية والجمع ، وإسناد الأفعال والضمائر ، وصيغ الجموع والتصغير والنسب ، وفي التوسع في الأساليب العربيَّة والاشتقاق بنوعيه الأكبر والأصغر . فيكفي دارس العربيَّة أو الناطق بها أن يعرف جزءاً واحداً من أجزاء الكلمة ، ثم إنه يمكن من خلال الميزان الصرفي أن يتعرف علىٰ بقية أجزاء الكلمة ، وكذلك يتعرف عليها إن وردت في صيغة أخرىٰ دون الحاجة للرجوع للمعاجم . كما يمكنه أن يشتق من الكلمة مفردات لا حصر لها حسب قواعد هذا الميزان الصرفي ، للتعبير عما يريد بكل سهولة ويسر . وهذا الأمر يساعد في تعلم اللُّغة العربيَّة ، ويختصر الوقت

المطلوب لتعلمها . والمعلوم أن هذه السمة هي سمة أصيلة من سمات اللُّغة العربيَّة ، وقلما تجد لها مثيلًا في اللُّغات الأخرىٰ .

وقد جاء في مقدمة شرح « الشافية » لابن الحاجب عن فائدة علم الصرف : « إن من أراد أن يكون له منحة من الكتاب الإلهي ، والكلام النبوي ، فليصرف عنان همته إلىٰ علم الصرف ، فيجعله نصب الطرف ، مشمراً عن ساق الجد ليغوص في تيار بحار الكتاب وفرائده ، ويتفحص لطائف الكلام النبوي وفوائده ، فإن من اتقىٰ الله في تنزيله ، وأجال النظر في تعاطي تأويله ، وطلب أن تكمل له ديانته ، وأن تصح له صلاته وقراءته ، وهو غير عالم بهذا العلم ، فقد ركب عمياء ، وخبط خبط عشواء ، إذ به تنحل العويصات الأبيّة ، وتعرف سعة اللُّغة العربيَّة » (الشافية١/ ٣٢) .

أما ابن فارس ، تلميذ ابن جنِّىٰ فيتحدث عن أهمية الصرف ودوره في حفظ اللِّسان من الزيغ ، والأفهام من الإبهام فيقول : « أما التصريف ، فان من فاته علمه ، فاته المعظم ؛ لأننا نقول (وجَدَ) وهي كلمة واحدة مبهمة ، فإذا صُرفت أفصَحت ، فقلت في المال : (وُجداً) وفي الضالة (وجدانًا) ، وفي الغضب (موجِدة) وفي الحزن (وَجْداً) » . (الصاحبي : في فقه اللغة ، ١٤٣ : ١) .

ولعلم الصرف وظائف مهمة تدلّ علىٰ شرفه وفضله ومكانته بين علوم العربيَّة ، ومن أجل تلك الوظائف ما يلي :

١ – احتياج جميع المهتمين بعلوم العربيَّة إليه حاجة ملحة . فهو ميزان العربيَّة ومقياسها الذي به تُعرف أصول كلم العرب من الزوائد الداخلة عليه .

٢ – إنه لا يمكن أن تصل إلىٰ معرفة القياس في اللُّغة العربيَّة بدونه . والقياس علىٰ كلام العرب ركيزة أساسية في العربيَّة .

٣ - إنه الأساس الذي يتخذ لبناء الاشتقاق في اللُّغة العربيَّة . والاشتقاق من أجَلّ أبواب العربيَّة ، يكسبها حيويتها ويمكنها من النمو والتطور ، واستيعاب حاجات الأجيال المتعاقبة للتعبير عن حوادث الحضارة ، ولوازم الثقافة المتجددة .

٤ - إن كثيراً من مباحث اللُّغة والنحو والإملاء ، لا يمكن التعرف عليها والاطلاع علىٰ دقائقها إلا من خلاله .

ويرىٰ بعض علماء العربيَّة ، وعلىٰ رأسهم ابن جنِّي وابن عصفور ، يرون تقديمه علىٰ النحو ، لكونه يبحث في ذوات الكلم وأحوالها بغض النظر عن التراكيب . علىٰ خلاف النحو الذي لا ينظر في أحوال الكلمات المفردة إلا بعد التركيب . وبداهة فإن معرفة الشيء قبل التركيب ، مقدمة علىٰ معرفته بعد تركيبه (ابن عصفور : الممتع في التصريف ١/ ٢٣) .

ويرىٰ ابن مسعود أهمية خاصة لعلم الصرف تجعله مقدماً علىٰ علوم العربيَّة الأخرىٰ . فهو بالنسبة له الأصل حيث يقول « اعلم أن الصرف أم العلوم ، والنحو أبوها » (مراح الأرواح ١ : ٣) . وقد وصفه ابن مسعود بالأم كناية عن أنه به تتولد الكلمات وتتكاثر الألفاظ .

الميزان الصرفي :

الميزان الصرفي هو مقياس معياري جاء به علماء الصرف لمعرفة أحوال الكلمة العربيَّة . ولما ثبت بالبحث والتفكير أن أكثر الكلمات العربيَّة ثلاثية الأحرف ، فقد جعلوا الميزان الصرفي مركباً من ثلاثة أحرف أصلية ، وهذه الأحرف هي : الفاء والعين واللام مجموعة في كلمة (فعل) وجعلوها مقابل الكلمة المراد وزنها . فالفاء تقابل الحرف الأول ، والعين تقابل الحرف الثاني ،

واللام تقابل الحرف الثالث ، ويكون شكل الميزان مطابقاً تماماً لشكل الكلمة الموزونة من حيث الحركات والسكنات . وقد اختار الصرفيون كلمة فعل ، لتكون ميزاناً صرفياً للأسباب التالية :

١ - كلمة (فعل) ثلاثية الحروف ، ومعظم الألفاظ العربيَّة مكونة من أصول ثلاثية ، أما ما زاد علىٰ الثلاثة فهو قليل محصور ومحكوم بقواعد ثابتة .

٢ - إن كلمة (فعل) عامة الدلالة ، فكل الأفعال تدل علىٰ فِعل ، فهناك الفعل أكل ، وجلس ، ومشىٰ ، ووقف ، وضرب ، وقتل ، ونام ، وقام ، وكلها تدل علىٰ الحدث بمعنىٰ فعل الشيء .

٣ - صحة حروفها ، فليس في كلمة (فعل) حرف يتعرض للحذف ، كالأفعال التي أصولها أحرف علة كالألف والواو والياء ؛ فالأفعال المعتلة قد تتعرض للإعلال بقلب أو نقل أو حذف .

٤ - إن كلمة (فعل) تشتمل علىٰ ثلاثة أصوات تمثل أجزاء الجهاز النطقي كافة من أعلاه إلىٰ أسفله . فهي تضم الفاء ومخرجها عند أول الجهاز النطقي ، أو أعلاه وهو الشفتان ، والعين من آخره ، أي من الحلق ، واللام من وسطه .

عموماً فإن للميزان الصرفي قيمة كبرىٰ ، ووظيفة جليلة ، فهو يحدد صفات الكلمات ، ويبين إن كانت الكلمة مجردة ، أو مزيدة ، وما إذا كانت تامة أو ناقصة . فهو يبين حركات الكلمة وسكناتها ، والأصول فيها والزوائد ، وتقديم حروفها وتأخيرها ، وما ذكر من تلك الحروف وما حذف . كما يبين صحتها وإعلالها . فالميزان الصرفي ، أو قل الميزان الذهبي ، يمكّن مستخدم العربيَّة من توليد عدد غير متناه من المفردات يعبر بها عما يعتمل في نفسه ويعينه علىٰ فهم ما يسمع أو يقرأ من المفردات الجديدة قياساً علىٰ معلوم ، دون الحاجة إلىٰ الرجوع

إلىٰ معاجم اللغة . وهذه خاصية عربية بحتة ، رفعت هذه اللُّغة الشريفة إلىٰ مقام أن تكون لغة قياسية من الطراز الأول .

النحو والصرف في اللُّغات الأخرىٰ

مدخل :

احتفت اللُّغات القديمة بنحوها وصرفها ، وأولتهما اهتمامًا مقدراً يليق بدورهما في حفظ الألسن والأقلام من الخطأ والانحراف . وفي هذا الإطار تذكر اللُّغة الإغريقية واللاتينية ، واللُّغات الهندية القديمة التي اتخذت من الدرس النحوي مادة أساسية لدراسة اللغة ، واحتفت به أيما احتفاء ، وأقامت لذلك المدارس الخاصة والمعاهد العامة ، التي لم يكن لها هم يسبق اهتمامها بأمر النحو ، وتدريس قواعده وأسسه التي تعين علىٰ الخطابة والكتابة ، وطرح النظريات الفلسفية والعلمية ، وذلك من لدن عهد أرسطو وأفلاطون وغيرهما .

وظل هذا التوجه إلىٰ أن ماتت تلك اللُّغات وانزوت ، وحلت محلها مجموعة من اللُّغات الحديثة مثل اللُّغات الرومانسية (الفرنسية والإيطالية والأسبانية) ، والتي لم يكن لها نحو خاص بها . فقد اعتمدت في مجملها علىٰ نحو اللُّغة اللاتينية الأم . ورغم اختلاف هذه اللُّغات الناشئة عن اللُّغة الأم ، إلا أنها لم تجرؤ ، وإلىٰ عهود متأخرة ، علىٰ أن تنشئ نظمًا نحوية أو صرفية خاصة بها . وكانت الشعوب التي تتحدث تلك اللُّغات تلقن بنيها قواعد نحو اللاتينية ، وقوائم معقدة من القوانين التي تحكم استخدام اللغة . وفي مرحلة تالية ، قدمت نفس تلك القواعد اللاتينية والقوانين مترجمة إلىٰ لغات تلك الشعوب . فتجد قائمة مطولة من القواعد مكتوبة باللاتينية ، وإلىٰ جوارها نفس هذه القواعد مترجمة باللُّغة المعنية ، باعتبار أن قواعد النحو اللاتيني هي القواعد الأساسية التي تحكم استخدام تلك اللُّغات الحديثة .

ولما كانت اللُّغات الحديثة قد اعتراها كثير من التبديل والتحوير ، كان من البداهة القول بأن النحو اللاتيني أو اليوناني ، لم يعد في مقدوره استيعاب تلك التغيرات . ولكن الإصرار علىٰ تبني النحو اللاتيني جعل هناك فجوة مقدرة ما بين القواعد الموضوعة نظرياً والمستقاة بصورة مباشرة من النحو اللاتيني ، وما بين الاستخدام الحقيقي في تلك اللُّغات . هذا الأمر أدىٰ إلىٰ ظهور قوائم غير متناهية من الاستخدامات الشاذة ، الأمر الذي جعل دراسة النحو في تلك اللُّغات عملية شاقة ومملة . وخلَّف ذلك أحاسيس سالبة باتجاه فنون النحو والصرف عند تلك الشعوب ودارسي تلك اللُّغات . ولكنه منذ القرن السابع عشر ، أخذ النحو في تلك اللُّغات في الاستقلال نسبياً والخروج عن عباءة النحو اللاتيني ، ليعبر عن واقع تلك اللُّغات بصور متفاوتة . ولكنه لم يستطع أن ينعتق كلياً من تأثير النحو اللاتيني . بل ظل التصنيف اللاتيني ، هو التصنيف المتبع حرفياً في نحو اللُّغة الفرنسية والإيطالية والأسبانية و في اللُّغة الإنجليزيَّة أيضا . وكان انعكاس ذلك علىٰ نحو تلك اللُّغات سالباً للغاية ، وذلك لتناقضه مع أساسيات علم اللُّغة الحديث ، التي تنص علي مبدأ اختلا ف اللُّغات . وعليه فيكون من الخطل والخطأ القول : بأن تصنيف اللاتينية يمكن أن ينطبق بالحرف علىٰ أية لغة أخرىٰ . وهكذا ظلت الدراسات النحوية في تلك اللُّغات متخلفة نسبياً ، ومتناقضة بصورة دعت بعض النحويين واللُّغويين المحدثين إلىٰ هجر النحو تماما ، أو إلىٰ تبني أساليب نحوية جديدة تفسر وتحكم الاستخدام اللغوي . وأدىٰ ذلك إلىٰ ظهور ما عرف بمنهج النحو الوصفي الذي يهتم بوصف الظاهرة اللُّغوية كما هي مستخدمة (Chomsky، 1986) ، وذلك بدلاً عن اعتماد الدارسين علىٰ المنهج التقليدي الذي يعرف بمنهج النحو المعياري ، الذي يضع القوانين مسبقاً . وفي هذا الإطار ، فقد ظهرت مدارس نحوية عديدة في الغرب كان من روادها دو سيسر ،

وشارل سندروس بيرس ، وغيرهما كثير .

النحو والصرف في اللُّغة الإنجليزيَّة :

لـم تكـن إشـكالية النحـو في اللُّغـة الإنجليزيَّـة ، أقـل تعقيـداً مـن إشـكالياته في اللُّغات الغربية الأخرىٰ ، بل علىٰ الأحرىٰ فإن مشكلة النحو في الإنجليزيَّة كانـت أشدّ تعقيداً ، والرؤية فيه أكثر ضبابية ، وذلك لاعتبارات معروفة . فقد سبق القـول بـأن مـشكلة النحـو في اللُّغـات الرومانـسية الحديثـة (الفرنـسية ، والإيطاليـة ، والإسـبانية) هـي تبنيهـا قواعـد النحـو اللاتينـي التـي لـم تعـد تعـبر ولـم تـستوعب التغييرات التي طرأت علىٰ تلك اللُّغات . وإن كان ذلك علىٰ علاتـه مـبرراً بانتمـاء تلك اللُّغات للغة اللاتينية ، فإن تطبيقه ، أي تطبيـق قواعـد النحـو اللاتينـي ، علىٰ تراكيب اللُّغة الإنجليزيَّة كان أمراً محيـراً ومدهـشاً حقـاً ، ومفتقـراً إلـي أي شـكل مـن أشـكال المنطـق . فاللُّغـة الإنجليزيَّـة لـيست منتميـة إلـىٰ مجموعـة اللُّغـات اللاتينية أصلًا ؛ فهي لغة ذات أصل جرماني . والمجموعة الجرمانية والمجموعـة اللاتينية : مجموعتان مختلفتان جداً ، ولا يجمع بينهما رابط إلا انتماؤهمـا للقـارة الأوربيـة ، أو انتماؤهمـا للأسـطورة أو الأكذوبـة المعروفـة بمجموعـة اللُّغـات الهندوأوربية ، والتي لا يستند مفهومها علىٰ هدىً أو إلىٰ فكـر مـستنير . فإن يجد الباحث بعض العذر لأصحاب اللُّغات الرومانسية في تبنيهم لنحو اللُّغة اللاتينية باعتبار انتماء تلك اللُّغات إلىٰ اللاتينية بوصفها لغة أمّـًا ، فـأي مـبرر يجـده لتبني اللُّغة الإنجليزيَّة لنحـو اللُّغـة اللاتينيـة لتفـسير تراكيبهـا وصيغها ، والتـي تختلـف جوهراً ومضمونـًا ، وأصلًا وفصلًا عن تراكيب اللُّغة اللاتينية .

تاريخ ونشأة النحو في اللُّغة الإنجليزيَّة :

نشأ النحو في اللُّغة الإنجليزيَّة في مراحـل متـأخرة جـداً مـن تـاريخ تطـور هـذه

اللغة . وقد يندهش الباحث حين يكتشف أن تاريخ هذا الفن في الإنجليزيَّة لم يتجاوز الأربعة قرون ، إذ لا تكاد تجد أي آثار أو أدبيات تعالج موضوع النحو في هذه اللُّغة قبل القرن السادس عشر . وتعود أول الآثار المكتوبة في هذا المجال إلىٰ العام ١٥٨٦م ، في منشورات وليم بلكر . وهذه المنشورات عبارة عن وريقات متفرقة كان هدفها الأساس محاولة إثبات أن اللُّغة الإنجليزيَّة مثلها مثل اللُّغات الأخرىٰ ، لها قوانين وقواعد تحكم استخدامها . وجاءت محاولات وليم بلكر مترسمة خطىٰ التراث اللاتيني ، وصدرت منشوراته التي تحمل عنوان Pamphlets for Grammar في شكل صورة طبق الأصل من كتاب وليم ليلي الموسوم (1534) Rudimenta Grammetices ، والذي يشرح قواعد النحو اللاتيني . وقد كان هذا الكتاب يدرس لطلاب المدارس في انجلترا بموجب أمر ملكي صادر عن الملك جفري الثامن سنة ١٥٤٤م . ورغم أن هذا الكتاب هو الأول الذي اهتم بموضوع النحو في اللُّغة الإنجليزيَّة ، ورغم أنه كان محاكاة لنموذج النحو اللاتيني ، إلا أنه كان علىٰ الأقل مكتوباً باللُّغة الإنجليزيَّة . ومن المدهش حقاً أن الكتب التي تلت هذا الكتاب والتي عالجت نحو اللُّغة الإنجليزيَّة ، كانت مكتوبة باللاتينية . وكانت تمثل تطبيقاً لقواعد النحو اللاتيني علىٰ اللُّغة الإنجليزيَّة . ولما كان الفرق بين اللغتين كبيراً ، جاءت هذه المعالجات معيبة تماماً ، وفيها كثير من التكلف والأخطاء والتعميمات التي لم تجد فتيلًا . ورغم محاولات بعض المحدثين من اللُّغويين الانجليز تفادي أوجه القصور التي شابت النحو في هذه اللغة ، إلا أن كثيراً من هذه الأخطاء والتعميمات والغموض ظلت تكتنف النحو الإنجليزي حتىٰ يومنا هذا . وسوف يتم التطرق لذلك بشيء من التفصيل لاحقاً إن شاء الله .

تطور النحو في اللُّغة الإنجليزيَّة بعد القرن السابع عشر :

ظل النحو في اللُّغة الإنجليزيَّة مرتهناً لقواعد النحو اللاتيني بصورة كاملة ، لدرجة أن بعض المؤلفات في النحو كانت تكتب باللاتينية . وظل هذا النهج حتىٰ نهاية القرن السابع عشر ، حيث كتب كرستوفر كوير (١٦٨٥م) كتابه الموسوم Grammatica Anglicanca وترجمته « قواعد اللُّغة الإنجليزيَّة » .

فكانت كل محاولة للانعتاق من نير النحو اللاتيني ، وإثبات أن للغة الإنجليزيَّة نحواً مستقلًا ، تتبعها انتقادات لاذعة تصر علىٰ الاحتكام لنظام التركيب اللغوي في اللاتينية فحسب . وتتابعت محاولات الحادبين علىٰ تأكيد استقلالية النحو الانجليزي حتىٰ بدايات القرن التاسع عشر ، حيث كتب لندلي ميوري(١٨٩٢) مقالات مطولة تؤكد علىٰ أن حالات التركيب في اللُّغة الإنجليزيَّة تختلف جوهراً ومضموناً ، عن حالات التركيب في اللاتينية والإغريقية .

وفي الفترة التي تلت القرن السابع عشر ، أخذت اللُّغة الإنجليزيَّة تكتسب أهمية متزايدة في محيطها المحلي والإقليمي . وأخذت بريطانيا تظهر كقوة مؤثرة في محيطها الأوربي . وازدهرت تجارتها وبدأ عصر الثورة الصناعية . كل هذه العوامل أكسبت اللُّغة الإنجليزيَّة ، والتي أخذت تتبلور لغة موحدة لشعب الجزر البريطانية ، أهمية خاصة . وبدأت تظهر مع انتشار الآلة الكاتبة ، نماذج لأعمال أدبية متفرقة . وظهر بعض الأدباء ، وتبلور ما عرف باللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة . وهي لغة بكل المقاييس تختلف اختلافاً أساسياً عن اللُّغة الإنجليزيَّة الوسيطة ، واللُّغة الإنجليزيَّة القديمة ، واللتان تحسبان في عداد اللُّغات الميتة الآن .

في هذه المرحلة ، ظهرت بعض المباحث التي تناقش نحو اللُّغة الإنجليزيَّة الناشئة . وكان من المدهش حقاً أن معظم الدراسات الجادة لنحو اللُّغة الإنجليزيَّة

كانت قد تمت خارج بريطانيا . وكان بعض تلك البحوث مكتوباً بلغات أوربية غير الإنجليزيَّة . أما في بريطانيا ذاتها ، فقد بدأت تظهر بعض المؤلفات في النحو والتي اعتمدت على تحليل تراكيب اللُّغة الإنجليزيَّة المتحدثة في تلك الحقبة ، ولكنها احتفظت بنفس المصطلحات المعروفة في نحو اللُّغة اللاتينية . ومن الكتب المشهورة التي ظهرت في تلك الحقبة كتاب جون برايتلاند "A Grammar of the English Tongue" (1711) ، وكتاب جيمس قرينور : الموسوم " Essay Towards a Practical English Grammar (1765)" . وجاءت هذه المؤلفات وأمثالها مستهدفة ، ولأول مرة ، الدارسين الذين ليست لديهم خلفيات في النحو اللاتيني مثل تلاميذ المدارس والنساء .

وفي نفس تلك الفترة ، ظهرت مؤلفات إضافية فيها شيء من الأصالة ، ونوع من الانعتاق من ربقة النحو اللاتيني الكلاسيكي . ومن أهم الكتب التي ظهرت في هذه المرحلة كتاب روبرت لوث الموسوم "A short Introduction to English Grammar(1762)" . وكان هذا المُؤلَفُ من أوسع الكتب انتشاراً وتأثيراً ، وكان يتبع المذهب المعياري في معالجته لقضايا النحو الانجليزي .

أما في القرن التاسع عشر ، فقد ظهرت بعض الدراسات اللُّغوية الحديثة . وهنا ، خضعت اللُّغة الإنجليزيَّة لدراسات متعمقة من ناحية تاريخية واجتماعية . وكان من نتائج هذه الدراسات فك الارتباط ، إلى حد ما ، بين اللُّغة الإنجليزيَّة والنحو الكلاسيكي . وكان من أشهر من درس اللُّغة الإنجليزيَّة في إطارها التاريخي والمقارن ، راسمي راسك الدنماركي . وكان ذلك في كتابه " Engelsk Formlare (1832) " . جاء ذلك في إطار دراساته المقارنة على نحو اللُّغات الهندوأوربية . ثم كانت دراسة جاكوبي تحت عنوان" Germanic languages (1837) . ثم هناك أبحاث إدوارد أدلوف اللغوي الألماني تحت عنوان :

. (1865) Analytical and Historical" ،"English Grammar; Methodical
وتبع ذلك المزيد من الدراسات المقارنة من قبل باحثين أوربيين من غير الانجليز ، مثل Otto Jesperson الدنماركي ، الذي ألف بعض الكتب في النحو الانجليزي بالاشتراك مع هنري اسويت . وكان أهمها "Mordem English . Grammar on Historical Principles"(1909)

ومع بدايات القرن العشرين ، ظهرت بعض الدراسات اللُّغوية الحديثة ، وأخذت دراسات النحو تتجه نحو المنهج التحليلي للجملة ، كما اعتمدت ، إلىٰ حد كبير ، علىٰ اللُّغة المتحدثة والمتداولة في الحياة اليومية . وفي ثلاثينات القرن العشرين ، أخذ العلماء في الولايات المتحدة الأمريكية يسهمون بصورة فاعلة في صياغة المفاهيم اللُّغوية الحديثة . وظهرت المزيد من المذاهب اللُّغوية الجديدة المتأثرة بنظريات علم النفس ، ومذاهبه المختلفة في تفسير الظاهرة اللُّغوية ، من حيث تراكيبها وكيفية اكتسابها وتحليلها . فقد ظهرت المدرسة التركيبية ، والتوليدية التحويلية . وظهر في الساحة بعيد منتصف القرن العشرين ، المفكر وعالم اللُّغة الشهير نؤوم جومسكي ، الذي بهر العالم بنظرياته الجريئة والجديدة في مجال علم اللغة . واعتبر أعلم علماء عصره بعد دو سيسر . فقد تميز جومسكي وقدم نفسه عالماً فذاً يستطيع أن يأتي بما لم يأت به الأوائل .

وقفة للمقابلة :

يتبين من خلال النقاش الذي دار في ثنايا هذا الفصل ، كثير من المزايا والسمات التي ينفرد بها النظام النحوي والنظام الصرفي في اللُّغة العربيَّة ، مقارنة بنظم النحو والصرف في اللُّغات الأخرىٰ . فنظام النحو في اللُّغة العربيَّة ، نظام أصيل يقوم علىٰ مجموعة من الأبواب الثابتة والقواعد الراسخة الأصيلة المستمدة من بنيات اللُّغة نفسها . فهو يساعد علىٰ إتقانها ، ويعصم الألسنة من

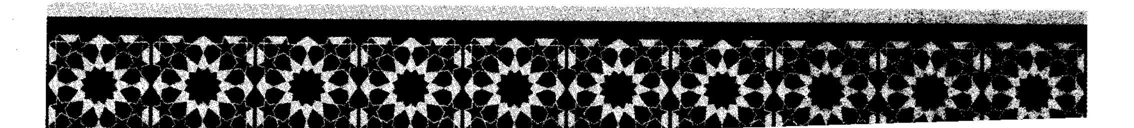
الزيغ ، والعقول من الإبهام . و هذه القواعد الثابتة ، هي ما يشير إليها اللُّغويون المحدثون بالمستوىٰ (السكوني) الذي يمثل أبنية اللُّغة النموذجية وتواضعاتها الاجتماعية . وهوالذي يعطي معانٍ صورية يمثل التقيّد بها في التعبير اللغوي ، العاصم من أن ينفرط عقد وحدة اللُّغة فيختل فيها ميزان الوظائف ، وتتحول إلىٰ تعبير فوضوي لا صلة له بأغراض الإبداع والتواصل (دبة ٢٠٠٤) . والحقيقة إن كثيراً من اللُّغات المعاصرة لا يمكنها تجاوز هذا المستوىٰ كثيراً ، ولكن اللُّغة العربيَّة تتيح للمتكلم الفرصة كاملة ، وتجعله مخيراً بحيث تنفتح أمامه إمكانية التعبير – في ظل تنوعات سياقية في داخل النص أو خارجه – علىٰ احتمالات معنوية متعددة . تأتي هذه الفرصة وتتسع أمام المتحدث بفضل خاصية الإعراب التي تتميز بها اللُّغة العربيَّة دون كثير من اللُّغات المعاصرة . فبين ذلك التقيد في المستوىٰ السكوني ، وهذا الانفتاح الذي يمثله المستوىٰ الحركي تنتظم عبارات اللُّغة العربيَّة ، وتترتب جملها بين ثبات تارة ، ومرونة تارة أخرىٰ ، في توازن دقيق . وفي هذا ما يكسبها قدرة خارقة في التوسع في المعاني بما لا تجد له مثيلًا في أنظمة اللُّغات الأخرىٰ ، المحكومة في نظم وحداتها وعباراتها بمبدأ الرتبة فقط ؛ الأمر الذي يحد من انفتاحها ، ويقلل من هامش الحرية فيها للتعبير عن أغراض ذهنية ونفسية ومعنوية وجمالية مهمة . أما بناء الجملة في اللُّغة العربيَّة ونظم الكلم ، فلا يقومان علىٰ مبدأ الرتبة فحسب ، فهناك عدد من القوانين اللفظية والمعنوية الممثلة في العلامات الإعرابية ، والصيغة والربط والأداة والتضام والمطابقة والنغمة . وهي كلها قيم إضافية تفتح آفاقًا واسعة أمام المتحدث بالعربيَّة ليعبر بطرق إبداعية عما في نفسه ، وتعين علىٰ تفادي الرتابة ، وإزالة الغموض الذي يقع في كثير من اللُّغات الأخرىٰ . وقد سبق أن نوقش في متن هذا الفصل ، ما يُمكن أن يحققه التأخير والتقديم في اللُّغة العربيَّة ، وتبين كيف أن مثل

هذا الإجراء يُمكِّن من التعبير عن معانٍ ، غير مجرد الخبر الذي يقف عند عتبته التعبير في كثير من اللُّغات ، فتأتي تعابيرها جامدة رتيبة .

ومن ميزات نحو اللُّغة العربيَّة ، أنه مأخوذ من متنها وجوهرها . وأبوابه ومصطلحاته معبرة عن مفرداتها وتراكيبها . وهذا عكس ما نجده في نظم لغوية أخرىٰ ؛ أي تلك التي ألبست جلباب النحو اللاتيني ، الذي لم يُفصّل لها أصلًا ، ولم تُصَغْ أبوابه ومصطلحاته ألا لتعبر عن لغة أخرىٰ . فجاء نحو تلك اللُّغات مفتقراً إلىٰ الأصالة ، مليئاً بالتناقضات . فأحدث ذلك كثيراً من الارتباك حتىٰ زهد بعض المحدثين في تعليمه أو تعلمه . ولا يستغرب أن تجد أن كثيراً من المدارس في بريطانيا وأمريكا ، لا تدرس نحو اللُّغة الإنجليزيَّة إطلاقاً لأبنائها . وأهم أسباب هذا العزوف عن دراسة النحو في تلك اللُّغات ، هو ذلك التناقض الفاضح بين المصطلحات النحوية ومدلولاتها . خذ علىٰ سبيل المثال : ما يعرف من الأفعال الإنجليزيَّة : بـ(Present Perfect Tense) ومعناه "الفعل الحاضر المكتمل" . ولكن بالنظر إلىٰ أمثلة منه يتبين بوضوح أن هذا الفعل قد لايكون حاضراً وقد لايكون مكتملًا . بل هو فعل ماض محض (Past) فيمكن أن تستخدم هذا الفعل وبهذا المسمىٰ "Present perfect" لأي عمل تم في الماضي ولم يذكر معه الزمن الذي تم فيه . فلك أن تقول " I have read three books " حتىٰ ولو تمت هذه القراءة قبل سنوات . و قياسا عليه ، وبنفس المستوىٰ يمكن أن تقول :

"Columbus has discovered America" طالما أنك لم تذكر الزمن الذي تم فيه اكتشاف أمريكا .

وذات الفعل الذي يسمىٰ " Present perfect " الحاضر المكتمل ، قد لا يكون مكتملًا ، وذلك حينما تورد الجملة منفية كقولك " I have not read the books " أو " I have not done my homework " فالفعل المذكور غير مكتمل



بشهادة المتكلم نفسه ، بل ولم يتم أصلًا . وبذلك يكون الفعل المسمىٰ " Present perfect " الحاضر المكتمل ، لا حاضراً ولا مكتملًا .

إن من سمات اللُّغة العربيَّة المهمة ، التطابق التام بين مكونات الجملة . فهناك التطابق بين الصفة والموصوف ، والضمائر الظاهرة والمستترة وما تنوب عنه من ذوات ، وبين الفاعل وفعله . وهذا الأمر يضيِّق هامش الغموض ، ويجلِّي المعنىٰ المقصود . فالتطابق بين الفعل وفاعله ، والموصوف وصفته ، واسم الإشارة والمشار إليه ، يكون تطابقًا تامًا من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، ومن حيث التذكير والتأنيث فنقول مثلًا :

- اسلم هذا الرجل الصالح .
- وأسلمت هذه المرأة الصالحة .
- هذان الولدان الصالحان يعبدان الله .
- وهاتان البنتان الصادقتان تعبدان الله .
- وهؤلاء الرجال المخلصون يتحدثون العربيَّة بطلاقة .
- وتلك النساء المخلصات يتحدثن العربيَّة بطلاقة .

هذا التفصيل الدقيق والتطابق في اللُّغة العربيَّة ، يقابله إجمال مخل في اللُّغة الإنجليزيَّة . حيث تختصر ظاهرة التطابق في الفعل الحاضر وفاعله فقط في حالة الإفراد ، ولا تكاد تجد تطابقًا بين الفاعل وفاعله في الأفعال الأخرىٰ ، ولا تطابقًا بين المؤنث وفعله ، ولا بين الموصوف وصفته ؛ حيث تأتي الصفة ملتزمة صيغة المفرد مع الموصوف المثنىٰ والجمع والمذكر والمؤنث . وكذلك الحال بين اسم الإشارة والمشار إليه مثال ذلك :

This good man embraced Islam .

This good woman embraced Islam .

These good men embraced Islam .

These good women embraced Islam .

ومن سمات العربيَّة المميزة والعاصمة لها من الغموض ، والتي تعين متحدثها علىٰ التعبير عما يدور في خلده بوضوح ليفهمه سامعه ، أنها ترصد ألفاظاً مختلفة للتعبير عن الضمائر التي تنوب عن ذوات مختلفة . فنجد مثلاً ضميراً : (للمخاطب : أنت) - (للمخاطبة : أنتِ) - (للمخَاطَبيْن : أنتما) - (للمخاطبين : أنتم) (للمخاطبات : أنتن) . بينما تختصر هذه الضمائر كلها ، وبصورة مخلة في كثير من اللُّغات المعاصرة ، حيث يستخدم ضمير مخاطب واحد للدلالة علىٰ كل ذوات المخاطبين . ففي الإنجليزيَّة مثلاً يستخدم الضمير (you) ليعني (أنت) و(أنتِ) و(أنتم) و(أنتما) و(أنتنَّ) وبذلك تزداد درجة الغموض في المعنىٰ بصورة كبيرة جداً .

وإذا نظرنا لظواهر القصور الأخرىٰ في اللُّغة الإنجليزيَّة ، كعدم تطابق الموصوفات والصفات ، ومن حيث التذكير والتأنيث ، والإفراد والتثنية والجمع ، وعدم التطابق بين نوع الفاعل وفعله ، ومحدودية الضمائر المستخدمة لطيف واسع من الذوات ، فإن الغموض في المعنىٰ يكون أمراً حتمياً لا محالة . فالجملة التالية يمكن أن توضح هذه الدوامة الرهيبة التي قد يقع فيها مستخدم اللُّغة الإنجليزيَّة عند محاولته فهم جملة بسيطة مثل :

You saw the old school bus driver .

والتي يمكن أن تفسر بما يلي :

(١) أنت رأيت سائق بص المدرسة القديمة .

(٢) أنتِ رأيتِ سائق بص المدرسة القديمة .

(٣) أنتما رأيتما سائق بص المدرسة القديمة .

(٤) أنتم رأيتم سائق بص المدرسة القديمة .

(٥) أنتنَّ رأيتنَّ سائق بص المدرسة القديمة .

(٦) أنتَ رأيتَ سائق بص المدرسة العجوز .

(٧) أنت رأيتِ سائق بص المدرسة العجوز .

(٨) أنتما رأيتما سائق بص المدرسة العجوز .

(٩) أنتم رأيتم سائق بص المدرسة العجوز .

(١٠) أنتنَّ رأيتنَّ سائق بص المدرسة العجوز .

(١١) أنتِ رأيت سائق بص المدرسة القديم .

(١٢) أنتِ رأيتِ سائق بص المدرسة القديم .

(١٣) أنتما رأيتما سائق بص المدرسة القديم .

(١٤) أنتم رأيتم سائق بص المدرسة القديم .

(١٥) أنتنَّ رأيتنَّ سائق بص المدرسة القديم .

(١٦) أنتِ رأيتِ سائقة بص المدرسة القديم .

(١٧) أنتَ رأيتَ سائق بص المدرسة القديمة .

(١٨) أنتما رأيتما سائقة بص المدرسة القديمة .

(١٩) أنتم رأيتم سائقة بص المدرسة القديمة .

(٢٠) أنتنَّ رأيتنَّ سائقة بص المدرسة القديمة .

والسؤال يبقىٰ قائمـًا : أي من تلك المعاني تعني هذه الجملة الواحـدة الـواردة باللُّغة الإنجليزيَّة؟ .

"I saw the old school bus driver" .

والحقيقة أن جملة مثل :

"They want you to come . "

وعلي بساطتها قد تعني :

- هم يريدونك أن تحضر .
- هن يردنكِ أن تحضري .
- هما يريدانك أن تحضر .
- هم يريدونكم أن تحضروا .
- وهما يريدانكما أن تحضرا .
- وهما يريداكن أن تحضرن .

والسلسلة تطول ، والمعاني تضيع جراء القصور المخل في الألفاظ ؛ فيعجز المستخدم لتلك اللُّغات عن أن يجد في اللُّغة ما يعبر به عما في مراده بدقة . بل يضطر إلىٰ أن يستخدم جملًا مطولة جداً ، ليعبر بها عن مفاهيم بسيطة جداً ، يُعبر عنها في العربيَّة بسلاسة وسهولة ووضوح وإيجاز .

تميُّز اللُّغة العربيَّة بنظام صرفي دقيق :

نوقش في ثنايا هذا الفصل النظام الصرفي في اللُّغة العربيَّة ونشأته وتطوره وجهودعلمائه وإسهاماتهم في ترقية هذا العلم . أما اللُّغات الأخرىٰ فلم تتضمن نظمـًا صرفية ثابتة ، ولم يحتف علماء تلك اللُّغات بصرفها كما احتفىٰ علماء

العربيَّة بنظامها الصرفي . ومرد ذلك إلي أن النظام الصرفي الموجود في كثير من اللُّغات المعاصرة مضطرب ، وليس له نسق ثابت كما هو الحال في العربيَّة .

وهنا يمكن القول : إن من الميزات العظيمة التي حباها الله اللُّغة العربيَّة ، هو ذلك الميزان الصرفي الدقيق ، الذي بواسطته يستطيع الفرد أن يشتق عدداً غير محدود من المفردات من صيغة الفعل الثلاثي أو المصدر . فهذا النظام قائم علىٰ صيغ مخصوصة يستطيع المتحدث بواسطتها تصريف الكلمة ، وتحديد بنياتها واشتقاقتها المختلفة ، كصيغة الفعل الماضي والمضارع والأمر ، واسم الفاعل واسم المفعول ، والمصدر ، والصفة ، والصفة المشبهة ، واسم المكان ، واسم الزمان وغير ذلك من أجزاء الكلام ومادته التي يحتاجها المتحدث ليعبر بها عما في خاطره .

والمعلوم أن الصرف يستخدم صيغًا افتراضية قائمة علىٰ صيغتي الفعل الثلاثي والفعل الرباعي وصيغ مزيديهما ، لتوليد المفردات التي يحتاجها المتكلم . فعن طريق استخدام هذا المنوال ، يمكن لمتحدث اللُّغة العربيَّة أن يستنتج كلمات ومفردات جديدة ، أو يتعرف عليها دون أن يكون قد سمع بها من قبل . وهذه صفة تميزت بها اللُّغة العربيَّة دون سائر لغات العالمين . فيكفي متحدث العربيَّة أن يعرف أي جزء من الكلمة كالفعل الماضي أو المضارع أو الصفة مثلًا ، ومن ثمَّ يستطيع أن يتعرف علىٰ أي من مشتقات هذه الكلمة إن مرت عليه في سياق آخر . كما يمكنه أن يستنبط من خلال هذا الميزان الصرفي أي جزء من أجزاء الكلام الذي يريده .

ولبيان الوظيفة العظيمة التي يؤديها الميزان الصرفي لدارس اللُّغة العربيَّة ، خذ مثلا كلمة (اسلنطح) وهي كلمة جديدة علىٰ كثير من الناس ، وربما غير معروفة المعنىٰ لدىٰ الكثيرين . ولكن من صيغتها الصرفية يدرك السامع أنها فعل ماض ،

ثم يستطيع الشخص الذي لم يسمع بهذه الكلمة من قبل أن يدرك أن الفعل المضارع منها (يَسلنطحُ) والأمر (اسلنطحْ) واسم الفاعل منها (مُسْلَنْطِح) واسم المكان (مُسلَنطح) ، يصل الىٰ كل هذه الصيغ من خلال معرفته بالميزان الصرفي فقط ، دون الرجوع إلىٰ المعاجم لتصريفها . وإذا عرف معنىٰ أي جزء منها عرف معاني بقية أجزائها .

وعليه فإن معرفة هذا الميزان الصرفي ، تمكن الفرد من اشتقاق عدد غير قليل من المفردات ، كما إنها تساعد في اختصار زمن تعلم اللُّغة العربيَّة ، إذ يكفي الفرد أن يتعلم جزئية واحدة من الكلمة ، مثل فعلها الماضي ، أو المضارع ، أو مصدرها ، ومن خلال القياس يمكن أن يتعرف علىٰ باقي أجزاء الكلمة . فيكفي الدارس مثلا أن يعرف كلمة (كتب) ومن بعد يستطيع أن يتعرف بنفسه علىٰ صيغة المضارع (يكتب) ، والأمر اكتب ، واسم الفاعل (كاتب) ، واسم المفعول (مكتوب) ، والاسم (كتابة) و(كتاب) ، واسم المكان (مكتب) وغير ذلك من الصيغ المختلفة التي يمكن أن يتم اشتقاقها من الفعل (كَتَبَ) أو أي جزء آخر من هذه الكلمة .

وقفة للمقابلة :

أما إذا قورن هذا النظام الدقيق بما يقابله في اللُّغات الأخرىٰ كالإنجليزيَّة مثلا ، فتجد أن الفرق عظيم ، والبون شاسع جداً . خُذ كلمة (يكتب)التي ذكر تصريفها أعلاه والتي تعني بالإنجليزيَّة (Write) ، فان أقصىٰ ما يمكن أن يشتق منها هو الفعل الماضي غير المنتظم (Wrote) ، والتصريف الثالث (Written) ، واسم الفاعل (Writer) فحسب . فأول ما يلاحظ أن هذه التصريفات لهذه الكلمة لا تتبع نسقاً صرفياً ثابتاً يمكن أن يطبق علىٰ الأفعال التي تشبه الفعل موضع الاشتقاق (write) . فإذا كان هناك فعل علىٰ هيئته مثلا الفعل (light) وهو علىٰ

وزن (Write) بصرف النظر عن نمطه الكتابي غير المنطقي ، تجد الفعل الماضي منه (Lit) والتصريف الثالث منها (Lit) ، أما الاسم منه فهو (Light) مثل الفعل المضارع تماما ، حيث يشترك الفعل والاسم في صيغة واحدة . وهذه ظاهرة متكررة في اللُّغة الإنجليزيَّة ، الأمر الذي يزيد من معدل الغموض فيها ، ويجعل قضية دراسة قواعدها عملًا عبثيًا لاجدوي منه . إذ ليس للفعل أو الاسم أو الصفة صيغة ثابتة تدل عليها ليسترشد بها الدارس علىٰ معرفة كنه الكلمة .

ففي اللُّغة الإنجليزيَّة عمومـًا ، لا يقوم بناء المفردات علىٰ أنساق صرفية ثابتة . فكثيراً ما تجد أفعالًا لا علاقة لفعلها الماضي بفعلها المضارع أبداً . فالفعل (Go) والذي يعني (يمشي) أو(يذهب) ، يكون الفعل الماضي منه (Went) ، والتصريف الثالث منه (Gone) . وقد يأتي الفعل الماضي والمضارع والتصريف الثالث علىٰ نسق واحد مثل (Put) فعل مضارع ، والماضي (Put) ، والتصريف الثالث (Put) . وكذلك (Hit) بمعنىٰ ضرب ، والماضي (Hit) والتصريف الثالث (Hit) وغيرهما كثير ، ولا قاعدة تحكم هذه الاستخدامات المختلفة أبداً .

ومن عجب أن تقسم الأفعال في اللُّغة الإنجليزيَّة إلىٰ أفعال منتظمة (Regular Verbs) ، وأفعال شاذة (Irregular Verbs) . وعلامة التعجب توضع حينما يعلم أن الأفعال المسماة (بالشاذة) تفوق في عددها الأفعال المسماة منتظمة . فمن ضمن قائمة الأفعال الأكثر شيوعًا والتي تضم (٣٦٤) فعلًا ، فإن عدد الأفعال الشاذة فيها ٢٢٣ فعلًا شاذاً ، وهذا أمر غريب حقـًا . وحتىٰ الأفعال المسماة منتظمة ، فإنها لا تخضع لصيغ ثابتة . فقد تأتي علىٰ هيئات وأوزان مختلفة ، ولا يجمع بينها جامع غير أن صياغة الفعل الماضي منها يتم بإضافة (ed) أو (d) أحيانـًا .

ومن التوجهات التي ظهرت أخيراً وانتشرت في اللُّغة الإنجليزيَّة ، اشتقاق

أفعال من الأسماء بحيث يكون الفعل فيها علىٰ صيغة الاسم تماماً ، فتجد الكلمة تستخدم للاسم وتستخدم في نفس الوقت للفعل وذلك مثال :

ماء (Water)اسماً و(Water) فعل بمعنىٰ يسقي . وعقد (Contract) اسم و(Contract) فعل بمعنىٰ يتعاقد . ومنظر أو مشهد (View) اسم و(View) فعل بمعنىٰ ينظر أو يشاهد .

وشركة قوقَل المشهورة (Google) اسم و(Google) فعل يعني يبحث من خلال قوقل . ولمسة (Touch) اسم و(Touch) فعل بمعنىٰ يلمس وغير ذلك كثير جداً .

ونسبة لهذا الاضطراب الشديد في الصيغ الصرفية في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فإنه يصعب ، إن لم يكن مستحيلا ، علىٰ دارس اللُّغة الإنجليزيَّة ، أن يصرِّف فعلا مهما كان بسيطا . لأنه في الواقع ، وكما ذكر من قبل ، لا توجد صيغ صرفية ثابتة يهتدي بها أو يسترشد بها الدارس لتصريف كلمة ما . كما لا يمكن للدارس أن يحدد ماهية الكلمة من هيئتها . حيث لا تعرف حقيقة إن كانت هذه الكلمة فعلًا أو اسماً أو حرفاً أم صفة أو ظرفاً من وحي هيئتها . فكلمة (See) وهي فعل بمعنىٰ يرىٰ وتشبه تماماً في هيئتها كلمة (Sea) والتي تعني بحراً وهي اسم . وكلمة (Form) تعني (يشكّل) وهي فعل ، وفي نفس اللحظة تستخدم بمعنىٰ (استمارة) وهي اسم . ولفظة (In) وهي حرف بمعنىٰ (في) وتشبه تماماً كلمة (Inn) وتعني (فندق) وهي اسم . وكلمة (Hard) وتعني شديداً أو قاسياً وهي صفة ، ونفس الكلمة تستخدم لتعني بشدة أو بقوة مثل قولك (He works Hard) مقارنة بقولك (He is a Hard worker) . وهكذا لا يستطيع الدارس أن يستدل علىٰ معنىً من مجرد هيئة الكلمة أو لفظها .

أما في اللُّغة العربيَّة فللاسم صيغة خاصة وهيئة تميزه عن الفعل ، وللحرف

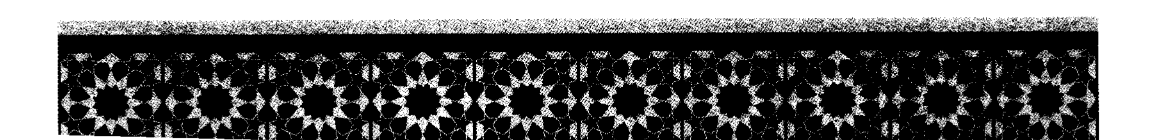
صيغة تميزه عن كليهما . وهذه ميزة إضافية لا توجد في كثير من اللُّغات المعاصرة .

وأروع من ذلك أن لهيئة الفعل أو صيغته الصرفية دلالة على المعنى ، وهذا أعلى مستوى يمكن أن تصل إليه لغة في الدنيا في الربط بين الألفاظ والمعاني . ففي العربيَّة تأتي الأفعال على صيغة فعل : يفعُل بضم العين في المضارع تدل على الهدوء والسكون ، مثل سكت يسكُت وسكن يسكُن وهجد يهجُد . ثم هناك الأفعال على صيغة فعل يفعِل بكسر عين المضارعة تدل على الحركة والاضطراب ، وذلك مثل وثب يثِب ، قفز يقفِز كما تدل على الصفة القبيحة مثل خاب يخيِب . وتدل صيغة فعِل يفعَل بكسر عين الماضي وفتح عين المضارع على الشبع و العطش والعيب الخلقي ، مثل عطِش يعطَش وشبِعَ يشبَعُ وحوِل يحوَلُ . وفعَل يفعَل بفتح عين المضارع والماضي معًا تدل على الصوت مثل صرَخَ يصرَخُ ونبَح ينبَحُ . وفعِل يفعَل بكسر عين الماضي وفتح عين المضارع تدل على اليأس والحزن مثل يئس ييأَس وتعِسَ يتَعَسُ . وفُعل يفُعل بضم عين الماضي والمضارع تدل على أفعال الغرائز أو ما يجري مجراها مثل : شرُف وكرُم ولؤُم . ومن الصيغ الصرفية ما يدل على المشاركة والاضطراب والتحول وغيرها من الدلالات التي يمكن أن تستشف من صيغة الكلمة وهيئتها .

ومن المهم ادراك أن الصيغ الصرفية ودلالاتها الثابتة يمكن أن تساعد على توليد عدد غير متناه من المفردات والمصطلحات التي يمكن أن تعبر عن مطلوبات العصور المتتالية ، واكتشافات العلوم والتقنية المتوالية . وتزداد العربيَّة غنى وتبقى حيَّة على مر الزمان معبرة عن كل حين وطور من أطوار الحضارة الإنسانية بما يناسبها من الألفاظ ، في حين تعجز اللُّغات الأخرى فتشيخ فتموت .

وأهم من ذلك فإن اتساق الصيغ الصرفية في اللُّغة العربيَّة وثباتها وبناءها على

قواعد ثابتة ، يجعل منها لغة منطقية ذات بنية رياضية . وهذا الأمر يسهل من عملية حوسبتها أو التعامل معها من خلال الحواسب الآلية . والحاسب بمقدوره التعرف بسهولة شديدة علىٰ الصيغ الثابتة ذات السمات المنطقية الرياضية البحتة . واللُّغة العربيَّة تتمتع بقدر كبير من البناء المنطقي الذي يؤهلها لأن تكون لغة حاسوبية من الطراز الأول . وقريباً جداً سوف تتم حوسبة هذه اللُّغة ويصبح ذلك حدثاً فريداً يلفت نظر العالم كله لها . وسوف يرشد الحاسوب إلىٰ معرفة المزيد من أسرار هذه اللُّغة الشريفة ، ويثبت بما لا يدع مجالا للشك أنها اللُّغة التي يبحث عنها الإنسان لتكون لغة الإنسانية جمعاء . والعالم اليوم يبحث ، وبجد . عن مثل تلك اللغة ، وهو في أشد الحاجة إليها .



الفصل السابع :
بلاغة اللُّغة العربيَّة وثراء معجمها
مقارنة باللُّغات الأخرىٰ



مدخـــل :

إن مـن أهـمِّ خـصائص اللُّغـة العربيَّـة وسـماتها المميـزة ، ثراءهـا المعجمـي المتفرد ، وبلاغتها المدهشة . فهي تنعم بذخيرة وافرة من المفردات المعبرة عن أدق المعاني الحسية والمعنوية ، والتي من خلالها يستطيع الفرد أن يعبر عن كل ما يخطر بذهنه ، أو يطوف بمخيلته ، أو تهفو له نفسه ، بدقة متناهية ؛ فيدرك السامع مقاصد المتكلم ومبتغاه دون نقص أو زيادة ، شريطة أن يكون المتكلم والمتلقي ملمين بأساسيات هذه اللُّغة الشريفة . ثم إن للأبنية والقوالب العربيَّة وظيفة فكرية منطقية عقلية ؛ فهي تعين علىٰ تصنيف المعاني ، وربط المتشابه منها برباط واحد يتدرب من خلاله الناطقون بالعربيَّة علىٰ التفكير المنطقي ، ويتعلمونه ضمناً وبطريقة فطرية .

وللأبنية العربيَّة وظيفة فنية أخرىٰ ، فقوالب الكلمات لها أوزان متناسقة ، ولكل بناء نغمة ثابتة ذات دلالة معنوية معلومة . وإن بين أوزان الألفاظ العربيَّة ودلالاتها تناسباً وتوافقاً . هذا الاتساق العجيب بين أوزان الكلمات يجعل منظومة الكلام العربي شعراً أو نثراً ، أشبه ما يكون بمقطوعة موسيقية يشنف الأذان سماعها ، وتخاطب العقل والوجدان معاً . وقد أدرك الشعراء والأدباء قديما هذه الخاصية الفريدة في اللُّغة العربيَّة ، فقابلوا بين نغمة الكلام وموضوعه ، مقابلة لها أثرها العميق من الوجهة الفنية الجمالية (السليم ، ٢٠٠٩) ، فأبدعوا أشعاراً قمة في الروعة والجمال حتىٰ أنها كتبت بماء الذهب ، وعلقت علىٰ أستار الكعبة المشرفة .

ثم جاء الإسلام لتبدأ معه اللُّغة العربيَّة مرحلة جديدة في حياتها ، حيث نزل بها القرآن الكريم ، ليمنح هذه اللُّغة سرَّ البقاء وتأشيرة الخلود . قال جلَّ ثناؤه

وتقدست أسراره : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء، آية : ١٩٢-١٩٥] . في هذه الآيات الكريمة يصف جلَّ شأنه اللِّسان العربي بأبلغ ما يوصف به لسان ، وهو البيان . قال ابن عباس : فلما خُصّ اللِّسان العربي بالبيان ، عُلم أن سائر اللُّغات قاصرة عنه وواقعة دونه .

ثم كان القرآن الكريم ببلاغته المعجزة ، وأساليبه المدهشة ، التي أذهلت فصحاء العرب وبلغاءهم ، فأقروا بطلاوته وشهدوا بحلاوته ، وأدركوا تفرده وفصاحته ، رغم كفرهم برسالة من جاء به . فزعموا أنه سحر يؤثر ، تعبيراً عن حيرتهم وانبهارهم بهذا الوحي المنزل بلسان عربي مبين . ومنذ ذلك التاريخ ظلّ الأسلوب القرآني الرفيع ، دستوراً للأساليب العربيَّة : شعراً ونثراً . وظلت قيمة كل نص أدبي تقاس بمدىٰ قربها من مثالية ذلك الأسلوب المتفرد أو بعدها عنه . فكان الأسلوب القرآني المعجز ، مثل الشمس في عليائها يستضيء الناطقون بالعربيَّة بنورها ، دون أن يحاولوا أن يلتمسوا طريقاً للوصول إلىٰ ذراها الشوامخ . ومن هذا الفيض الرباني والنبع الرحماني ، استمدت العربيَّة مفرداتها وتراكيبها وأساليبها ، كما استمدت أسباب بقائها وأسرار بلاغتها ، وثراء معجمها . فكانت أكرم اللُّغات ولا ريب ، وأوضحها بياناً ، وأوفرها ذخيرة ، وأبلغها تعبيراً ، وأعلاها قدراً وتقديراً .

البلاغة في اللُّغة العربيَّة :

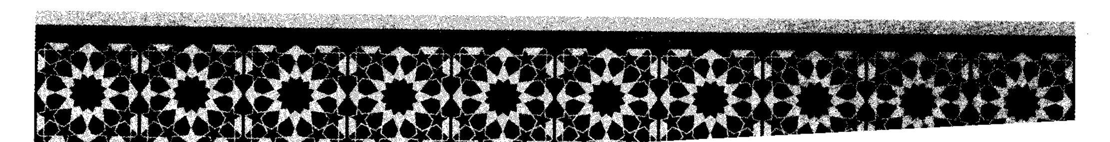
كلمة بلاغة هي كلمة عربية أصيلة ، لها جذورها واشتقاقاتها . وهي إجمالا تعني الفصاحة والوضوح ، ووصول الكلام أعلىٰ مراتب الإبانة والجمال اللفظي والمعنوي . جاء في (لسان العرب ٨/ ١٣٨) مادة بلغ « بلغ الشيء يبلغُ بُلوغاً وبلاغاً : وصل وانتهىٰ ، وأبلغه هو إبلاغاً وبلغه تبليغاً . والبلاغة الفصاحة ،

والبَلِغ : البليغ من الرجال . ورجل بليغ وبَلْغ وبِلغ : حسن الكلام فصيحة ، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه . والجمع بلغاء . وبَلُغَ بلاغةً : أي صار بليغاً » .

أما في الاصطلاح ، فإن البلاغة تعني الانتهاء والوصول إلىٰ الغاية والكمال . وهي كذلك تعني الفصاحة والإبانة (الموسوعة العربيَّة ٥/ ١٢٨) .

إن المتتبع لتاريخ اللُّغة العربيَّة وتطور أدائها ، يجد أن العرب عرفوا كثيراً من المعايير البلاغية التي ساعدتهم علىٰ فهم الأدب شعراً ونثراً ، ومكنيهم من تذوقه ، بل وتقييمه ، إذ بلغ العرب في جاهليتهم مرتبة رفيعة في البلاغة والبيان . فكان أوضح دليل علىٰ ما بلغوه من حسن البيان وفصاحة اللِّسان ، أن كانت معجزة الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، وحجته القاطعة لهم ، أن دعاهم أقصاهم وأدناهم إلىٰ معارضة القرآن الكريم في بلاغته بسورة من مثله ، أو بآية ، فعجزوا رغم إتقانهم لهذا الفن الذي بلغوا فيه شأواً بعيداً . فهذه الدعوة تدل دلالة واضحة علىٰ قدرتهم العالية علىٰ نسج الكلام ، كما تدل علىٰ قدرتهم علىٰ تمييز أقدار الألفاظ والمعاني ، وتذوق وإدراك ما يجري فيها من جودة الإفهام ، وبلاغة التعبير ، وحسن سبك وسمت ، وإلا لما كان للتحدي معنىٰ .

ومن هنا يدرك الباحث أن البلاغة كانت أساساً قامت عليه العربيَّة ، وظلت ركناً ركيناً من أركانها ، وجزءاً أصيلًا من مكوناتها التي بنيت عليها . ويستدل علىٰ ذلك بأمرين : الأول عقلي ، وهو أنه لا يصدق أن الشعر العربي قد وصل إلىٰ ما وصل إليه في ذلك العصر ، وأن الخطابة قد بلغت ذروتها ، وأن اللُّغة أخذت كمال صورتها ، من غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والخطباء ، وساروا علىٰ نهجها فيما نظموا وقالوا . والثاني نقلي ، وهو ما أثر عنهم ، وما جاء علىٰ لسان خطبائهم الذين كانوا يعتزون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم ، ويعرفون فصل الخطاب ، ويدركون مواطن الذلل والصواب . واستدل

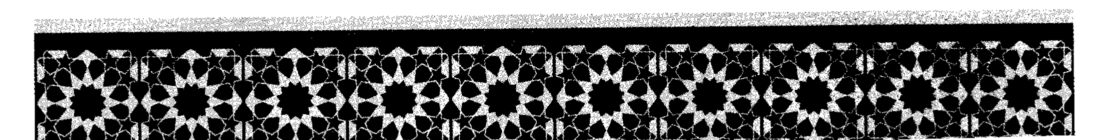


الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين ١/ ١٤٧) بألفاظهم كالعييّ ، والكبيّ والحصر والمفحم والخطل والمسهب ، علىٰ أن العرب كانوا يعرفون عيوب الكلام ، ويحددون مراتب الخطباء . فيقول : « بكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا ، فإذا زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، ولا بينهم في ذلك تفاوت ، فلما ذكروا العيّیٰ والكبيّیٰ والحصر والمفحم والخطل والمسهب والمتفيهق والمهماز والثرثار والمكثار والمهذار . ولِمَ ذكروا الهذر والهذيان والتخبط » . وبذلك يُستدل علىٰ أن البلاغة سمة قديمة من سمات اللُّغة العربيَّة ، حتىٰ قبل مجيء الإسلام . فقد تكون المصطلحات البلاغية بمسمياتها الحالية ، غير معروفة في ذلك الزمان . لكن مما لا شك فيه ، إن الفنون البلاغية التي وردت في الشعر والنثر تشهد أن العرب كانوا يعرفون الأساليب المختلفة ، والصور المتعددة التي تزيد كلامهم ألقاً وجمالًا .

تطور الدرس البلاغي في اللُّغة العربيَّة :

لم يكد الباحث يقف علىٰ مفهوم واضح ، للعلوم البلاغية بفروعها المختلفة وتعقيداتها المعاصرة قبل عصر التدوين . فلم تكن المصطلحات البلاغية واضحة المعالم ، وإنما كانت مجرد ملاحظات عابرة ، يدركها العرب بحكم فطرتهم النقية ، وسليقتهم السوية ، وذوقهم الرفيع في التمييز بين الكلام البليغ ، وبين ما هو أقل درجة منه ، وبين ما هو عار من البلاغة .

ويستمر هذا الحال حتىٰ بداية العصر الأموي ، حيث يسأل معاوية صحاراً العبدي : « ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتقذفه علىٰ ألسنتنا » . قال له معاوية : « ما تعدون البلاغة فيكم؟ » قال : الإيجاز ، قال : « وما الإيجاز؟ » قال : صحار : « أن تجيب فلا تبطئ ، وتقول فلا تخطيء » . (المحمودي ، ٢٠٠٧ : ١٩)



وفي أواخر هذا العصر الأموي أخذت الحياة الأدبية في الازدهار ، لكن السليقة العربيَّة قد أخذت في الاضمحلال . ومن هنا برز الدرس النحوي والبلاغي ليكتسبا قدراً من الأهمية ويشتركا في أداء فريضة الحفاظ علىٰ العربيَّة . ومن يتصفح كتاب سيبويه يجده قد احتوىٰ علىٰ كثير من الموضوعات البلاغية ، مثل التخفيف والإيجاز والحذف ، والتقديم والتأخير . كما يجد التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية . ومن البديع موضوع المدح بما يشبه الذم ، وغيرها من الإشارات البلاغية .

وفي العصر العباسي شهد العالم الإسلامي نهضة أدبية وعلمية ضخمة ، وظهر شعراء وأدباء وعلماء مفلقون ، شنفوا آذان التاريخ بكرائم الآداب والعلوم . ومضىٰ كثير من الكتّاب والشعراء ، مثل ابن المقفع وبشار بن برد يبدون ملاحظاتهم الذكية علىٰ ما يكسب الكلام حسناً وجمالًا . وفي نفس الفترة أخذ بعض اللُّغويين من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ (ت ، ٢٠٦هـ) يبدون ملاحظاتهم علىٰ وجوه الحسن في الكلام بصورة علمية . ثم ظهر أبو عمرو عثمان ابن بحر الجاحظ (ت ، ٢٥٥هـ) الذي جمع في كتابه « البيان والتبيين » الكثير من النماذج البلاغية في أعمال العرب الأدبية . وفي نهاية القرن الثالث الهجري ، ألف الخليفة العباسي ابن المعتز (ت ، ٢٩٦هـ) كتاباً أسماه « البديع » ذكر فيه ثمانية عشر لوناً من ألوان البديع . وقبيل ابن المعتز بقليل ، كان كتاب « الكامل » للمبرد معْلَماً مهماً في تاريخ تطور مفهوم البلاغة وبروزها علماً قائماً بذاته ، حيث قدم المبرد محمد بن يزيد (ت ، ٢٨٥هـ) طرحاً عرَّف فيه البلاغة قائلًا : « إن حدَّ البلاغة إحاطة القول بالمعنىٰ ، واختيار الكلام ، وحسن النظم حتىٰ تكون الكلمة مقاربة أختها ، ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول » . (١/ ٧٥)

ثم جاء أبو هلال العسكري في مرحلة لاحقة ليحدد : إن البلاغة سميت هكذا لأنها تنهي المعنىٰ إلىٰ قلب السامع ، فيفهمه . والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم . ثم أتىٰ الجرجاني (ت ، ٤٧١هـ) ليسهم بقسط وافر في تطور مفهوم البلاغة ، ويرسم معالمها بوضوح ، غير أنه لم يفرق بين مكوناتها وعلومها المعروفة بها اليوم ، ولا بين مصطلحي البلاغة والفصاحة . فعند عبد القاهر الجرجاني يأتي معنىٰ البلاغة مرادفاً لمعنىٰ الفصاحة والبيان . وسلك الفخر الرازي (ت ، ٦٠٦هـ) نفس المنحىٰ في التعامل مع مفهوم البلاغة والفصاحة والبيان . فالبلاغة عنده : بلوغ الشخص بعبارته كنه ما في قلبه ، مع الاحتراز عن الإيجاز المخل ، أو التطويل الممل . والبلاغة عند ابن الأثير (ت ، ٦٣٧هـ) تشمل الألفاظ والمعاني ؛ وهي أخص من الفصاحة : فكل كلام بليغ فهو فصيح ، وليس بالضرورة صحة معكوس العبارة . والبلاغة عند ابن الأثير تكون في التركيب ولا تكون في اللفظة المفردة (الكامل في التاريخ ١/ ١٣٥) .

وبعيد الربع الأول من القرن السابع ، جاء السكاكي (ت ، ٦٢٦هـ) ليبين بوضوح معالم البلاغة في كتابه الموسوم (مفتاح العلوم) . حيث عرّف البلاغة تعريفاً لا يخلو من الدقة فقال : « هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية علىٰ وجهها » (مفتاح العلوم ١/ ٤٧) . فهو بهذا التعريف يدخل علمي (البيان) و(المعاني) تحت مظلة البلاغة ، ولكنه يستثنىٰ (البديع) إذ يرىٰ أن البديع فن يؤتىٰ به لتحسين الكلام . أما الخطيب القزويني (ت ، ٧٢٩هـ) فهو يفرق بين بلاغة الكلام ، وبلاغة المتكلم . فعن بلاغة الكلام يقول : « هي مطابقته لمقتضي الحال مع فصاحته ، ومقتضي الحال مختلف ، ومقامات الكلام متفاوتة . فمقام التنكير يباين مقام التعريف . وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي ، وكذا لكل كلمة

مع صاحبها مقام » . (الإيضاح ١/ ١٥)

أما بلاغة المتكلم فهي ملكة يُقتدر بها علىٰ تأليف كلام بليغ . وقسم القزويني البلاغة إلىٰ ثلاثة أقسام : هي علم المعاني ، وعلم البيان ، والبديع . فما كان يحترز به عن الخطأ فعلم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي فهو علم البيان ، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مقتضىٰ الحال وفصاحته ، فهو علم البديع . وظل هذا التعريف هو المعتمد حتىٰ بداية عصر النهضة الحديثة . ولم تتجاوز الدراسات المعاصرة هذا التقسيم كثيراً ، وسارت علىٰ نهجه حتىٰ اليوم . فظل مفهوم البلاغة مطابقاً لحسن البيان ، وقوة التأثير ، والذي يعتمد علىٰ تأدية المعنىٰ واضحاً بعبارة فصيحة وضاءة ، لها أثر في النفس عميق ، مع ملاءمة الكلام للسياق الذي يرد فيه ، آخذاً في الاعتبار زمرة الأشخاص الذين يخاطبهم . فإذا أصاب الكلام معناه ، مع مطابقته لمقتضاه ، مع سلامته وخلوه من التكلف والتطويل ، فهو الكلام البليغ الجميل .

أقسام البلاغة الثلاثة :

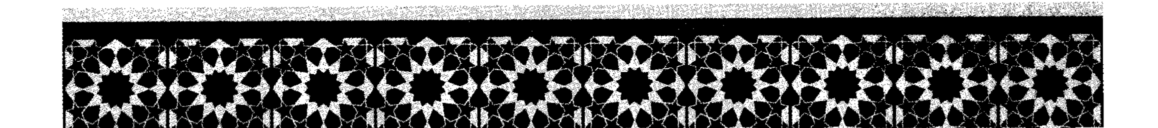
كانت البلاغة باديء ذي بدء ، سليقة عربية مركوزة في فطرتهم . فبناءً علىٰ ما تميزت به العربيَّة من اتساق أوزانها الصرفية ، وأقيستها النحوية ، واتساع معجمها ؛ وبناءً علىٰ ما فُطر عليه الإنسان العربي ، من صفاء الذهن وسرعة البديهة ، لم يكن ليصدر كلامهم إلا فصيحاً بليغاً . والبلاغة لم تكن عندهم فناً يدرس ، ولكنها سليقة تورث . ولم تكن تسمىٰ بما تسمىٰ به اليوم : بل هي عند بعضهم : إيضاح الملتبسات ، وكشف عوار الجهالات ، بأسهل ما يكون من العبارات . وهي تفسير عسير الحكمة بأسهل عبارة وأوضح إشارة . عرفت البلاغة بالذوق والفطرة فناً جمالياً يزيّن الصور ، ويلفت إليها النظر . فكل ما أوفىٰ بهذه المعاني فهو البلاغة إجمالًا . ثم جاء زمان توسعت فيه المعارف

والمدارك ، وفُصّل فيه المجمل ، وخُصص فيه العام . فحين ذاك صارت البلاغة عِلماً وعَلماً وفناً ، يطلق عموماً علىٰ كل ما هو رائع وبديع ومبين من القول . وتخصيصاً علىٰ فروع ثلاثة هي علوم المعاني والبيان والبديع .

علم المعاني :

جاء في الموسوعة العربيَّة (١/ ٢٤٩) أن هذا العلم يُعني بأحوال الجملة من حيث : الإسناد الخبري والإنشاء ، وأسلوب القصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، وأحوال أجزاء الجملة وأقسامها أي : المسند والمسند إليه ، ومتعلقات الفصل كالتعريف والتنكير ، والحذف والذكر ، والتقديم والتأخير ، والإظهار والإضمار ، وغير ذلك مما اصطلح عليه في مباحث علم المعاني ، وكيف تأتي الجملة مطابقة لمقتضىٰ الحال . فهو علم يبحث في بناء الجملة : صوغها ، اختيار أجزائها ، علاقة الجمل المتتابعة بعضها ببعض ، اختيار نوع الكلام الملائم لمقتضىٰ حال المخاطب : خبراً كان أو إنشاءً ، أو إيجازاً أو إطناباً أو مساواة . فإذا كان النحوي يدرس هذه الأحوال من حيث الجواز والوجوب والامتناع ، أي من حيث الحكم وإمكان الاستعمال ، فإن البلاغي يهتم بالأسرار المخفية وراء هذه الأحوال . فهو يهتم بمعنىٰ المعنىٰ ، إذ ينقله من اللفظ حيث يفضي ذلك المعنىٰ إلىٰ معنىٰ آخر ، حسب نظرية الجرجاني .

أما السكاكي فقد قدم تعريفاً موجزاً لهذا العلم حيث قال : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام علىٰ ما يقتضي الحال ذكره » (المفتاح ٢/ ١٣٧) .



علم البيان :

يهتم هذا العلم بدراسة القواعد والأصول التي يعرف بها إيراد المعنىٰ الواحد بطرق متعددة ، وتراكيب متفاوتة من الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية ، وتراكيب مختلفة من حيث وضوح الدلالة علىٰ ذلك المعنىٰ الواحد ، وعدم وضوح دلالتها عليه . فالتعبير عن (جود حاتم) مثلًا يمكن أن يكون بهذه الألفاظ : جواد ، كثير الرماد ، مهزول الفصيل ، جبان الكلب ، بحر لا ينضب ، سحاب ممطر ، وغير ذلك من التراكيب المختلفة في وضوح أو خفاء دلالتها (الشيرازي ، ١٣٧٩هـ) .

وقد عرفه الخطيب القزويني بصورة أكثر اختصاراً ووضوحاً ، حيث قال هو علم يعرف به إيراد المعنىٰ الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة . ثم حدد الموضوعات التي يشملها هذا العلم ، وهي تضم التشبيه : طبيعته ، أركانه ، أنواعه ، أقسامه وأغراضه ، والحقيقة ، والمجاز المفرد والمركب ، والاستعارة وعلاقاتها بالمجاز ، والفرق بين التشبيه والاستعارة ، وخصائص كل منهما ، ومزايا الاستعارة البلاغية ، ووظائفها الجمالية ، والكناية وأقسامها وعلاقاتها ، والفرق بين الكناية والتعريض ، واجتماع التعريض المجاز ، والرمز والإشارة ، وبلاغة الكناية وجمالها (الإيضاح ٢/ ٤٨) .

وقد ورد في كتب المحدثين ، أن علم البيان يختص بعنصري العاطفة والصور الخيالية معاً ، لأن الخيال وليد العاطفة ـ وقد سُمي علم البيان ، لأنه يساعد علىٰ زيادة تبيين المعاني وتوضيحها ، وزيادة التعبير عن العاطفة والوجدان ، باستخدام التشبيهات والاستعارات ، وأنواع المجاز المختلفة ، التي تظهر العمق من القول : كأن يورد المبدع مثلًا في كتابة الشيء واستبيانه جانباً لم يلاحظه أحد غيره (السامرائي ، ١٩٨٧م) .

علم البديع :

وهذا ركن البلاغة الثالث ، فهو يختص بعنصر الصياغة ، إذ يعمل علىٰ حسن تنسيق الكلام حتىٰ يجيء بديعاً من خلال حسن تنظيم الجمل والكلمات ، مستخدماً ما يسمىٰ بالمحسنات البديعة -سواء اللفظي منها أو المعنوي (الموسوعة الحرة) .

وقد عرفه ابن مالك(ت ٦٨٦هـ) في كتابه (المصباح ١/ ٤٨) علىٰ أنه معرفة توابع الفصاحة . وذكر أنه مما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه أعلىٰ درجات التحسين . ويتفرع منه وجوه كثيرة يصار إليها من باب تحسين الكلام وتجميله . وقسم ابن مالك المحسنات إلىٰ لفظية ، أو معنوية مختصة بالإفهام والتبيين . أما الخطيب القزويني ، فقد عرف هذا العلم علىٰ أنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه علىٰ مقتضىٰ الحال وفصاحته (الإيضاح : ١/ ٥١) .

أما عن المحسنات فقد تحدث عنها الخطيب القزويني بنوعيها : اللفظي والمعنوي ، وفصل فيها القول كما يلي :

١- محسنات لفظية : يكون التحسين فيها راجعاً إلىٰ اللفظ أولًا ، ويتبعه تحسين المعنىٰ ثانياً . فتشمل : السجع ، ولزوم ما يلزم ، والجناس ، ورد الأعجاز علىٰ الصدور ، وبراعة الاستهلال والتشريع ، والقلب .

٢- محسنات معنوية : وهي التي يكون التحسين فيها راجعاً إلىٰ المعنىٰ أولا ، ويتبعه تحسين اللفظ ثانياً . وتشمل الطباق والمقابلة ومراعاة النظير ، وائتلاف اللفظ مع المعنىٰ ، والإبداع والمبالغة والاستطراد والمشاكلة ، وتجاهل العارف ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه ، واللف ، والنشر ، والجمع والتفريق ، والتقسيم ، والاستقصاء ، والتوجيه ، والتورية ، والمزاوجة ، وحسن

التعليل ، والتجريد ، والاستدراج ، والإدماج ، والهزل الذي يراد به الجد ، والاطراد (الإيضاح ١/ ٥٢) .

السمات والملامح البلاغية في العربيَّة :

سبق القول بأن البلاغة تعني الوضوح والإبانة والفصاحة وتوابع الفصاحة ، بما يكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه إلىٰ أعلىٰ درجات التحسين . وهي سمة راسخة ، وميزة فاضلة من ميزات اللُّغة العربيَّة . وقد تهيأت العربيَّة بمكوناتها المختلفة : أصواتها ، ومفرداتها ، وتركيبها ، ودلالاتها لأن تكون لغة بليغة ، لها القدرة علىٰ تمكين المتحدث بها من أن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ووجدانه . فهي لغة مدهشة عميقة تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تتجلىٰ معانيها في سمت ألفاظها . فكأنما كلماتها خفقات القلوب ، ونبضات الوجدان ، ونبرات الحياة . وللوقوف علىٰ هذه المكونات التي أطفت علىٰ العربيَّة هذا السمت الفريد ، وكستها هذا الثوب الغشيب ، يستعرض الباحث بعض خصائصها التي أهلتها لأن تكون اللُّغة الأكثر بلاغة علىٰ مدار التاريخ .

١ - الخصائص الصوتية :

تمتلك اللُّغة العربيَّة أوسع مدرج صوتي عرف في لغة إنسانية . فأصواتها الثابتة الثماني والعشرون ، تتوزع مخارجها بصورة متوازنة علىٰ مدىٰ أطول جهاز نطقي ؛ ابتداءً من أقصىٰ الحلق وحتىٰ الشفتين . وهذه سمة نادرة الحدوث في اللُّغات الأخرىٰ . حيث توجد لغات كثيرة تعج بالأصوات ، ولكنها تكون محصورة في نطاق ضيق ، ومدرج قصير ؛ كأن تكون مجتمعة متكاثرة عند الشفتين وما يليهما من الفم ، أو الأنف كما هو الحال في اللُّغات الكثيرة الغنة مثل الفرنسية

مثلًا . أو أن تتجمع أصواتها ، أو تتركز حول مقدمة اللِّسان وجانبيه ، مثل اللُّغات الهندية والأردية فتخرج الكلمات باهتة غامضة متراكبة .

أما في اللُّغة العربيَّة ، فإن الأصوات تتوزع فيها توزيعـًا عادلًا علىٰ مدىٰ هذا المدرج الطويل نسبيا ، فتخرج الأصوات منسجمة واضحة . وتحقيقا لهذا الانسجام ، فإنه قلما تصدر الأصوات المتشابهة أو المشتركة المخارج متتابعة في الكلمة الواحدة ؛ فلا تجتمع الزاي والظاء والسين ، ولا الضاد والدال ، ولا الهاء والحاء ، ولا العين والهاء ، ولا الخاء والهاء معـًا . ولذلك تخرج الكلمات سهلة واضحة مبينة متمايزة .

ثم هناك التزام فطري في اللُّغة العربيَّة بتحقيق الانسيابية والانسجام والسهولة في إنتاج الأصوات ، فلا يسمح بالتقاء الساكنين مثلًا . حيث يُحرك أحد الساكنين حالة التقائهما في تركيب الجملة ، فينساب الكلام عذبًا سهلًا رقراقا . وهذا المشهد قلما يوجد له مثيل في اللُّغات الأخرىٰ . ففي اللُّغة الإنجليزيَّة مثلًا يمكن أن تأتي ثلاثة أو أربعة أصوات ساكنة متتابعة في كلمة واحدة ، فيصعب نطقها وينطفي بريقها ، فتصل إلىٰ الأذن ضئيلة هزيلة ، فلا يتجلىٰ معناها كما هو مطلوب ، ولا تستبان معاملها كما هو مرغوب .

إضافةً إلىٰ ذلك ، فإن الأصوات العربيَّة لها وظيفة تعبيرية وقيمة دلالية . فالأصوات العربيَّة ليست اعتباطية كما يزعم علماء اللُّغة المحدثون ، أو كما هو حادث في اللُّغات الأخرىٰ . فالغين في اللُّغة العربيَّة مثلا تفيد معنىٰ الاستتار والغيبة والخفاء ، كما هو الحال في غاب وغار وغاص وغال وغام . والجيم تفيد معنىٰ الجمع ، في مثل جمع وجملة وجمد وجسم . ومثل هذا كثير في العربيَّة ولا نظير له في اللُّغات الأخرىٰ .

ثم هناك علاقة واضحة بين كثير من أصوات الكلمات العربيَّة ومعانيها

ودلالاتها . فالكلمات ذات الأصوات المتشابهة تكون ذات معانٍ متشابهة . وهذه أيضًا من الظواهر التي تميز العربيَّة ، ولا يوجد لها نظير في اللُّغات الأخرىٰ . فقد تشترك جميع الحروف في كلمتين أو أكثر ، ولا يكون بين هذه الكلمات أي علاقة في الدلالة أو المعنىٰ في اللُّغات الأخرىٰ . ففي الفرنسية مثلًا كلمات تشترك في أغلب حروفها وأصواتها ، ولكن ليس بينها أي اشتراك في المعنىٰ أو الدلالة ؛ وذلك مثل كلمات Ivre وتعني (سكران) وكلمة Oeuver وتعني (أثر) وكلمة ouvre وتعني (يفتح) وكلمة (Livere) وتعني(كتاب) وكلمة (Livre) وتعني (شفة) . ومن هنا يظهر أنه ليس للأصوات أي دلالة معنوية ، وهي ترد في تلك اللُّغات الأجنبية بصورة اعتباطية حقًا . ولكن هذا الأمر لا ينطبق أبداً علىٰ أصوات اللُّغة العربيَّة ، التي تكون في كثير من الأحيان دالة علىٰ المعنىٰ الذي هو أعلىٰ مراتب البلاغة .

٢- خصائص الكلمة العربيَّة من حيث الشكل والهيئة :

مثلما ثبت بأن الأصوات العربيَّة ليست اعتباطية ، فإن الكلمات العربيَّة هي كذلك أيضًا . فالكلمة العربيَّة بحكم شكلها وهيئتها وصيغتها ، تكون ذات دلالة معنوية واضحة المعالم . يستدل علىٰ ذلك بالقوالب الصرفية التي ترد فيها المفردات العربيَّة . فهي تتشكل علىٰ أنساق ثابتة للدلالة علىٰ الوظيفة التي تؤديها الكلمة . فالشارب والمشروب والمشرب تختلف في مدلولاتها علىٰ الفاعلية والمفعولية وما يقع عليه الفعل أو مكانه ، مع اشتراكها كلها في مفهوم عام واحد هو الشرب . وهكذا ترد الكلمات العربيَّة دالة بأشكالها وهيئاتها وصيغها وأبنيتها الصرفية علىٰ وظائفها ومعانيها . وهكذا تكون القوالب الصرفية ، ذات وظيفة منطقية عقلانية دالة علىٰ معاني الفاعلية ، المفعولية ، والمكان ، والزمان ، والسببية ، والحرفة ، والآلة والمشاركة ، والتفضيل والمقارنة ، والحدث ،

وغيرها من المعاني التي يستدل عليها من صيغة الكلمة العربيَّة أو بنيتها .

أما في اللُّغات الأخرىٰ فلا يكاد الباحث يتبين أي علاقة بين صيغة الكلمة ومعناها أو مدلولها أو حتىٰ وظيفتها . ففي اللُّغة الإنجليزيَّة قد ترد الكلمات علىٰ صيغة واحدة ، ولكنها تكون ذات دلالات ومعانٍ مختلفة جداً . مثال ذلك كلمة (cut) وتعني (يقطع) وهي (فِعل) وكلمة (but)وتعني (لكن) وهي (حرف) وكلمة (not) وتعني (لا) وهي (أداة) وكلمة (nut) وتعني(فول) وهي (اسم) وكلمة (lot) وتعني (كثير) وهي (صفة) .

وحتىٰ علىٰ مستوىٰ الكلمة الواحدة التي تنطق بنفس النطق ، ولكنها قد تكون ذات دلالات ووظائف ومعانٍ متعددة . ومثال ذلك كلمة (write) فهي تعني (يكتب) وهنا تأتي (فعلًا) ، وright تعني (صحيح) فتكون (صفة) وright تعني (يمين) وتأتي اسمًا . وقد تأتي كلمات كثيرة بنفس الصيغة ولكنها تكون ذات معانٍ ووظائف ودلالات مختلفة . هذا الاضطراب في الصيغ والقوالب الصرفية براء منه اللُّغة العربيَّة التي تتصاقب فيها المباني لتصاقب المعاني .

والحقيقة إن بين أوزان الألفاظ في العربيَّة ودلالاتها تناسبًا وتوافقًا ، لا نظير له في اللُّغات الأخرىٰ . فالألفاظ العربيَّة كلها ترد علىٰ شكل نماذج ثابتة من الأوزان الصرفية ، ذات الدلالات المعروفة . وهكذا يرد جميع الكلام العربي نظمًا أو نثراً ، جاريًا علىٰ أنساق منتظمة تعطي جرسًا موسيقيًا مدهشًا . وهذا ما فطن إليه الشعراء والبلغاء ، فاستثمروا جرس المفردات والموسيقىٰ الكامنة في تركيبها لصياغة المعاني التي قصدوا إلىٰ بلورتها . فكتبوا شعراً رائعًا يأثر الوجدان والمشاعر ، ونثراً باهراً يأسر العقول والضمائر . ومن ذلك ، قول قيس بن الملوح ، مجنون ليلىٰ في إحدىٰ قصائده المشهورة المعروفة بالمؤنسة :

تذكرت ليلىٰ والسنين الخواليا   وأيام لا نخشىٰ عن اللهو ناهيا

بِثَمدينَ لاحَت نارُ لَيلىٰ وَصُحبَتي بِذاتِ الغَضىٰ تُزجي المَطِيَّ النَواجِيا
فَقالَ بَصيرُ القَومِ أَلمَحتُ كَوكَباً بَدا في سَوادِ اللَيلِ فَرداً يَمانِيا
فَقُلتُ لَهُ بَل نارُ لَيلىٰ تَوَقَّدَت بِعَليا تَسامىٰ ضَوءُها فَبَدا لِيا

(ديوان قيس بن الملوح ١٩٩٩)

ففي هذه الأبيات ، تلمح عاشقاً يهيم بحب معشوقته ، ويذكر أيامه الخوالي معها ، أيام لا يزجره عن حبِّه لها زاجر ، ولا يمنعه مانع . ثم يسعىٰ يتلمس أثارها وديارها فيتمثلها في كوكب دُري ، لاح في سواد تلك الليلة الداجية ، التي اسودت واشتد سوادها جراء فراق المحبوبة . فهنا يستفيد الشاعر من توالي الأصوات الساكنة والممدودة ، وانتظام توزيعها ليضع السامع في هذا الجو ، جو العاشق الولهان ، الذي يهيم بمحبوبته التي ملأت عليه بصره وخياله حتىٰ أصبح يراها ويرىٰ آثارها في كل شيء ، حتىٰ خَال البدر الذي تبدىٰ في الأفق البعيد نارها .

ثم هناك بشار بن برد ، الذي يرسم بالكلمات مشهداً رهيباً ، لتلك المعركة التي تخيل أن قومه قد خاضوها ، مستفيدا من دلالة المفردات علىٰ سرعة الحركة ، وتكرار بعض الأصوات الدالة علىٰ الاضطراب ، ليصور من خلالها ثوران الغبار وقعقعة السلاح ، وصليل السيوف . فيقول :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوىٰ كواكبه

ويشير صاحب الظلال (٥/ ٦٣) إلىٰ أن البلاغة العربيَّة ، قد بلغت ذروتها وكمالها ، في آي الذكر الحكيم ، حيث تقرأ الآيات الكريمة في أوزانها المتناسقة ، فتحس أنك أمام تحفة فنية رائعة ، تتناسب مكوناتها بصورة مدهشة . وذلك مثل قوله جلَّ وعلا في سورة عبس : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾
ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[عبس، آية: ٢٣-٣٢] .

تمر هذه الآيات الكريمة سراعاً في شكل بانوراما متعددة الألوان، لتترك أثرها العميق وصداها المتفرد في النفس البشرية . وذلك من خلال إيقاعاتها المتقاربة، وأصواتها المتجانسة، لتضع السامع امام لوحة بديعة متناسقة الأجراس، وتدعوه للنظر، فالتأمل، فالشكر، فالإيمان . وهكذا تأتي آيات الذكر الحكيم غاية في الروعة والبلاغة والوضوح والبيان .

٣- الإيجاز :

الإيجاز سمة بلاغية بارزة . فبقدر ما استطاعت اللُّغة أن تعبر عن المعاني الكثيرة بألفاظ يسيرة، دلَّ ذلك علىٰ بَلاغتها وعلو شأنها . وعند العرب (خير الكلام ما قلّ ودلَّ) . وعندهم أيضاً أن البلاغة في الإيجاز . أما نبينا محمد (عليه أفضل الصلاة والتسليم)، فقد أوتىٰ جوامع الكلم . وهنا تتجلىٰ قمة بلاغته وحسن بيانه .

والعربيَّة بطبيعة مكوناتها وتراكيبها، تساعد علىٰ إبراز المعنىٰ المقصود، بإيجاز لا مثيل له في اللُّغات الأخرىٰ . وقد يجد الباحث في العربيَّة نماذجَ عديدة من هذا الإيجاز، الكائن أصلاً في طبيعة الجملة العربيَّة . ففي الإضافة مثلًا يكفي أن يضيف المتحدث الضمير إلىٰ الكلمة وكأنه جزء منها فيقول (كتابه) مثلًا، وذلك مقابل الكلمتين(His book) في الإنجليزيَّة، و (son livre) في الفرنسية .

أما في الإسناد، فيكفي في العربيَّة، أن يذكر المسند والمسند إليه، وتترك لعلاقة الإسناد العقلية المنطقية أن تصل بينهما بلا رابطة ملفوظة ـ فمثلًا جملة (أنا سعيد) المكونة من كلمتين، لا يمكن تحقيقها بهذا الشكل في الإنجليزيَّة أو الفرنسية، حيث لابد من دخول الرابط وذلك مثل (I am happy) في الإنجليزيَّة .

و (je suis heureux) في الفرنسية . وتستخدم هاتان اللغتان جملة من الأفعال المساعدة مثل (avoir ،etre) في الفرنسية و (verb to be) في الإنجليزيَّة ومشتقاتها ، فتنافي بذلك مبدأ الإيجاز الذي هو سمة بلاغية مهمة .

وفي صيغ المبني للمجهول مثلًا ، يجد الباحث تطويلًا مخلًا في اللُّغات الأجنبية للتعبير عن هذا المفهوم . في حين أن الأمر جد مختصر وموجز في العربيَّة . مثال ذلك كلمة (كُتب) والتي لا يحتاج في بنائها للمجهول لأكثر من تغير حركة الحرف الأول من الفتح للضم ، وكسر ما قبل الآخر . أما في الإنجليزيَّة والفرنسية فلا يمكن أن يعبر عن ذلك بأقل من ثلاث أو أربع كلمات ومثال ذلك (It was written) في الإنجليزيَّة و (il a ete ،ecrit) في الفرنسية .

وفي العربيَّة ألفاظ وتراكيب يصعب التعبير عن معانيها بلغات أخرىٰ بمثل عددها من الكلمات ؛ وذلك مثل أسماء الأفعال . ففي العربيَّة يقال (هيهات) وبالإنجليزيَّة (It is too far) ويقال (شتان) وبالإنجليزيَّة (There is a great difference) وفي العربيَّة تقول (لم أقابله) وبالإنجليزيَّة تقول (I have not seen him) وبالفرنسية (I' ai pas rencontre Je ne) . وفي العربيَّة يمكن أن يقال مثلًا (لن أقابله) وتعادلها بالانجليزي (I will never meet him) وفي الفرنسية (jamais ،Je ne le recontrerai) .

وعمومًا يظهر أمر الإيجاز في اللُّغة العربيَّة بصورة لا تدع مجالًا للشك في مجال الترجمة . فصورة الفاتحة مثلًا المكونة من إحدىٰ وثلاثين كلمة ، استغرقت ترجمتها إلىٰ الإنجليزيَّة ، إثنتين وسبعين كلمة . و يذكر الدكتور بكر في كتابه العربيَّة لغة عالمية (١٩٦٦ : ٣٧) أنه إذا ترجمنا إلىٰ العربيَّة كلامًا مكتوبًا بإحدىٰ اللُّغات الأوروبية ، كانت الترجمة العربيَّة أقل من الأصل بأكثر من الثلث .

البلاغة في اللُّغات الأخرىٰ :

عرفت اللُّغات الإنسانية ، البلاغة في مراحل متقدمة من مراحل تطورها التاريخي . وكانت الأساليب البلاغية اللاتينية ، هي النموذج الذي اشتقت منه ، ونسجت علىٰ منواله ، كثير من النظم اللُّغوية الحديثة ، مثل الفرنسية والإنجليزيَّة والاسبانية . وتختلف اللُّغات اختلافاً بيناً في مستوىٰ أدائها البلاغي ، كما تتباين قدراتها في الإبانة وتمكين المتحدث بها عن الإشفاف عما في نفسه بوضوح . ويرجع الباحث هذا التباين في الأداء البلاغي والبياني بين اللُّغات ، إلىٰ مكوناتها الأساسية ، والتي تتمثل في نظمها الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية .

فاللُّغات الغربية الحديثة وخصوصاً اللُّغة الإنجليزيَّة ، غالباً ما يتصف أداؤها البياني والبلاغي بالمحدودية ، وذلك لاضطراب نظامها الصرفي ، ومحدودية معجمها ، وانغلاق نظامها النحوي ، وضعف قدرتها علىٰ الاشتقاق ، وافتقار أبنيتها وصيغها للاتساق ، وذلك بحكم انتماء معظم مكوناتها ومفرداتها إلىٰ لغات مختلفة .

وعلىٰ الرغم من ذلك ، فقد استعارت اللُّغة الإنجليزيَّة ، جملةً من الصيغ البلاغية من اللُّغة اللاتينية والتي يمكن أن تجمل فيما يلي :

١ - (Simile) وهو التشبيه وعادة ما يكون بين شيئين ، وباستخدام كلمات مثل (as ،Like) ، ويمثل له في كتب الدرس البلاغي الانجليزي بالمثال : He was like a lion in a battle .

٢ - Metaphor : وهو نوع من التشبيه ، ولكنه يتم بدون أداة تشبيه . وهو ما يعادل في العربيَّة التشبيه البليغ . مثال ذلك قولهم : He was a lion in a battle .

٣- Metonyony : وهي لفظة تعادل الكناية ، وتتمثل في التعبير عن شيء بشيء آخر ، له به علاقة . وذلك مثل قولهم : The pen is mightier than the sward

٤-Irony : وهو التعبير بكلمات يقصد بها عكس معناها الحرفي ، مثال ذلك الإشارة إلىٰ عمل أخرق أو أحمق بقولهم : That is cute

٥- Insinuation : وتعني الغمز وذلك مثل قولهم :

. There are no lairs nowadays . They all have become journalists

٦- Antithesis : وتعني المقابلة أو الطباق وذلك مثل قولهم : He speaks like a saint and acts like a devil .

٧-Repetition : وتعني التكرار أي ترديد العبارة للتأكيد عليها وذلك مثل قولهم :

He called me، then he called my brother and finally called his friend .

٨- Omission : وهذه تتجلىٰ في الحالات التي تحذف فيها بعض العبارات أو المفردات ، لتسليط الضوء علىٰ المعنىٰ والاختصار . وذلك مثل قولهم I washed ، ، shaved، dressed and went out .

٩- Hyperbole : وهي تعني المبالغة وذلك في مثل قول شكسبير : All the perfume of Arabia would not sweeten this little hand .

كانت تلك بعض الأساليب البلاغية التي حفل بها الدرس البلاغي في اللُّغة الإنجليزيَّة . وهي ، كما هو واضح ، نماذج مأخوذة بالنص من اللُّغة اللاتينية ، يظهر ذلك من مسمياتها اللاتينية التي لا تخطئها العين . وهي بمجملها نماذج

سطحية ، لم تشمل المجاز والصور البيانية العميقة ، التي حفلت بها اللُّغات الشرقية عموماً ، واللُّغة العربيَّة علىٰ وجه الخصوص . و لم يكد الباحث يقف علىٰ نماذج كثيرة من صور البديع التي يمكن أن تستخدم لتحسين الكلام . وهذا مرده إلىٰ عدم تجانس الألفاظ الناتج عن عدم وجود ميزان صرفي ثابت ، وقالب لغوي تصب فيه مادة المفردات الإنجليزيَّة ، حتىٰ تخرج ذات أشكال زخرفية متجانسة منسجمة ، تشكل محسنات لفظية يوشَّىٰ بها الكلام ، ويبلغ بها المرام في التعبير عما يدور في العقل والأفهام ، ويجيش في النفوس ، ويعتمل في الخواطر والوجدان .

إن قصور اللُّغات الغربية عن الاحتفاء بالصور البيانية والبلاغية ، مثل المجاز والكناية ، وافتقار تلك اللُّغات إلىٰ المسحنات البديعية ، انعكس سلباً علىٰ الأداء الأدبي في تلك اللُّغات . وأخطر من ذلك فقد كان لذلك القصور آثار قاتلة خصوصاً في الترجمات الدينية التي تمت من اللُّغات الشرقية إلىٰ لغات الغرب . ومن أفظع هذه الآثار ما وقع في ترجمة الكتاب المقدس(الإنجيل) من أصله الأول ، وهو لغة المسيح (عليه السلام) ، اللُّغة الآرامية ، وهي لغة سامية شرقية وأخت للعربية . فهذه اللُّغات تستخدم المجاز والكناية بصورة عفوية . والشاهد أنه عندما ترجمت بعض النصوص الإنجيلية ، إلىٰ اللُّغات الغربية كالإنجليزيَّة مثلًا ، وهي لغات لا تحتفي بالمجاز اللغوي ، فقد وقعت أخطاء عظيمة أفسدت عقائد الناس ، وأبعدتهم عن جادة الصراط المستقيم . فعبارة مثل عبارة « الخلق عيال الله » تفهم في إطارها المجازي وبسهولة شديدة في اللُّغة العربيَّة ، وذلك لقرينة مانعة لحدوث المعنىٰ الحرفي للعبارة ، وهي قرينة استحالة أن يكون الإله الأعظم أباً ، أو أن يكون الخلق أبناءه وعياله . ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾[مريم ، آية : ٣٥] . فنسبة لعدم شيوع المجاز في اللُّغات الغربية ، فقد فهمت

مثل هذه التعابير فهماً حرفياً ؛ فجعلوا الإله أباً ، والمسيح ابناً ، فكانوا بذلك من الضالين . أما اليهود ؛ فقد كانوا ممن غضب الله عليهم ، إذ قالوا عزيزٌ بن الله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[الكهف ، آية : ٥] ، فقد أضلهم الله علىٰ علم .

وهكذا ظل قصور الاحتفاء بالأساليب المجازية والبيانية في اللُّغات الغربية ، والإنجليزيَّة علىٰ وجه التحديد ، يقف حاجزاً أمام المتحدثين بتلك اللُّغات ، وعقبة أمام فهمهم المعاني الدقيقة ، والملامح الثقافية التي يُعبر عنها بأساليب بلاغية متقدمة في اللُّغة العربيَّة . كما ظلت هذه الظاهرة تشكل عقبة كأداء أمام المترجمين ، الذين يودون ترجمة بعض النصوص من العربيَّة إلىٰ الإنجليزيَّة ، والتي يضيق صدرها تماماً عن استيعاب تلك الصور والنكات البلاغية الدقيقة .

نماذج بلاغية من الأدب الانجليزي :

لم يخلُ الأدب الانجليزي ، مثله مثل سائر آداب اللُّغات ، من بعض الصور البلاغية والبيانية . وجاءت أعمال جفري جوسر ، وخلفه شكسبير مشتملة أساليب بلاغية محددة ، متمثلة في التشبيه بأشكاله المختلفة ، والمبالغة والكناية والتكرار والسخرية . وقد حفلت أعمال بعض المتأخرين من أدبائهم ، بصور بلاغية لا بأس بها ، ولكنها لم تخرج عن إطار التشبيه والكناية والسخرية . وقد عُرف بالسخرية كاتبهم الشهير برنارد شو في روايته المشهورة (Arms and the Man) ومدلتون في مسرحيته (Women Beware Women) ، وبرع منهم في التشبيه ونستون تشيرشل الصحفي و المؤرخ والخطيب المشهور ، والذي جاء مرافقاً لحملة كتشنر لغزو السودان ١٨٩٨م . فأعجب ببسالة السودانيين في الدفاع عن أرضهم أي ما إعجاب! فكتب كتابه المشهور (حرب النهر) . فقد جمَّل كتابه هذا ، ببعض الصور البلاغية التي استطاع أن ينقل من خلالها صورة معركة كرري

الشهيرة ، التي دارت رحاها علىٰ أعتاب مدينة أم درمان التاريخية . ثم بعد أن أصبح رئيساً لوزراء بيريطانيا ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، ورأىٰ بعيني رأسه انهيار جيش أمته أمام ضربات النازيين ، قدم خطبته الشهيرة التي استثار بها همة قومه للدفاع عن بلدهم ، وحثهم فيها علىٰ الصمود أمام أعدائهم ، مثلما فعل أهل السودان فقال لهم :

. I want you to defend your country like the Sudanese did defend theirs

ومعناها : « أريدكم أن تحموا بلدكم كما حمىٰ السودانيون أرضهم » . وقد استخدم وينيستون تشرشل نموذج التشبيه في هذه الخطبة التاريخية ، التي استطاع من خلالها أن يستنهض عزائم الانجليز ، ويلهب مشاعرهم ، ويعبر بهم من قاع الهزيمة المنكرة ، إلىٰ النصر المؤزر .

عموماً ، فإن اللُّغة الإنجليزيَّة في أدابها لم تخل من بعض الصور البيانية المألوفة . وهي نماذج انحصرت في استخدام التشبيه والمبالغة والكناية والسخرية ، والموسيقىٰ اللفظية ، ولكنها بكل المقاييس تأتي دون مستوىٰ النماذج التي اعتادها الباحث في اللُّغة العربيَّة .

وقد ترد الصور البلاغية في الأدب الانجليزي ، وهي لا تخلو من الغرابة ، وأحياناً السذاجة . ولإثبات هذا الزعم يقف الباحث علىٰ بعض من النماذج الأدبية المشهورة ، والتي تدرس لطلاب الأدب الانجليزي في بريطانيا والولايات المتحدة ، وطلاب كليات الآداب ، المتخصصين في الأدب الانجليزي ، في بلدان العالم الأخرىٰ . ولتكن بعض من أعمال الشاعر جون دون John Donne مثالاً لذلك . وجون دون من أدباء عصر النهضة ، عاش في القرن السابع عشر في عهد الملكة إليزابيث الأولىٰ . وهو شاعر متميز بحسب مقاييس الأدب الانجليزي ، وصاحب مدرسة أدبية عرفت بالمدرسة الميتافيزقية . وهو رائد هذه المدرسة

ومؤسسها الأول ، وتبعه في ذلك أدباء كثر . ويرى بوكنين (٢٠٠٣) أن جون دون صاحب أخيلة متفردة وصور بلاغية مدهشة . واستدل على ذلك بهذا الجزء من نص قصيدته

(AValidation Forbidding Mourning)

فهذه القصيدة ، قصيدة مشهورة للشاعر يعزي فيها معشوقته عن فراق وشيك بينهما فيقول :

As virtuous men pass mildly away ،
And whisper to their souls to go ،
Whilst some of their sad friends do say ،
"Now his breath goes ،" and some say ،"No . "

So let us melt ،and make no noise ،
No tear-floods ،nor sigh-tempests move ;
'Twere profanation of our joys
To tell the laity our love .

Moving of th' earth brings harms and fears ;
Men reckon what it did ،and meant ;

But trepidation of the spheres ،

Though greater far ،is innocent .

Dull sublunary lovers' love
—Whose soul is sense—cannot admit
Of absence ،'cause it doth remove
The thing which elemented it .

But we by a love so much refined ،
That ourselves know not what it is ،
Inter-assurèd of the mind ،
Care less ،eyes ،lips and hands to miss

Our two souls therefore ،which are one ،
Though I must go ،endure not yet
A breach ،but an expansion ،
Like gold to aery thinness beat .

If they be two ،they are two so
As stiff twin compasses are two ;

Thy soul ،the fix'd foot ،makes no show
To move ،but doth ،if th' other do .

And though it in the centre sit ،
Yet ،when the other far doth roam ،
It leans ،and hearkens after it ،
And grows erect ،as that comes home .

Such wilt thou be to me ،who must ،
Like th' other foot ،obliquely run ;
Thy firmness makes my circle just ،
And makes me end where I begun .

www . cummingsstudyguides . net

في مجمل هذه القصيدة يقول الشاعر لمعشوقته :

إن روحي وروحك ولو أنهما اثنتان ، فهما كذلك مثل ساقي الفرجار أو البرجل ، تكون فيه روحكِ مثل ساقه الثابتة ، وروحي هي الساق الأخرىٰ التي تتحرك . ورغم أن روحك تظل ثابتة ، وتذهب روحي بعيداً ، إلا أنهما تظلان مرتبطتين في الجزء الأعلىٰ ، وتنحني روحك صوب روحي . وحينما تعود روحي أدراجها ، تنتصب روحك ، وتعتدل من أنحائها .

فكما هو واضح في هذه الأبيات ، يشبه الشاعر روحه وروح معشوقته بساقي

البرجل ، تتفرق أجسادهما وتظل أرواحهما مرتبطة أبداً ، تهفو هي إليه حال بعده عنها ، وتستوي مستقيمة إن هو عاد إليها .

دون الدخول في إصدار حكم علىٰ هذه الصورة البلاغية (المدهشة) ودون الذهاب بعيداً للتنقير في ماضي الأدب العربي التليد ، يدعو الباحث القارئ للنظر في هذه الأبيات للشاعر السوداني المبدع إدريس جماع (رحمه الله) يتناول فيها معنىً مشابهاً .

إننا طيفـــــان في حلم سماوي سرينا
واعتصرنا نشوة الحب ولكن ما ارتوينا
إنه الحـــب فلا تسأل ولا تعتب علينا
كانت الجنـــة مأوانا فضاعت من يدينا

(من ديوان الشاعر : لحظات باقية ص ٣٤)

وفي قصيدة أخرىٰ ، يأتي جون دون شاعر الميثافيزقيا بصور بلاغية أكثر غرابة . وهذا ما دار في قصيدته الأخرىٰ The Flea وتعني البعوضة .

في هذه القصيدة ، يراود الشاعر معشوقته عن نفسها فتأبىٰ . ثم تأتي بعوضة صغيرة فتلسعه ، ثم من بعد تستقر علىٰ صدر المعشوقة وتلسعها أيضاً . فيخاطب الشاعر معشوقته قائلًا :

MARK but this flea ،and mark in this ،
How little that which thou deniest me is ;
It suck'd me first ،and now sucks thee ،
And in this flea our two bloods mingled be .

Thou know'st that this cannot be said
A sin ،nor shame ،nor loss of maidenhead ;
Yet this enjoys before it woo ،
And pamper'd swells with one blood made of two ;
And this ،alas ! is more than we would do .

O stay ،three lives in one flea spare ،
Where we almost ،yea ،more than married are .
This flea is you and I ،and this
Our marriage bed ،and marriage temple is .
Though parents grudge ،and you ،we're met ،
And cloister'd in these living walls of jet .
Though use make you apt to kill me ،
Let not to that self-murder added be ،
And sacrilege ،three sins in killing three .

Cruel and sudden ،hast thou since
Purpled thy nail in blood of innocence?
Wherein could this flea guilty be ،

Except in that drop which it suck'd from thee?

Yet thou triumph'st ،and say'st that thou

Find'st not thyself nor me the weaker now .

'Tis true ; then learn how false fears be ;

Just so much honour ،when thou yield'st to me ،

Will waste ،as this flea's death took life from thee

www . hakeem-sy . com/main/node/36041

ومعناها إجمالًا :

انظري إلىٰ هذه البعوضة ، وتأملي طلبي الصغير الذي رفضت أن تَمُني به عليَّ ، أو تستجيبي له . فهذه البعوضة قد لسعتني أولًا ، ثم هي الآن تلسعك ، وتمتص من دمك بعد أن امتصت من دمي أولًا . وفي هذه البعوضة يختلط دمك ودمي . فلتعترفي بأن ما فعلته البعوضة هذا ، لا يمكن أن يسمىٰ خطيئة أو عاراً أو خدشاً للشرف . ثم يمضي إلىٰ إقناع معشوقته بأن ما كان يصبو إليه قد تحقق ، وقد تم له ما أراد من خلال هذه البعوضة ، لأن الجنس الذي طلب أن يمارسه معها ، ما هو إلا امتزاج دم الذكر والأنثىٰ ، وأنه بلغ ذلك من خلال فعل هذه الحشرة . وهما الآن قد أصبحا جسداً واحداً .

ويمضي الشاعر في استدعاء صور غريبة جداً ، إلا أن هذه المسائل لا تقع في إطار هذا البحث ، وقد يكون مجالها الأدب المقارن . ولكن الذي يهم الباحث هنا ، الصور البيانية الواردة في النص ، والتي لا يتردد الباحث كثيراً في وصفها بأنها شاذة ، وتتنافىٰ مع مبادئ الذوق السليم .

ومرة أخرىٰ يترك للقارئ مساحة للمقارنة ، وإصدار الحكم علىٰ أنواع

الصور البلاغية التي يحتفي بها أدباء اللُّغة الإنجليزيَّة ، وتلك التي تجود بها قرائح الأدباء العرب في ماضيهم وحاضرهم .

خاتمة :

في غضون هذا الفصل ، طاف الباحث علىٰ المعالم البلاغية والسمات البيانية في اللُّغة العربيَّة . وأثبت من خلال هذا التطواف ، أن العربيَّة لغة بليغة مبينة ، وأن البلاغة سمة أصيلة في العربيَّة . وكان العرب يعرفون الأساليب المختلفة ، والصور التي تزيد كلامهم ألقاً ووضوحاً وجمالًا . وبعد نزول القرآن الكريم بالعربيَّة ، وصلت بلاغة اللُّغة العربيَّة غاية كمالها ، ومنتهىٰ جلالها . وأصبح النص القرآني نموذجاً راقياً يقتبس منه البلغاء والفصحاء . وعلىٰ هذا المنوال سار النهج البلاغي في اللُّغة العربيَّة ، حتىٰ بلغ ذراه في عهود ازدهار الحضارة الإسلامية .

والحقيقة إن العربيَّة قد تهيأت بمكوناتها المختلفة : أصواتها ، ومفرداتها وتراكيبها لأن تكون لغة بليغة ، لها القدرة علىٰ تمكين المتحدث بها من أن يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ووجدانه ، مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والتطويل الممل .

وقد طاف الباحث علىٰ أقسام البلاغة من معانٍ وبيان وبديع ، وكيف تطورت هذه العلوم حتىٰ غدت تراثاً متميزاً ، ومنهلًا عذباً ينهل منه أدباء العربيَّة علىٰ مرِّ الزمان وتعاقب الأجيال . وقد ذُكر أن علم المعاني هو علم يعني بأحوال الجملة من حيث الإسناد الخبري والإنشائي ، وأسلوب القصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، وغير ذلك . أما علم البيان فهو ، ما اختص بدراسة القواعد والأصول التي يعرف بها إيراد المعنىٰ الواحد بطرق مختلفة ، وتراكيب متفاوتة من الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية . أما البديع فهو علم يختص بعنصر الصياغة ،

فهو يعمل علىٰ حسن تنسيق الكلام ، حتىٰ يجيء بديعاً من خلال حسن تنظيم الجمل والكلمات . وهو فن يمارس ليكسو الكلام حلة التزيين ، ويرقيه إلىٰ أعلىٰ مراتب التحسين .

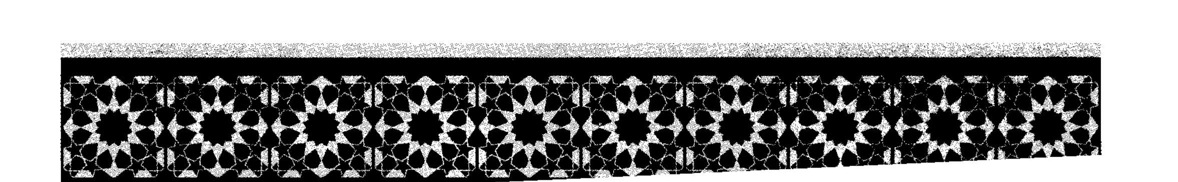
ومن ثم تطرق الباحث إلىٰ الملامح والسمات البلاغية في العربيَّة حيث ثبت أن العربيَّة لغة مدهشة عجيبة ، تكاد تصور كلماتها مشاهد الطبيعة ، وتمثل عباراتها خطرات النفوس ، وتتجلىٰ معانيها في سمت مفرداتها . ثم وقف الباحث علىٰ خصائص اللُّغة العربيَّة التي أهلتها لأن تكون لغة بليغة مبينة ، حيث تطرق إلىٰ خصائصها الصوتية ، ودلالاتها المعنوية ، وخصائصها التركيبية ، ونظامها النحوي المفتوح ، وسعة معجمها اللغوي ، وقدرتها علىٰ الاشتقاق الذي ما ينفك يرفد العربيَّة بمفردات غير متناهية ، يعبر بها الإنسان العربي عن كافة مستجدات الحياة ومطلوبات الحضارة .

وفي جميع هذه الحالات حرص الباحث علىٰ أن يجري مقارنات ومقابلات بين الأساليب البلاغية في اللُّغة العربيَّة ، ونظائرها في اللُّغات الأخرىٰ . ثم قدم بعض النماذج من الصور البلاغية في اللُّغة الإنجليزيَّة ، ونماذج أدبية من العربيَّة ، ثم ترك للقارئ الكريم مساحة ليحكم بنفسه ، ويقدم مرافعة عن بلاغة هذه اللُّغة الشريفة .

الفصل الثامن :

الخـــاتــمــة

(ملخص الدراسة ونتائجها والتوصيات)



مدخـــل :

العربيَّة لغة عريقة جداً ، بيد أنها رغم هذه العراقة التي لم تماثلها فيها لغة حية أخرىٰ ، ظلت محافظة علىٰ شكلها ومضمونها ، أوقل علىٰ مبانيها ومعانيها بصورة مدهشة . فإن من أغرب ما وقع في تاريخ اللُّغات البشرية ، وصعب فهم سره وإدراك كنهه ، بقاء هذه اللُّغة مصونة فتية ، غضة طرية ، ناطقة علىٰ ألسنة الأجيال الحاضرة ، كما كانت تنطق علىٰ ألسنة الأجيال الغابرة : لم تستغرب ، ولم تستعجم ؛ بل لم تتبدل ، ولم تتغير ولم تمت ، مثلما تبدلت أو ماتت تلك اللُّغات التي عرفها الإنسان . فأصواتها ومفرداتها ، وصيغها وتراكيبها ، هي هي كما كانت ، رغم تطاول القرون وتعاقب الأجيال . وهذا أمر لم يسجله التاريخ للغة محكية ، ولم يوجد له نظير إلا في اللُّغة العربيَّة . تلك اللُّغة التي يقرأ القارئ نصوصها القديمة اليوم ، فلا يحس بقدمها ، بل يأنس بها ، ويتلذذ بتكرارها وتمثلها واستخدامها .

يحدث هذا في اللُّغة العربيَّة ، في حين أن نصوص اللُّغات الأخرىٰ تستعصي علىٰ الفهم ، ويصعب تمثلها إذا مضىٰ علىٰ تأليفها قرنان أو ثلاثة ، وتصبح من مخلفات التاريخ ، إن مضىٰ علىٰ إنشائها أكثر من ذلك ، وتحسب في عداد مصنفات المتاحف واللُّغات الميتة .

ومن المسائل المدهشة حقا ، أن تنبت هذه اللغة ، وتصل درجة الكمال اللُّغوي والبهاء التعبيري ، وسط تلك الصحارىٰ المقفرة في جزيرة العرب ؛ عند أمة من الرحل الأميين ، الذين عجزوا حتىٰ عن بناء مساكن ثابتة ، تأويهم وتقيهم زمهرير الشتاء القارص ، وسموم الصيف اللافح ، ناهيك عن أن يبدعوا نظاماً لغوياً متفرداً تقاصرت وتضاءلت دون روعته كل النظم اللُّغوية التي عرفها

الإنسان في تاريخه الطويل .

فرغم وعورة الجغرافيا ، وقسوة المكان ، ورغم العوز الذي كان السمة السائدة وسط غالب السكان ، تفتقت عبقرية الإنسان عن تلك المنظومة اللُّغوية الرائعة ، المعبرة عن فطرة سوية ، وسليقة شفافة نقية ، لتضع بين يدي التاريخ هذه الدرة الفريدة السنية ، هذه اللُّغة العربيَّة ، التي فاقت كل أخواتها بكثرة مفرداتها ، ودقة معاييرها ، ورقة تعابيرها ، وحسن نظام مبانيها ، وسمو معانيها . هذه اللُّغة التي ظهرت ، ومنذ أن ظهرت ، وهي في غاية الكمال والجمال والجلال . إذ لم يسايرها التاريخ ، إلا وهي في عنفوان الشباب ، فلم تُعرف لها طفولة ، ولم تدركها شيخوخة ، ولم تطلها يد الفناء والبلىٰ ، ولم تذهب شبابها سنن التبدل والتغيير .

فاللُّغة العربيَّة هي أهم لغة في تاريخ البشرية ، إذ بها نزل القرآن الكريم ، الحاوي لعقيدة الإسلام وشرائعه الراسخة ، وتعاليم تلك الرسالة الخاتمة الموجهة للخلق أجمعين : إنسهم وجنهم علىٰ السواء ، وعلىٰ اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وعلىٰ اختلاف أزمانهم وأوطانهم ، وحتىٰ قيام الساعة . فحفظت من التبدل والتحول والموت الذي هو سنة ماضية في كافة اللُّغات ، خلا العربيَّة ، وذلك بوعد رباني صادق ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر ، آية : ٨] . فكون هذه اللُّغة الشريفة هي لغة القرآن ، فإن ذلك في حد ذاته يستوجب أن تجيَّر لدراستها الأقلام ، وتوجه لفهم دقائقها الإفهام ، أفهام أبناء أمة الإسلام ، وعلمائها الكرام الحادبين علىٰ دينهم ، الغيورين علىٰ عقيدتهم ، والساعيين لتثبيتها في نفوس الخاصة والعوام .

فهذا أمر بالغ الأهمية ، ولا يمكن أن يحقق إلا من خلال إتقان هذه اللُّغة العربيَّة ، وفهم أسرارها وسبر أغوارها ، والإسضاءة بأنوارها . وفي هذا الإطار تأتي هذه الدراسة ، في شكل محاولة جادة لفهم حقيقة هذه اللغة ، وذلك من خلال

مقارنة مكوناتها ومقابلتها بمكونات اللُّغات المعاصرة ، عسىٰ أن يقود ذلك لتبيان منزلة هذه اللُّغة الشريفة بين لغات العالم ، وتقديم الشواهد والأدلة علىٰ تفرد هذه اللغة . والأمل معقود علىٰ أن تفتح هذه الدراسة أبوابًا للبحث المتعمق في هذا المجال ، وذلك باستخدام مبادئ علم اللُّغة التقابلي ، لاستكناه معالمها وأسرارها ، ومن ثمَّ تحديد مكانتها السامية بين لغات العالمين ، وإيلائها ما تستحق من جهد وعناية ، والسعي لنشرها وتعليمها للناطقين بغيرها ، حتىٰ تكون لغة التفاهم الأولىٰ بين أبناء البشر .

نتائج الدراسة :

من خلال هذه الدراسة المتأنية لمعالم العربيَّة ، وسماتها ومكوناتها الأساسية ، ومقابلة تلك ومقارنتها بمعالم وسمات ومكونات اللُّغات الأخرىٰ ، فقد وصل الباحث إلىٰ سلسلة من النتائج المهمة ، والتي سوف تذكر إجمالًا فيما تبقىٰ من هذا الفصل . وقد شملت الدراسة نشأة اللُّغة العربيَّة ، وتاريخها وتطورها ، كما شملت الدراسة أصواتها وعباراتها ، وأساليب كتابتها ورسمها . ثم تطرقت الدراسة إلىٰ نحو اللُّغة العربيَّة ، وصرفها ، وبلاغتها ، وثراء معجمها . وأُفرد لكل من تلك المكونات فصلٌ قائم بذاته ، نوقشت فيه سماتها ومميزاتها ، وتمت مقابلة تلك السمات والمكونات بنظائرها في اللُّغات الأخرىٰ . وقد أظهرت هذه الدراسة الوصفية التحليلية التقابلية تفوق العربيَّة تفوقًا لا تخطئه العين ، ولا يتوهم فيه ذو عقل وبصيرة ، اللهم إلا من كان في قلبه مرض ، أو في عينه رمد . و تتلخص هذه النتائج فيما يلي :

١ - اللُّغة العربيَّة هي إحدىٰ منظومة اللُّغات السامية مثل العبرية والآرامية والأمهرية . وهي أقرب تلك اللُّغات للمصدر ، ولكنها لم تتعرض لما تعرضت له بقية الساميات من اختلاط وتحور أو تبدل أو ذوبان في لغات أخرىٰ . ويرجع

الباحثون ذلك لاحتباسها في جزيرة العرب ، مما أبقاها علىٰ نقائها وصفائها . وقد اندثرت كل اللُّغات السامية عدا العربيَّة ، رغم قلة الجهد البشري المبذول لحفظ هذه اللُّغة .

٢ - اختلفت الآراء حول نشأة العربية ؛ فمن العلماء من يقول : بأن يعرُب بن كنعان كان أول من أعرب في لسانه ، وتكلم بهذا اللِّسان المبين فسميت العربيَّة باسمه . ويرىٰ البعض الآخر أن إسماعيل بن إبراهيم(عليهما السلام) كان أول من فُتق لسانه بالعربيَّة ، وهو ابن أربع عشر سنة ثم نسي لسان قومه من جرهم .

٣ - يستبعد الباحث أن تكون نشأة العربيَّة نشأة عادية . فنظامها الصوتي والنحوي البلاغي يدحض هذه الفكرة . ويتأكد ذلك إذا عُلم أن الأمة التي يُزعم أنها قد أبدعت هذا النظام اللُّغوي الدقيق ، هي أمة من الأميين الرحل ، عاشوا في بادية قاحلة وصحراء جرداء ، وأبعد ما يكونون عن عوامل الحضارة والرقىٰ والمعرفة التي يمكن أن يستعينوا بها علىٰ تطوير مثل هذا النظام اللغوي المتقدم المكتمل الدائم . ويدعم هذا الرأي ، أن هذه اللُّغة ظلت حيَّة نقية غضة طرية ، لم تتبدل ولم تتغير ، ولم تمت ولم تخضع للناموس الذي خضعت له جميع لغات الإنسان ، في التغيير والتبدل والنسيان .

٤ - إن تاريخ اللُّغة العربيَّة ، هو تاريخ الإنسان اللُّغوي من لدن آدم عليه السلام . أما تاريخ اللُّغات الأخرىٰ المعروفة في عالم اليوم ، فلا يتجاوز بضعة قرون . فاللُّغة الإنجليزيَّة المتحدثة اليوم ، أو ما يسمىٰ باللُّغة الإنجليزيَّة الحديثة ، فان عمرها لا يتجاوز الخمسة قرون . أما إنجليزية ما قبل هذا التاريخ ، فهي في عداد اللُّغات الميتة ، ولا يعرفها إلا بعض من علماء الآثار والمتاحف ، مثلها في ذلك مثل الهيروقلوفية واللاتينية . وهذا الحال نفسه ينطبق علىٰ اللُّغة الفرنسية المحكية اليوم ، والتي يرجع تاريخها إلىٰ القرن السادس عشر الميلادي ، أما

فرنسية القرون السابقة لهذا الزمان ، فهي أيضـًا من مقتنيات المتاحف .

٥ - اللُّغات المختلفة تختلف في عدد أصواتها ، حيث يتعدىٰ عدد الأصوات في بعض اللُّغات الستين صوتـًا ، بينما يقتصر في لغات أخرىٰ علىٰ خمسة عشر صوتـًا أساسيـًا ، مثلما هو الحال في بعض اللُّغات الإفريقية والآسيوية . أما أصوات العربيَّة فهي بضع وثلاثون صوتا ، مقسمة تقسيمـًا متوازنـًا علىٰ مدىٰ أطول مدرج صوتي ، يغطي الجهاز النطقي كله ، فتخرج تلك الاصوات واضحة متمايزة سهلة سلسة . وهذا عكس ما يوجد في كثير من اللُّغات الأخرىٰ ، التي يتكاثر خروج أصواتها من مخرج واحد ، فتتقارب في نطقها فتخرج باهتة متشابهة ، يصعب علىٰ متعلمها من غير بنيها إنتاجها وتميزها .

٦ - من أهم ميزات أصوات العربيَّة ، أنها ثابتة لم تتغير ، ولم يطرأ عليها ما طرأ علىٰ أصوات اللُّغات الأخرىٰ من تبدل وتحول أو اختفاء . فأصوات العربيَّة هي هي ، لم تنقص ولم تتبدل ولم تزد . أما ما تحدث عنه بعض اللُّغويين المحدثين من تغير في بعض أصوات العربيَّة ، فهذا غلط فاحش ، مرده إلىٰ تأثر بعض هؤلاء بلغاتهم الدارجة ، أو لسوء فهمهم للوصف الذي ورد في كتب الأقدمين لتلك الأصوات .

٧ - يقابل هذا الثبات المدهش في أصوات اللُّغة العربيَّة ، تبدل وتغير مربك في أصوات اللُّغات الأخرىٰ . فاللُّغة الإنجليزيَّة مثلًا ، فقدت عدداً من أصواتها الأساسية في أثناء مسيرة تطورها مثل صوت (gh) والذي كان ينطق خاءً ، وتبدلت جميع أصوتها المتحركة الطويلة لتصبح قصيرة ، ومجمل أصواتها الخلفية تقدمت وأصبحت أصواتـًا أمامية . وفقد الحرف (e) قيمته الصوتية في نهاية الكلمة . كما أسقطوا في مرحلة لاحقة ، صوت (R) عدا في المواقع المتوسطة بين صوتين متحركين ، أو إذا وقع في بداية الكلمة . حدث كل ذلك التغيير فجأة في القرن

الخامس عشر الميلادي ، وعرفت هذه الظاهرة بالتحول الصوتي العظيم (Great Vowel shift) . وأصبحت اللُّغة الإنجليزيَّة فيما بعد هذا التاريخ ، خلقاً آخرا لا يكاد يستبين معالمه الناطقون باللُّغة الذين عاشوا بعد هذا التاريخ . وأصبحت إنجليزية ما قبل القرن الخامس عشر ، في عداد اللُّغات الميتة ؛ لا يفهمها ولا ينطق بها أحد ، فانفصمت عرىٰ التواصل بين أجيالها ، وتاه بها الدليل في سراديب القرون المظلمة .

٨ - إن مما تفردت به اللُّغة العربيَّة ، نمطها الكتابي المتقدم . فالكتابة العربيَّة كانت ومنذ أن عرفت تمثل نموذجاً متطوراً جداً للكتابة الصوتية (phonetic writing) . وتتمثل سمة هذا التفرد في هذه الكتابة العربية في التطابق شبه التام ما بين المكتوب والمنطوق . وقد ساعد علىٰ تحقيق هذه السمة الفريدة في الكتابة العربيَّة ، مساواة رموزها الكتابية لأصواتها ، إضافة إلىٰ ثبات تلك الأصوات علىٰ مدار التاريخ . ففي اللُّغة العربيَّة ، ثمانية وعشرون حرفاً وثلاث حركات ، لتمثل واحداً وثلاثين صوتاً ، وهي جملة أصوات اللُّغة العربيَّة . ومن هنا تكون العلاقة بين الصوت والرمز علاقة أحادية ، فلا يوجد في العربيَّة مثلًا حرف له أكثر من قيمة صوتية واحدة ، كما لا يوجد صوت يمثل بأكثر من حرف واحد . وهذا التطابق بين المنطوق والمكتوب في الكتابة العربيَّة ، جعل العربيَّة تكتب كما تنطق . وهذا النمط لا يوجد له مثيلٌ في كتابات اللُّغات المعاصرة .

٩ - إن نظم الكتابة في اللُّغات الأخرىٰ ، خصوصاً نظام الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة والفرنسية ، أبعد ما تكون عن الكتابة الصوتية القياسية . فنظم كتابة تلك اللُّغات نظم اصطلاحية من الدرجة الأولىٰ ، ينعدم فيها التطابق ما بين المكتوب والمنطوق ، بحيث إنه من الصعب أن توجد كلمة في اللُّغة الإنجليزيَّة تكتب كما تنطق . ويُرد ذلك لأسباب عديدة ، أهمها أن عدد أصوات تلك اللُّغة

هو تقريباً ضعف عدد حروفها . ففي الإنجليزيَّة الرسمية المستخدمة اليوم ، وهي إنجليزية الملكة ، ثمانية وأربعون صوتاً ، بينما الأبجدية اللاتينية التي تكتب بهاالإنجليزيَّة ، تحتوي علىٰ ستة وعشرين حرفاً فقط . ورغم ذلك فقد تجد أن صوتاً واحداً يمثل بأكثر من حرف ؛ كما أن هناك حروفاً لها أكثر من قيمة صوتية واحدة ، وأصواتاً أخرىٰ تمثل بمركبات من الحروف . يحدث كل ذلك دون أن تكون هناك قواعد صارمة تحكم سلوك كل حرف أو صوت .

١٠ - إن وجد النحو في سائر اللُّغات ، إلا أن النحو العربي كان الأشمل والأكمل والأوسع أبواباً . فهو يقوم علىٰ سلسلة من القوانين الثابتة ، ويشتمل علىٰ كثير من الآليات التي تساعد علىٰ ضبط استخدام اللغة ، وتوضيح معانيها ، وإزالة الغموض الذي يعتبر ظاهرة متأصلة في كثير من اللُّغات الغربية .

١١ - النظام النحوي العربي نظام مفتوح ، لا تحدد فيه وظيفة الكلمة من مجرد موقعها أو رتبتها في الجملة ، كما هو الحال في النظم النحوية المغلقة السائدة في اللُّغات المعاصرة . ولكن هناك معايير إضافية مثل استخدام الحركات ، أو ما ينوب عنها لتحديد وظيفة الكلمة في الجملة أو موقعها من الإعراب .

١٢ - ومن السمات النحوية للغة العربيَّة ، التطابق التام بين مكونات الجملة الواحدة . فهناك التطابق بين الفاعل وفعله ، والتطابق بين الصفة والموصوف ، والضمائر الظاهرة والمستترة وما تنوب عنه من ذوات ، واسم الإشارة والمشار إليه ، وذلك من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، ومن حيث التذكير والتأنيث . فهذا الأمر يضيّق هامش الغموض ، ويجلي المعنىٰ المقصود ، ويضع اللُّغة العربيَّة في مقدمة اللُّغات من حيث الإبانة والوضوح . أما في اللُّغات الأخرىٰ ونسبة لعدم وجود مثل ظاهرة التطابق هذه ، يصبح الغموض اللغوي أمراً حتمياً

لا مفر منه .

١٣ - إن من الميزات العظيمة التي حباها الله للغة العربيَّة ، ذلك الميزان الصرفي الدقيق الذي بواسطته يستطيع متحدث العربيَّة أن يشتق عدداً كبيراً من المفردات من صيغة الفعل الثلاثي أو المصدر اعتماداً علىٰ قواعد ثابتة . فهذا النظام قائم علىٰ صيغ معلومة يستطيع المتحدث بوسطته تصريف الكلمة ، وإيجاد صيغ الفعل الماضي والمضارع والأمر ، واسم الفاعل واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، واسم المكان واسم الزمان واسم الآلة ، وغير ذلك من أجزاء الكلام . وعن طريق استخدام هذا المنوال العجيب يمكن لمتحدث العربيَّة ، أن يصوغ مفردات جديدة ، أو يتعرف عليها دون أن يكون قد سمع بها من قبل . وهذا أمر تتفرد به العربيَّة دون اللُّغات الأخرىٰ .

١٤ - إن معرفة الميزان الصرفي في اللُّغة العربيَّة تساعد علىٰ اختصار الوقت لتعلم هذه اللغة ، وتتيح الفرصة كاملة لاستخدام العقل والمنطق ، لاشتقاق مفردات جديدة يعبر بها المتحدث عما يدور في ذهنه بيسر وسهولة .

١٥ - إن اللُّغات الغربية خصوصاً اللُّغة الإنجليزيَّة ، تفتقر لميزان صرفي ينظم أبنيتها ويضع القوانين الثابتة لتصريف مفرداتها . فقد يأتي الفعل الماضي والفعل المضارع والتصريف الثالث علىٰ صيغة واحدة ، مثل ما هو الحال في الفعل (put) والفعل المضارع والماضي منه (put) والتصريف الثالث (put) . وتسمىٰ هذه الأفعال بالأفعال الشاذة في اللُّغة الإنجليزيَّة . والغريب في الأمر أن من مجموع الأفعال الأكثر شيوعاً في اللُّغة الإنجليزيَّة والبالغ عددها (٣٧٦) فعلا تجد أن (٦٧ ، ٥٪) من تلك الأفعال هي أفعال شاذة .

١٦ - نسبة لهذا الاضطراب الواسع في الصيغ الصرفية في اللُّغة الإنجليزيَّة ، فإنه يصعب جداً علىٰ دارسها أن يصرِّف فعلًا مهما كان بسيطاً ، دون أن يكون قد

حفظ سلفا طريقة تصريفه ، لأنه لا توجد في الواقع معايير ثابتة ، أو قواعد واضحة يمكن أن يسترشد بها الدارس لتصريف كلمة ما .

١٧ - إن اتساق الصيغ الصرفية في اللُّغة العربيَّة وثبات دلالاتها وأبنيتها يمكن أن يسهل عملية حوسبتها ، حيث إن الحاسب يمكن أن يتعرف علىٰ الصيغ الثابتة المنطقية بسهولة شديدة . ولا يخفىٰ علىٰ أحد الإمكانات الهائلة التي يتمتع بها الحاسب الآلي ، والتي يمكن أن تستغل للتعرف علىٰ مزيد من سمات هذه اللُّغة الشريفة .

١٨ - تتميز اللُّغة العربيَّة دون سائر لغات الشعوب بذخيرة ضخمة جداً من المفردات ، فلا يوجد مفهوم عرفه الإنسان معنوياً كان أو مادياً ، إلا وفي اللُّغة العربيَّة مندوحة للتعبير عنه . فالعربيَّة تمتاز بثروة وافرة من المفردات ومرادفاتها . وتعبر عن الذوات المختلفة ، ولو كان اختلافها يسيراً ، بألفاظ متمايزة .

١٩ - العربيَّة مفعمة بثروة هائلة جداً من المفردات . يذكر الخليل بن أحمد في كتابه « العين » أن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل (١٢ ٤ ، ٣٠٥ ، ١٢) كلمة . واعتماداً علىٰ دراسات حاسوبية دقيقة ، فقد وُجد أن عدد ألفاظ العربيَّة يفوق الستة ملايين لفظاً . هذه ثروة لغوية هائلة لا نظير لها بين اللُّغات المعاصرة . فاللُّغة الإنجليزيَّة ، علىٰ ذيوع صيتها ، فإن معجم اكسفورد الحديث الصادر في عام ٢٠١٠م ، لا يزيد عدد مفرداته كافة عن ستمائة ألف كلمة ، أغلبها مستعارة من لغات أخرىٰ ؛ والمستخدم منها في عالم اليوم ، لا يزيد عن ثلاثة وعشرين ألف كلمة . وقاموس اللُّغة الفرنسية ، لا يزيد عدد مفرداته عن أربعمائة ألف كلمة .

٢٠ - بهذا الثراء اللغوي العريض ، الذي لا مثيل له ، استطاعت اللُّغة العربيَّة التعبير عن كل المفاهيم الإنسانية بدقة متناهية ، ووضوح وبيان لا يضاهيه بيان .

فعبرت العربيَّة عن شرائع الإسلام كافة ، ومبادئه وتعاليمه السامية ، وعن مطلوبات الحضارة والقيم الإنسانية ، ومستلزمات العلوم والفنون بصورة غير مسبوقة . فانعكس ذلك إيجاباً على ذهنية الأوائل الذين عرفوا قدرها ، وفهموا مقاصدها ، وأبدعوا من خلالها نماذجَ من العلوم والفنون الراقية ، وحققوا نهضة علمية فريدة ، وترجموا جلَّ علوم الفرس واليونان والرومان ؛ فما ضاق صدر العربيَّة عن استيعاب تلك المعارف ، وما عجزت عن التعبير عن مطلوبات تلك العلوم والحضارات .

٢١ – وهكذا حفظت العربيَّة للإنسانية تراثاً إنسانيا فخيما ، أفادت منه البشرية فيما بعد ، وبنت عليه دعائم نهضتها الحديثة . ولو لا العربيَّة ، وحركة الترجمة التي شهدها عصر الحضارة الإسلامية الذهبي ، إبان الخلافة العباسية ، لضاعت تلك الثروة العلمية الهائلة ، ولتأخرت البشرية قروناً عديدة . وهنا يذكر أن الحضارة الإسلامية المعبر عنها من خلال اللُّغة العربيَّة ، لم يقف دورها عند نقل علوم السابقين ، وترجمة معارفهم ، ولكن كان هناك إبداعٌ علميٌ عربيٌ أصيلٌ ، تشهد عليه مؤلفات الفارابي وابن سينا الشيخ الرئيس ، وابن النفيس ، وجابر بن حيان ، وأستاذه الإمام جعفر الصادق ، وغيرهم كثير . وهو إنتاج علمي رفيع ، ما زالت رقاعه محفوظة في مكتبات أوروبا المعاصرة وجامعاتها العريقة .

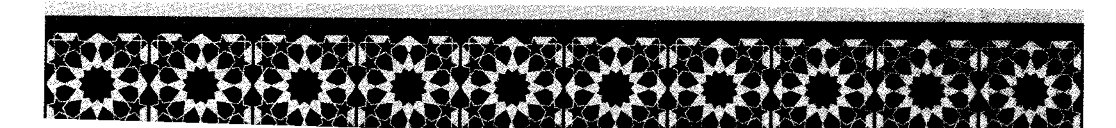
٢٢ – لم تقف سمات التميز في اللُّغة العربيَّة عند كونها لغة مكتملة مبنىٰ ومعنىٰ ، ولا عند تميزها بميزان صرفي ذهبي ، يعين علىٰ اشتقاق عدد غير قليل من المفردات ، ولا عند نحوها الذي يمثل قيمة إضافية ، تضمن العصمة من الخلط وغموض المعنىٰ ، ولا عند سعة مفرداتها وثراء معجمها اللُّغوي ، ولكن العربيَّة أيضاً تحقق أعلىٰ قيم الجودة الشاملة ، وذلك من خلال قدرتها علىٰ استخدام فنون البلاغة ، مثل البديع ، والبيان لتوضيح المعاني وتقريبها للأذهان .

تؤدي ذلك عن طريق تجسيد غير المحسوس ، وتجريد الملموس ، وإثارة الصور الذهنية ، كالتشبيه والكناية والإشارات الذكية ، التي تعين علىٰ الفهم والإمتاع معًا .

٢٣ – اللُّغة العربيَّة لا تقدم المعنىٰ كاملًا فحسب ، بل تقدمه في صور جمالية زاهية ، تسترعىٰ الانتباه ، وتكسر حاجز الرتابة ، وتشد السامع ، وتحقق متعة التواصل . وهي إضافة إلىٰ ذلك كله ، تحافظ علىٰ الذوق الرفيع والقيَّم الأخلاقية ، والآداب المرعية . انظر مثلًا إلىٰ قوله جلَّ شأنه وتقدست أسراره في الآية الكريمة ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[النساء ، آية : ٤٣] ، فتدرك أن هنالك معنىٰ لا يمكن أداؤه بغير هذا الأسلوب الذي عبرت الآية الكريمة عنه ، دون أن يُخدش حياء أو يُثار حرج . هذا الذوق الرفيع الذي عرفته العربيَّة منذ عصور سحيقة ، لم تدركه اللُّغات الحديثة إلا في فترة تاريخية متأخرة جداً ، وسموه Euphemism . والشاهد علىٰ ذلك ، أن كتبهم القديمة وخصوصًا كتب الأناجيل تعج بعبارات وألفاظ تصك الآذان ، وتخدش الحياء ، وتفسد الأذواق . انظر مثلًا العهد القديم النص الأصلي في « نشيد الإنشاد » الأصحاح الخامس (ص : ٢٨٠) . حيث تقرأ العجب العجاب .

٢٤ – أما اللُّغة العربيَّة ، الغنية بتشبيهاتها وكناياتها واستعارتها ومحسناتها البديعية ، فتسمو بمتحدثها وسامعها إلىٰ مراقي الكمال والجمال ، وتغذي العقل والوجدان ، وتكسر حاجز الرتابة ، فتفتح آفاقًا رحبة للتواصل الإنساني ، وتحقق حاجات الفرد العقلية والوجدانية والروحية والاجتماعية بسلاسة ودقة متناهية .

٢٥ – إن مبدأ الأسلوبية الذي يتحدث عنه اللُّغويون المحدثون كثيراً ، لهو مبدأ قديم رعته العربيَّة ، ورعاه مستخدموها وبدقة متناهية ، ومنذ عصور قديمة زاهية . فكان خطاب كل بما يفهم ، أسلوبًا معتاداً في العربيَّة ، أدركه الأوائل



بفطرتهم النقية واستخدموه ببراعة وروية ، فجاءت الأقوال مطابقة لمقتضىٰ الأحوال . انظر قول بشار بن برد ، الذي وجد في العربيَّة أساليب متنوعة ، يخاطب بها طبقات مختلفة ممن يتعامل معهم ، كل حسب مستواه العقلي والإدراكي . فهو القائل مخاطباً ربابة جارته قائلًا :

ربابة ربة البيت　　تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات　　وديك حسن الصوت

وهو نفس القائل في مقام آخر مفتخراً :

إذا غضبنا غضبة مضرية　　هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وحين يسأل بشار ، العارف بأسرار اللُّغة العربيَّة ، عن هذا التباين في أسلوبه ، يجيب بأنه يخاطب كل بما يفهم . وأن خطابه لربابة جارته بهذا الأسلوب البسيط ، لهو أبلغ وأحسن عندها من قول أمرئ القيس (قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل)

٢٦ - هذه الخصائص النادرة وغيرها كثير ، تؤهل العربيَّة ، وترشحها لأن تكون اللُّغة الإنسانية الأولىٰ ؛ والتي تمثل الكنز النفيس الذي يبحث عنه علماء اللُّغة المحدثون ، لصياغة اللُّغة الكونية التي يحتاجها عصر العولمة . ويحسب الباحث أن هذا الأمر سوف يحدث قريباً وقريباً جداً ، وحينذاك سيدرك أبناء العربيَّة والناطقون بها مكانة هذه اللُّغة بين لغات العالم . وقد يهزُّ أحدهم كتفيه قائلًا : « هذه بضاعتنا رُدت إلينا » .

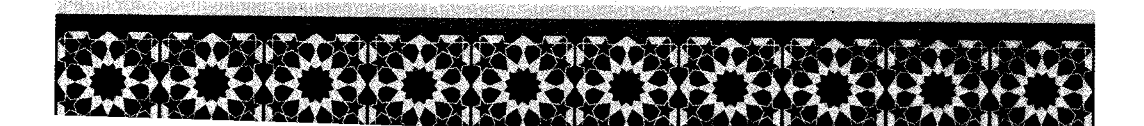
خلاصة :

من كل ما سبق ، يخلص الباحث إلىٰ أن اللُّغة العربيَّة ، لغة عريقة ، ضاربة جذورها في التاريخ . ويعتقد الباحث أنها الأصل ، الذي انبثقت منه كل اللُّغات ،

حيث احتبست في جزيرة العرب ، وحافظت علىٰ نقائها وبهائها ، ولم تتعرض لما تعرضت له اللُّغات الأخرىٰ من تبدل أو تغير ، أو فناء وانقراض . بل ظلت رغم قلة الجهد البشري المبذول لحفظها ، محفوظة بحفظ الله ، تكلؤها عنايته ، وتحيطها رعايته ، تستمد سرَّ بقائها وأسباب خلودها من القرآن الكريم ، الذي بها نزل رحمة وهدىٰ للعالمين . وهكذا ستبقىٰ إلىٰ يوم الدين . وهذه ميزة كانت للعربية دون سائر اللُّغات .

ولا شك أن العربيَّة قد تميزت بسمات فريدة ، وخصائص عديدة ، أهلتها ومنحتها قوة البقاء ومكنتها من مقاومة أسباب التغير والتبدل والفناء . فهي تمتاز بنظام صوتي ثابت ومعتدل ، ظل كما هو علىٰ مرِّ الزمان ، الأمر الذي أعطىٰ العربيَّة إمكانية الاستمرارية ، وكفل لها فرصة نادرة لتواصل الأجيال المتعاقبة . فتجد طفل المدرسة الأبتدائية ، مثلًا ، يفهم أحاديث رسول الإنسانية (عليه أفضل الصلاة والسلام) التي قالها قبل أربعة عشر قرنـًا من الزمان . بينما يصعب -إن لم يستحل- علىٰ أساطين اللُّغة الإنجليزيَّة ، والنابهين من أبنائها ، فهم أقاصيص جوسر (CHAUSER) التي كتبتها في القرن الرابع عشر الميلادي .
ومن خصائص العربيَّة الفريدة ذلك الميزان الصرفي الدقيق ، وهو منوال يمكِّن دارس العربيَّة من اشتقاق عدد غير محدود من المفردات ، ويتيح الفرصة للدارس لاستخدام قواعد المنطق والاستنباط والاستنتاج لتوليد مفردات جديدة وإن لم يسمع بها من قبل قياسـًا علىٰ معلوم . وهذا المنوال قلّ ما يوجد له مثيل في لغة أخرىٰ ، وهو معيار يسهل دراسة اللُّغة العربيَّة ، ويختصر الوقت المطلوب لإتقانها .

أما نظام الكتابة العربيَّة ، فهو نظام صوتي قياسي . حيث تكتب كل كلمة بحسب طريقة نطقها . فلا يوجد في العربيَّة ، حروف مكتوبة غير منطوقة ،



ولا توجد بها أصوات تنطق دون أن تمثل برموز أو حروف . كما لا يحمل الحرف العربي أكثر من قيمة صوتية واحدة ، ولا يُمثل الصوت الواحد بأكثر من حرف واحد . وهذا آخر ما توصل إليه علماء اللُّغة المحدثون لكتابة اللُّغات بالطريقة الصوتية . أما الحالات النادرة التي يخالف فيها المكتوب المنطوق في العربيَّة ، فهي حالات محدودة تحكمها قواعد صارمة ، وقوانين ثابتة . وهذا عكس نظام الكتابة في اللُّغة الإنجليزيَّة مثلًا ، التي لا تكاد توجد فيها كلمة واحدة تكتب كما تنطق ؛ الأمر الذي يجعل أمر تعلمها عسيراً معقداً .

ثم هناك النحو العربي ، وهو نظام شامل مفتوح ، ويُمثل قيمة إضافية تساعد علىٰ جلاء المعاني ، وإزالة الغموض الذي يقع في كثير من اللُّغات .

واللُّغة العربيَّة دون سائر لغات الكون ، تزخر برصيد وافر من المفردات ، ويتسع صدرها الرحيب للتعبير عن المفاهيم المتجددة . ولها آليات ذكية مثل الاشتقاق والنحت ، لصياغة مفردات جديدة يمكن أن تعبر عن مطلوبات المعارف المتجددة ، والمفاهيم الحديثة المتعددة . والعربيَّة لا تكتفي بالتعبير عن المفاهيم والمعارف بدقة ، بل تسعىٰ لتحقيق ذلك من خلال تطبيق معايير الجودة الشاملة ، وإتباع مسالك الإتقان والإحسان ، حيث تقدم تلك المفاهيم في أطر جمالية أخاذة ، وصور بلاغية رائعة ، تحقق الفهم والإمتاع معـًا ، وتكسر حاجز الرتابة وتثرىٰ الفكر والوجدان .

توصيات الدراسة :

ثبت من خلال هذه الدراسة ، أن العربيَّة لها من السمات والخصائص والمؤهلات ما يضعها في مقدمة اللُّغات الإنسانية . وعليه يوصي الباحث بأن تولىٰ هذه اللُّغة ، من قبل بنيها ، ماتستحقه من اهتمام ، وماهي جديرة به من

احترام . فهي وجدان الأمة وضميرها الحي ، وعقلها الذي به تفكر . فإن أرادت هذه الأمة أن تحقق وحدتها ، وتعزز سيادتها وتستكمل نهضتها ، فلا سبيل لها لأن تنجز ذلك ، إلا من خلال تقوية لسانهاالعربي المبين ، وإعلاء شأنه بين العالمين . وللأمة أن تحقق ذلك من خلال ما يلي :

١) الاهتمام بتعليم اللُّغة العربيَّة للنشء وتعزيزها في المناهج المدرسية واتباع أحدث الوسائل لتعليمها ، والتوسع في النشاط اللاصفي الذي يتيح فرصة ممارسة اللُّغة كتابة وخطابة ، حتىٰ ينشأ جيل مُجيد للغة ، مستمسك بقيمها ، مطلع علىٰ أسرارها ، معتز بقدرها . ويتطلب ذلك اختيار مادة تعليمية ، ونماذج أدبية رائعة تستهوي أفئدة الدارسين ، وتشحذ عزائم الباحثين . وأهم من ذلك كله ، الاهتمام بتحفيظ النشء القرأن الكريم ، اذ به تستقيم الألسن والعقائد ، وتنحل العقد والشدائد ، فينشأ جيل ، تكون اللُّغة سليقة مركوزة في فطرته .

٢) الاهتمام بتدريب معلمي اللُّغة العربيَّة تدريباً عالياً ، يعينهم علىٰ أداء مهامهم الجسام بسهولة ويسر . فهم رأس الرمح في معركة التحرير والتأصيل القادمة .

٣) الاهتمام بالبحث العلمي الذي يتناول اللُّغة العربيَّة في مجالاتها الرئيسة ، ومظانها المختلفة ، وفروعها المتباينة ، ومقارنتها ومقابلتها باللُّغات الأخرىٰ ، حتىٰ تظهر مكانتها السامية بين اللُّغات ، ثم لتوفىٰ حقها من الاحترام والاهتمام .

٤) جعل اللُّغة العربيَّة لغة للتعليم ، والبحث العلمي في الجامعات ، ولغة للمعاملات الرسمية في مؤسسات الدولة . فهي أقدر اللُّغات علىٰ إنجاز هذه المهام . وإن اعتماد اللُّغات الأجنبية ، لغات للتعليم الجامعي ، أمر معيب يُخرِّج في أحسن حالاته ، نسخاً مشوهة لإنسان الغرب ، الذي تُدرس تلك العلوم برطاناته الغامضة .

٥) اهتمام وسائل الإعلام بتقديم الرسالة الإعلامية ، بلغة عربية فصيحة صحيحة . وهذا يتطلب تدريب الإعلاميين تدريباً لغويًا عاليًا . فهم الذين يسهمون بقسط وافر في تشكيل لغة الأمة واتجاهاتها ونزاعاتها وذوقها .

٦) يوصي الباحث بتطوير مناهج لتعليم اللُّغة العربيَّة للناطقين بغيرها . فهناك مليار مسلم من الناطقين بغير العربية و ينتشرون في قارات الدنيا السبع ، يتطلع كل منهم لتعلم قسط ، ولو يسير من اللُّغة العربيَّة .

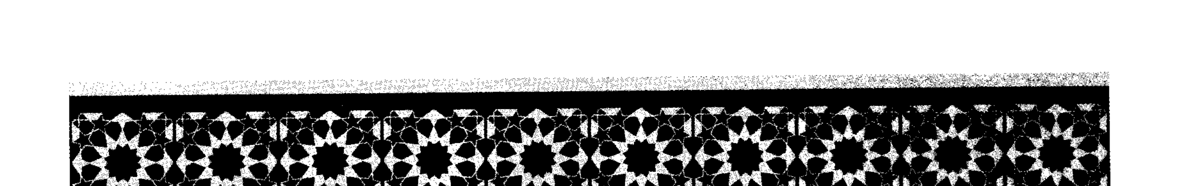
٧) أما علىٰ المستوىٰ الإقليمي ، فيوصي الباحث بضرورة تعزيز التواصل بين المجامع اللُّغوية الموجودة في البلاد العربيَّة المختلفة ، حتىٰ تتكامل جهودها في خدمة هذه اللغة . فهذه المجامع تضم علماء فحولًا ، وأدباء مفلقين في كافة ضروب المعارف والآداب . ولا شك أن تضامنهم وتعاونهم ، سوف يكون رصيداً لهذه الأمة ، وإضافة حقيقة للحضارة الإنسانية .

٨) علىٰ الجانب التقني ، يوصي الباحث بالسعي الجاد لحوسبة اللُّغة العربيَّة . فلا أحد يجهل الإمكانات المهولة التي يزخر بها الحاسوب . وعليه فإن حوسبة اللُّغة العربيَّة ، سوف تكشف الكثير المثير من أسرار هذه اللُّغة المدهشة .

هذه بعض التوصيات التي أراد الباحث أن يختم بها هذا البحث المهم ، والذي رمىٰ الىٰ أن يحدد منزلة العربيَّة بين لغات العصر . والأماني تبقىٰ مشروعة ، والدعوات الصادقات إلي الله مرفوعة ، أن يكون هذا الجهد ، علىٰ تواضعه ، قد أسهم في إزالة ما ران علىٰ العربيَّة من ركام الافتراءات الزائفة ، والأكاذيب السمجة ، والتهم الباطلة التي ظلت توجه للعربية دون وجه حقٍّ أو دليل . والأمل يبقىٰ معقودًا أن تعقب هذه الدراسة ، دراسات أخرىٰ أكثر عمقًا وتمحيصًا ، فتكون نوراً ونبراسًا تستضيء به العقول الباحثة عن جوهر الحقيقة المطلقة ، وبشارة تلوح في أفق فجر جديد ، يكون فيه للعربية سيادة وريادة ،

فتسعد بها الإنسانية ؛ كل الإنسانية ، وينداح معها الكون ، ليكون دار سلام وتفاهم ووئام .

هذا وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ونبيا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



قائمة المراجع العربيَّة

١ - إبراهيم ، عبدالفتاح محجوب ، (١٤٠٥) الكتابة العربيَّة وصلاحها لتعليم اللُّغة لغير الناطقين بها . مطابع جامعة ام القرىٰ .

٢ - ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسين علي ، كتاب الكامل في التاريخ . تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي : دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ . ١٤٠٧هـ .

٣ - الأنباري ، عبدالرحمن بن محمد عبيد الله (ت٥٧٧) أسرار العربيَّة : دراسة وتحقيق محمد شمس الدين (١٩٩٧) دار الكتب العربيَّة : بيروت .

٤ - أنيس ، إبراهيم (٢٠٠٧) اللُّغة بين القومية والعالمية مطبعة القاهرة . مصر .

٥ - ألبرت ، إل . (٢٠٠١) الكتابة في اللُّغات الغربية المعاصرة . ترجمة : علي الحسن مطابع الثقافة ، القاهرة .

٦ - بروكلمان ، س . (١٩٦٨) تاريخ الأدب العربي . ترجمة عبدالحليم النجار دار المعارف بمصر – القاهرة .

٧ - الجاحظ أبوعثمان عمربن بحر (ت٢٥٥) البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام هارون . دار الجبل : بيروت (١٩٩٠) .

٨ - الجرجاني ، عبدالقاهر (ت٤٧١) أسرار البلاغة . تحقيق د . محمد الداية ود فايز الداية . دار الفكر : دمشق .

٩ - الجرجاني ، عبدالقاهر (ت٤٧١) دلائل الإعجاز . تحقيق د . محمد الداية ود فايز الداية . دار الفكر : دمشق .

١٠ - جواد ، علىٰ (١٩٨٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام .

١١ - حسان ، تمام (١٩٧٩) اللُّغة العربيَّة معناها و مبناها الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٢ - الخطيب ، أحمد شفيق (٢٠٠١م) حول توحيد المصطلحات العلمية ، دائرة المعاجم : مكتبة لبنان ، بيروت

١٣ - ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون (١٩٨٦) المقدمة تحقيق محمد أبو الفضل طبعة بيروت .

١٤ - خليفة ، عبدالكريم (٢٠٠٣م) ، اللُّغة العربيَّة علىٰ مدارج القرن الواحد والعشرين . دار الغرب الإسلامي : بيروت

١٥ - الخماش ، سالم (٢٠٠٣) فقة اللُّغة عند الأوائل جامعة الملك عبدالعزيز : كلية الأداب .

١٦ - دبة ، الطيب (٢٠٠٤) خصائص النحو العربي من النظام المغلق الىٰ التطابق المفتوح .

١٧ - الدغريري ، عبد العلىٰ (١٩٩١م) ، الفرنكفونية والسياسة اللُّغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب . مطبعة النجاح : الدار البيضاء .

١٨ - دي ، سوسير (١٩٨٧) محاضرات في الألفية العامة ترجمة غازي ومجدي النصر . دار نعمان للثقافة : بيروت .

١٩ - الزركشي ، بدر الدين (١٩٧٢) البرهان في علوم القران تحقيق محمد ابوالفضل . دار المعرفة : بيروت .

٢٠ - زيدان ، جرجي (١٩٨٢م) الفلسفةاللُّغوية . والألفاظ العربيَّة دار الحديث- بيروت .

٢١ - السالم ، علي (٢٠٠١) العلوم العربيَّة . مطابع دار الثقافة : جدة

٢٢ - السامرائي ، صالح فاضل (٢٠٠٣) معاني النحو دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . عمان : الأردن .

٢٣ - ابن السراج (ت٣١٦) الأصول في النحو . تحقيق عبدالحسين القعلي مؤسسة الرسالة – بيروت (١٩٨٥) .

٢٤ - السكاكي ، سراج الدين (ت٦٢٦) المفتاح شرح قطب الدين الشيرازي : دمشق .

٢٥ - سيبويه ، عمرو بن عثمان بن قمير (١٤٠٣) الكتاب تحقيق عبدالسلام محمد هارون عالم الكتب ، القاهرة .

٢٦ - شاكر ، أحمد محمد : دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : أحمد الشنتناوي ، إبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، (بيروت : دار المعرفة ، د . ط . ت) مج ٦٤٦/ ٢ ، مقال : الأمي .

٢٧ - شاهين ، عبدالصبور (١٩٨٣) العربيَّة لغة العلوم والتقنية . دار الصلاح للطبع والنشر والتوزيع : القاهرة .

٢٨ - الصالح ، صبحي (١٩٦٠) دراسات في فقة اللغة . منشورات جامعة دمشق ، دمشق .

٢٩ - ابن عاشور ، محمد الفاضل (١٩٦٦) التفسير ورجاله دار الكتب الشرقية . تونس .

٣٠ - الزيات ، أحمد حسن (٢٠٠١) تاريخ الأدب العربي دار المعرفة : بيروت : الطبعة : ٦ .

٣١ - عمر ، عبدالمجيد الطيب (١٤٢٩) « علم اللُّغة الجنائي » مجلة جامعة نايف للعلوم الأمنية : الرياض . العدد٢٧ (٣٨-٥٢)

٣٢ - الفاخوري ، حنا . (١٩٨٧) تاريخ الأدب العربي منشورات المكتبة السيولسية : بيروت .

٣٣ - الفارابي ، أبونصر محمد (ت٣٣٩) المخول . مكتبة التراث : دمشق .

٣٤ - ابن فارس ، أحمد (ت٣٩٥) الصاحبي في فقة اللغةالعربيَّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها . تعليق احمد حسن بسج (١٩٩٧) دار الكتب العلمية : بيروت – لبنان .

٣٥ - أبو الفتح ، عثمان بن جنىٰ (١٩٨٢) ، الخصائص ، تحقيق محمد عبد الخالق بيروت طبعة بيروت .

٣٦ - الفراهيدي ، الخليل بن أحمد (ن١٧٣) كتاب العين مكتبة مشكاة الإسلام .

٣٧ - فريحة ، أنيس ، (١٩٨٢م) نظريات في اللغة . دار الكتاب اللبناني – ط٢

٣٨ - فنديس (١٩٦٧) اللُّغة ، تعريب عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص .

٣٩ - القرطبي ، محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني ، (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ط . ت) ج٩١/١٨ .

٤٠ - القزويني ، جلال الدين الخطيب ، (ت٩٣٧) الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي . دمشق

٤١ - القلقشندي ، أحمد بن علي (ت٨٢١) صبح الأعشىٰ تحقيق محمود سلامة ١٤٠٦ .

٤٢ - كرستيان وآخرون (١٩٩٨) مدخل إلىٰ الألفية الثالثة . ترجمة طلال وهبه .

٤٣ - ابن مالك ، بدر الدين بن محمد (ت٦٢٤) المصباح في المعاني والبيان والبديع ، تحقيق حسني عبد الجليل . مكتبة المصطفىٰ .

٤٤ - المبرد ، أبوالعباس محمد بن يزد(٢٨٥) المقتضب تحقيق الشيخ محمد عبدالخالق عضيمة : القاهرة (١٣٨٦) .

٤٥ - المبرد ، ابو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥) الكامل تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة : القاهرة . (١٣٨٦)

٤٦ - المحمودي ، سلامة (٢٠٠٧) طاقة الحروف العربيَّة دار الفلاح ، الرياض .

٤٧ - المعطاني ، عبد الله (٢٠٠٤) العربيَّة في العصر الحديث . مطابع الهاجري ، الرياض

٤٨ - ابن منظور ، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم(١٩٩٦) ، لسان العرب : بيروت

٤٩ - مونان ، ج (١٩٩٨) علم اللُّغة في القرن العشرين . ترجمة نجيب غزاوي . مؤسسة الوحدة : سوريا .

٥٠ - ميروري ، ليندي (١٩٨٢) نحو اللُّغات الأوربية تعريب : كمال اسماعيل ، دار نعمان للثقافة بيروت .

٥١ - ابن النديم ، (١٩٨٧م) الفهرست تحقيق محمد عبدالخالق طبعة بيروت

٥٢ - نولدكه ، د . (١٩٦٣) اللُّغات السامية . ترجمة رمضان عبدالتواب . المطبعة الكمالية . القاهرة .

٥٣ - وافي ، علي عبدالواحد (٢٠٠٤) علم اللُّغة مطبعة نهضة مصر : الطبعة التاسعة .

قائمة المراجع الأجنبية

1 - Allen ،H & Campbell ،R . (1972) Teaching English as a Second Language . New Delhi . McGraw Hill .

2 - Barber ،C . (1972) The Story of Language . Pan Books . London

3 - Baugh ،A . & T . Cable (1993) A History of English Language : Tailor of Francis Group .

4 - Blaser ،s . (1993) A Brief History of English . Oxford University Press .

5 - Bong ،R (1995) New Trends in Linguistics . New York .

6 - Brown ،S (1999) Theories of Second Language Acquisition ،New York .

7 - Chastain ،k . (1972) " Behaviorstic and Cognitive Approaches in programmed Instruction " in Allen ،H & Campbell ،R . (1972) Teaching English as a Second Language . New Delhi . McGraw Hill .

8 - Chomsky ،N . (1986) Essays on Form and Interrelation . North-Holland Publishing Co

9 - Crystal ،D . (1995) Encyclopedia of the English Language . Cambridge : Cambridge University press .

10 - Culpeper ،S . (1997)Language and Brain ،New Jersey

11 - De Saussure ،F (1966)A Course in General linguistics new York .

12 - Deyoug ،T . (1999) Modern English . Oxford University Press .

13 - Dolin ،M & N . Chad wick ،(1972) The Celtic Realms 2nd . London .

14 - Holmes ،T . (1936) Ancient Britain and Invasions of Julius Caesars : Oxford University Press .

15 - Hussain ،u ،(2009) An Evaluation of ESP Material For Medical Student . Unpublished PhD . thesis . Omdurman Islamic University .

16 - Jesperdon ،o . (1922) Language ،its nature development and origin New York .

17 - Kelly . L . (1969) 25 Centuries of Language Teaching . Mass . New Bury House Publishers

18 - Rolling ،R . Comparative and Contrastive Linguistics . New Jersey .

19 - Sampson ،L (1985) An Old English Grammar 2nd Ed . London .

20 - Skinner ،J . (1986) Critical Commentary on Genesis . New York

21 - Troger (1957) Historical Linguistics ،3rd Ed . New York .

22 - Umar ،A . (2009) Forensic Linguistics Faculty of Arts Journal Vol . 2 P . P279-308 .

23 - Water s & Water ،M . (1998) Comparative Indo- European Linguistics : An Introduction Amsterdam .

قائمة المواقع الالكترونية

1) www . jablah . com/modules/news/index . php

2) www . poetry-online . org/chaucer_balade . htm

3) http : //poetry . about . com/od/poems/l/blbeowulf5 . htm

4) http : //taakhinews . org/?p=45122

5) http : //www . moltaqabh . org

6) www . hakeem-sy . com/main/node/36041

7) www . cummingsstudyguides . net

فهرس المحتويات